SALIM BARAKAT

رواية
NOVEL

سليم بركات

الفلكيّون في ثلاثاء الموت:
عبور البشروش



الفلكيّون في ثلاثاء الموت:
عبور البشروش

الفلكيّون في ثلاثاء الموت : عبور البشروش / رواية عربيّة
سليم بركات / مؤلّف من سوريّة
الطبعة الثانية ، 2006



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®

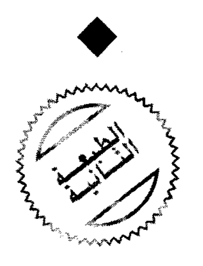
لوحة الغلاف : **ڤلاديمير كوش / روسيا**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**
التنفيذالطباعيّ : **مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان**

ISBN 9953-36-937-2



سليم بركات

الفلكيّون في ثلاثاء الموت:
عبور البشروش







الأسماء بحسب ورودِها في شَفَقِ المحنة:

- شجرة الخرّوب الضخمة
- أبوستولي: صاحب المقهى
- جانو إينينْ: مهندس المتاهات
- مِيْلانْ: شاعر زقاق روستينوف
- حمّاد الصَّفّار، مؤلّفٌ جاهل
- جيْنْ: قَنيصةُ اللّون
- يَلْماز مَلْيْ: سجين الألفي عام
- «التأسيس الكبير»: كِنَاشٌ مفقود
- كُوْتِي: ذات الطّبل
- أبو المُغضِلِ أويسّ الماردينيُّ، صاحب «التأسيس الكبير».
- الميناثيُّ، مُفَبْرِك «أهوال الفجر»
- الآذريّ: معماريّ الأعمدة التي لا تتّصل بالأرض
- أخماليذُوس الفلكيّ، مهندس بُرج «السّلوقيّان»
- ميكاليدِسْ: المشرف السابق على إدارة مساكن المهندسين
- نيكوسْ: الدرّاج ذو الساق الواحدة
- بابونان
- «الطبيب»: المشرف اللاحق على إدارة مساكن المهندسين
- نخّاتون
- مَهْمَد تَشِيْ: مغنّي الكلمات الحديدية

- الكهل

- عمر حَاجو: صاحب الاعتراض المرفوع الى شمال افريقيا

- عمر بَالو: إمام مسجد

- وِطْفَا: صاحبة الخروف المُعَذَّب، أخت عمر حاجو.

- بَهُوْ، سِيَرُوْكي: أختا عمر حاجو

- شيرين: زوج عمر حاجو

- علي صُوْرُو: المحارب التائه في قصيدة ميلان

- خروف وَطْفا

I ـ تصاميم المتاهة

١ ـــ عويل شجرة الخرّوب

تمائمُ كثيرةٌ يلقي بها الهواءُ المختنقُ، في هذه الظهيرة، مخفِّفاً من أحماله. وكذلك شجرة الخرّوب الضخمة، المنبثقة من المشهد أمامي، ترمي ظلالاً رهيفةً، مسنونةً، عمودياً، إلى طرف الإسفلت الصقيل من أثر الحمّى التي يتركها حزيران في الأيدي القابضة على جمر الله، منذ انجذبت الكينونةُ إلى سِحْرِ نَفْسها في المرائي فانتلفتِ الحياةُ بأطواقٍ من النحاس والحديد، وشهواتٍ مكسورةِ الأقنعة.

فكرةٌ واحدة تقتنص الكثافةَ، كصياد، بالصوتِ الهادر لجبّالةِ الإسمنت. وأنا خلف الطاولة البيضاء، المستديرة ـ على القارعة المظلّلة بسقفٍ من القماش المنحدر على واجهة المقهى الذي أرتاده ـ لا يسعني إلاّ مشاركة الصيف ثقله الأزليّ، كأنما أنا وجبّالة الإسمنت شقيقان.

يأتي الصيف فتأتي جبّالات الإسمنت، ذوات البطون البيضاوية، دائرةً في مراكزها الصاخبة وهي تخلط الحصى بالطحين الصخري والماء، ليأخذ العمالُ الجِبِلّةَ في صفائح كبيرة إلى هياكل المباني، التي تتكثف، يوماً بعد يوم، سارقةً من الأقحوان الربيعيّ مراتعه الخصبة في الخلاءات.

الصيف سَرِقةٌ مفتضحة. وأنا وراء الطاولة البيضاء أمسك كأس الشراب المثلجة في راحتي اليسرى، وأمسح باليمنى غزوات العرق المنحدر من حاجبيّ على جفنيَّ العلويين. كوم من مناديل ورقية أمامي أيضاً، قرب صحن النُّقْل الصغير. إلى يساري ستارة تفصل المقهى عن محل البقالة، الذي يزدحم بنساء تعبن من شيخوختهن فتركن شُعيرات صلبة، ملتوية، تطفر بسماحة لا مثيل لها فوق أنوفهن، وعلى جنبات ذقونهن، وعلى الغضاريف التي تعلو شحمات آذانهن. وهنّ يأتين ملولاتٍ، ويذهبن ملولات، بعدما يعايِنَّ كلَّ حبةِ فاكهةٍ، أو عِرْقِ خُضْرةٍ، طويلاً، معاينةً تفيض فيها تمتمات الازدراء، والشكوى، وذكر

أسماء البنين والبنات، والأزمنة، والمقايضات الشقية بين الجسد الذاهب إلى جهةٍ والذاكرة الذاهبة الى جهةٍ أُخرى.

فَتْكٌ هائل يرمي مفاتيحَ القيظِ من سريره إلى شارع «آخيون»، في الساعات التي اتبضّعها من الشيطان، بين الحادية عشرة صباحاً والثانية بعد الظهر.

ثلاث ساعات يومياً، في تسع سنين، داخل المقهى أو على رصيفه. طاولتي هي ذاتها. رسومٌ لا تنتهي، دائرياً، على محيطها: اسمي بحروف رومية، وإشارات كأسُهُم، ومثلثاتٌ، وطيورُ نَحَام. كلّها محفورة بسكين أهدانيه صاحب المقهى نفسه، الذي احترقَ مرتين لأسباب مجهولة.

أنا مَعْلَم من معالم المقهى المهجور إلاّ من عابرين قليلين هم عمّال بناء، أو سائقو شاحنات الرمل المستخدم في تمليس الجدران. يتغيرون باستمرار، فيما المشهدُ العالق بشجرة الخرّوب الضخمة هو الجليس الدائم معي، في الجهة الأخرى من الطاولة، شمالاً، سواء أكنت داخل المقهى أم على رصيفه، الذي طلعتْ من فتحةِ مصرفِ المياهِ، وسطه، عبر قضبان الحديد الرقيقة، ساقُ شجيرة عنب. ألْمَحْتُ إلى «أبوستولي» ـ صاحب المقهى أن يسندها بدعامة خشبية عسى تعلو فتصير عريشةً، فضحك، ثم ركلها بقدمه فطار عنقها القصير الطريّ في الهواء، ثم هرستْهُ دراجة نارية لم يغطِّ ضجيجُها أنين تلك العنق.

لهاثُ الصيف قويٌّ على رصيف المقهى. وهجُ الإسفلت يضاعف شهوات القيظ. وأنا بي رغبة في مصارحتكم بالذي سيحدث هنا. كل شيء ينبىء بالذي سأحدثكم فيه. فالوقت، كمُريدٍ أبكم من مريدي الماضي، لا يطيل المكوث في الوحدة التي مُنِحَها لتكون له حظوةُ الإشراف على كلِّ آتٍ. لا. إنه يهرع، أبداً، إلى رحابة ماضيه المؤكَّد كَسِرٍ من أسرار الفردوس. لذلك سأصارحكم بالذي سيحدث قبل أن يصلكم فتنسوه. وهو ليس بالخارق على أية حال: طلقتان أُطلقهُما على غريبٍ في قبو مسكني، من بندقية صيد مرخّصة. والخوض في هذا هيّنٌ

مقارنةً بالعذاب الذي يعتمل داخل ثمرات شجرة الخرّوب، الشبيهة بأصابع آدمية متغضّنة، بُنّية، داكنة. فالعصير الحلو، الدَّبق، المتخثر في تجاويف القشور المسدودة للثمار، يتململ مَغْليّاً في سلاسل القيظ. وأنا أسمع ذلك الشقاءَ في انفجاراته الخفية، فأعمد، أحياناً إلى كسر بضع ثمرات وأدلق الصّمغَ السُّكّري، قطرةً قطرةً، على ساقها ذات الأخاديد المليئة بالنمل. لكن ذلك لا يفرّج من كَرْبِ الشجرة. فالغصون الأكثر علواً هي الأكثر سخاءً بعطائها الثقيل، وما من قاطفين. وإذا انتهى الصيف تكون تلك الثمراتُ العذراءُ انعقفتْ كمخالب ببغاء، وهي تردّد ما تردّده الريحُ العانس في أنحاء «آيوس ديمتيوس» الدائرية.

كلُّ شيء ينبىء بالذي سأحدثكم فيه. لكن يمنعني الحياء من النظر إلى الغيب عارياً هكذا، مكشوفاً، في العراء الصغير الذي يواجه المقهى، حيث عمّال البناء وجبّالات الإسمنت، والشاحنات الرائحة الغادية بأحمالها الواضحة، المنذورة للفراغ الذي سيغدو منزلاً، بجدران، وأبواب، وشبابيك، وسياج، وبضع شجرات من فصيلة العَفْصِ، أيضاً. وربما ارتأى البستانيُّ المُكَلَّفُ أن يزوّدَ السياجَ بفسائل من الجيرانيوم السائد كالغبار في حدائق المنازل الشُّعث، وبالخُبَّيْزِ الشجري ذي الأزهار الحمر القُمْعيّة، ذات المدقّات الصفراء التي تعلق بالثياب مثلها مثل غبار شجرة الميموزا.

من يدري؟ لا. المشهد مكشوف على غيبه. لكن النظر إلى الغيب ليس من طباعي. أتحاشى ذلك لأنني متّفق مع نفسي على الاكتفاء بالشؤون الظاهرة، كالعَدَم مثلاً؛ كالموت مثلاً؛ كالقيامة التي لها تفاسيرُها الصريحة مثلاً؛ كالمعجزات وهي تشهد كل يوم من يتطاول عليها بتدشين تنوّر صغير في الفسحات الخلفية للمنازل، وكل تنّور يقوم على قاعدة عالية من الإسمنت، وموكّل ـ يوماً في الشهر ـ بإنضاج طعام من اللحم والبطاطا المحفوظين في ورق معدني، يجري التفاخرُ بسردِ تاريخه المرتبط بلصوص الجبال.

لا. ليس من طباعي سردُ الغيب على أحد، حتى لا أحتقر مَنْ

احادثه في شؤون يفهمها. لذلك لن اشرح لكم ما الذي سيحدث من هرج هنا، ومن تداخُل في المهمات، وفوضى، ومكابدات، وأحاديث رثة، وتحالفات غير مقصودة، وتشبُّهٍ للموتى بالأحياء في استئجار سيارات صيفية مكشوفة، وتشبُّهٍ للأحياء بالموتى في تأمل ساعات أيديهم اللامرئية طويلاً، وهم يتجشّأون؛ إضافةً، بالطبع، إلى التهافت على العَظَمة التي تتمكن المقايضات بين التواريخ من تدبيرها.

أنا (وأنا أكره الحديث بهذه الصيغة الملتوية في التعريف البصريّ، والسّمعي، للضمير المُضْمر) مهندس متواضع في علم الزوايا القوسية. عِلْم عريق طالما فَتَنَنِي في مطلع شبابي. وإذ أنهيت دراستي الثانوية تمكن ابن خالتي «حَمْكي» الشيوعي من تدبير منحة لي إلى موسكو.

موسكو!! يالله. سأكلمكم عنها في ما بعد. إنها ملجأ الرُّخ الجبليّ. ثمانون ألفاً من الأعشاش المهيبة كقوس زُحل، دافئة دِفْء قُبَّعَةِ القرغيزيّ. أعشاش، وقباب تسند السماءَ الثانية، القريبة من قلق العارف.

حين أنجزت دراستي كمهندس في علم الزوايا القوسية، لم أعد الى بلدي. أقصد لم تكن بي حاجة للعودة إلى أيّ بلد، ما دمت لا أجد من يهتم بالعِلم الذي تحصَّلَ لي. ولأن المسألة تخصُّ الثقة الغامرة، التي كشفها لي هذا العلم بالمنظومة الدفينة لأسرارِ الظاهر، فقد منعتني الكبرياء من الإقامة في أيّ مكان، طوال سنتين، حافظاً عن ظهر قلب صخبَ كلّ قطارٍ متجه من جليد الشمال الأوروبي إلى جنوبه، وكل قطار متجه من شرقه المخيِّم بين الغابات إلى غربه الجوّال بين الغابات.

تهلهلتْ أوراقي الثبوتية تماماً. امّحتِ الأختامُ، وتداخلت حروف الحبر المبتلة على مدى السنين التي قضيتها في الدرس وفي التشرّد، حتى تيقَّنتُ أنَّ ما من أحد سيعترف بي كائناً، فتوقفتُ في السويد. قلت لهم إنني كرديّ فأظهروا تفهُّماً بارداً لمشكلتي الغامضة. أرسلوني إلى مُجمَّع غزتْهُ أحقابٌ من الهاربين إلى أفكارهم الهاربة، ثم أقحموني في

شؤون لغة جديدة، ضارية في مخارجها، لم تسعفني الروسية، والانكليزية القليلة التي أعرفها، من سَكِّ أية مهارة تحلُّ اللغز، فتلمَّسْتُ من المشرفين على أرواحنا الأوروبية الجديدة أن يسهّلوا لي مُقامرةً إنسانيةً في اتجاه الشرق، ففعلوا: هوية صغيرة تقول إنني شخص ضائع، وعلى من يلتقطني أن يحتفظ بي. هكذا فهمتُ. وإذْ طلبت تذكرةَ سفرٍ سألوني وجهتي المختارة فتلعثمت.

عليهم أن يدوّنوا في تذكرة السفر وجهة المسافر. لكنني تلعثمت أول الأمر، ثم تمالكت مشيئتي المجدولة من سيقان القمح الطرية، فأشرتُ بإصبعي دائرياً على خريطة كبيرة للعالم داخل إدارة المَجْمَع الكونيّ لِخَلْقٍ هاربين إلى شفاعةِ الكينونة.

ابتسموا للفكاهة التي بدتْ في إشارتي: لقد حصرتُ نصفَ العالم.

«حدِّدْ أكثر» قالوا، فرسمتُ دائرةً ضمَّت مقاطعاتٍ من سبع دول، فابتسموا، ثانيةً، نصف ابتسامة: «حدِّدْ. عليك أن تحدِّد دولةً». فضيّقتُ بين أجفاني محاولاً العثور على أصغرها شرقَ البحر المتوسط. وضعت إصبعي على نقطة مفتوحة كثغرة في جدار المياه.

«مالطا». اسمها «مالطا». وقد هزّوا أكتافهم من اختياري الغريب. ثم شرحوا لمترجم كرديّ أن «مالطا» أصغر من أن تقبل وافديْنَ من جزءِ العالم الغريق. «ليس لمالطا ما تتشبث به. هي عائمة تدور في مركزها بالرماح التي يستخدمها حَرَسُها الفرسانُ كمجاذيف». هذا ما فهمته. أزحت إصبعي بوصةً إلى الشرق، على خريطة المَكْمَنِ المُنذر بالقيامة. «هنا». قلتُ لهم «سمكةُ الوَرَنْكِ هذه تسبحُ شمالاً»، وكانت اصبعي على جزيرة قبرص الشبيهة بسمكة الوَرَنْك.

تهلَّلت أساريرهم: «ولِمَ لا؟ لدى قبرص سوابقُ في إيواء لفيفٍ من الأكراد». ووصلت إلى قبرص.

تحقيقات صغيرة، ليست ذات شأن، أخذتْ مجراها بين الحروف

اليونانية الشبيهة بالروسية. كنتُ أقرأها على الجدران الأربعة لغرفة المحقّق، غافلاً عن أسئلته أحياناً، لأن الجَلْجلَة العظيمة لدروع النحاس، التي تتصادم في تاريخ تلك الحروف، كانت توقظني من شتاتي على البطولة السخيّة بملامحها في القناع: حيطانُ الغرفةِ مسرحٌ وجروحٌ. هذا ما خُيِّلَ إليّ.

نُقِلتُ في باص صغير من مدينة ساحلية إلى العاصمة، وهناك تجنَّد خفيرٌ بمفرده فأوصلني إلى نُزْل عرفت، لأول وهلة، أنه غسقُ الانتظار، حيث تقذف «بناتُ نعش» بأساورهنّ الإهليلجية إلى كون الغريب.

كل شيء كان رتيباً لأحد عشر شهراً: تصلني مصاريف أسبوعياً، تكفي - بتواضع - لشراء طعام من أكشاك لصق النُّزل. فيما تأتينا ثياب مجاناً. أما أنشطتنا اليومية فكانت موزّعة بين التظاهر في ساحة «ألفتيريا» ضد ما يلحق بالأكراد في تركيا، وحضور حفلات فولكلورية يشتغل عليها شبان في حماسةٍ، داخل النزل، حتى تكاد الطبقات الثلاث أن تنهار أحياناً. أو نتبرّع بالخدمة في الحقول، لا نأخذُ أجراً إلاّ بعض الغلال من الفاكهة والخضار، والجبن أيضاً. وفي الشهر الحادي عشر، مطلعَ ذا صيفٍ، حدث الإنقلاب الذي نقلني من النزل إلى منزل فاره في مُجمَّع من المنازل شُيِّدت في حلقة دائرية، خاصة بالمهندسين الضيوف، الذين تعهد إليهم الدولة بشؤون ترتيبها في اختصاصات غير متوافرة محلياً.

حكاية انتقالي، من غسق «بنات نعش» إلى الفراغ المُنَعَّم وسط المنازل ذات القرميد، مصادفةٌ ناعمة كقبلة على يد طفل. فقد كنت في حقل قريب من مفترق طرق سريعة، على مشارف المدينة جنوباً، حيث ارتفع جسر للسير لم يكتمل بعد، في محاولة للتخفيف من ازدحام تشكّله شبكةُ قرى ودساكر متنافرة، يقصد أهلوها المدينةَ صباحاً ويرجعون مساء. وكان العمل، قبل ظهر ذلك اليوم، على كسل واضح قرب جبّالة الإسمنت الضخمة، التي جلس في ظلها أربعة عمال لوحتهم

الشمس فاشْقرَّتْ رؤوس الخصل الطويلة من شعورهم البنية الداكنة والسوداء، فيما انصرف عمّال آخرون إلى التحلُّق حول من عرفتُ، من خوذاتهم البلاستيكية، أنهم مشرفون على العمال، ومهندسون، يتجادلون محتدمين.

اقتربت منهم، مجتازاً حقل البطاطا، والبامية، في يدي مِعْزَقٌ لفتح سواقي الماء. وحين جاورتهم نظرتُ ـ كما ينظرون ـ إلى باطن الجسر المشيَّد على ست قناطر، فوجدت شرخاً في الإسمنت يشيرون إليه. لكن الذي جمّدني هو ما رأيته في بناء القنطرة الرابعة، الذي لم يسترعِ أبصارهم، فتمتمتُ «يا للحماقة» بالروسية.

شاب طويل التفت إليّ من تحت خوذته الصفراء. رفع حاجبيه عن عينين غائرتين قليلاً، حزينتين. وقال لي بالروسية: «ما الحماقة هنا؟».

«الخُمْسُ غير المحسوب في قوس القنطرة الرابعة يهدِّدُ هذا الجسر»، أجبته.

«الخُمْس؟!» تساءل الشاب ذو الشاربين الكثّين، المنسدلين من شفته العليا حتى منتصف شفته السفلى. وأردف: «أتعرف الروسية؟».

التفت الآخرون إلينا، وقد هدأ احتدامهم، فشرح لهم الشاب شيئاً ما، مبتسماً، بكلمات يونانية، وانكليزية فهمتُ نصفها، مشيراً إلى أنني أرى الخللَ في قوس القنطرة الرابعة وليس شرخ الإسمنت.

بدوا فضوليين من علومي، أنا حامل المِعْزَق: «الخُمْس؟» سألوا الشابَ كأنما يحضُّونه على المزيد من شرح ناقص، فاتَّخَذْتُهُ مترجماً بيننا: «قل لهم إن قوس القنطرة الرابعة يُخَلْخِلُ الثقلَ في اتجاهين لا يستطيع الجسر أن يتوازن بينهما. ثلاثة أقواس تكفي، فيما يُسَدُّ بالإسمنت قوسُ القنطرة الرابعة أفقياً ليكون للهيكل قلبُهُ المشدودُ إلى المركز».

شرح الشاب لهم ما قلته، وعيناه تتناوبان بين وجهي ووجوه

الآخرين. فهززتُ رأسي تلقائياً موافقاً على كلام فهمتُ نصفه، وهمستُ بالكردية: «أحسنتَ يا رجل».

سمعني الشاب. تقوَّس جذعُه وقد توقّف عن الكلام. استدار إليَّ بكلّه، ثم نزع خوذته الصفراء عن رأسه وضرب بها الأرض في مرحٍ صارخٍ، وأمسك بكتفي: «أأنت كردي، يا رجل؟».

حدّثني بالكردية ذات الطنين في لهجة «صوران»، وهي لهجة تثقل علينا نحن «الكُرْمَانجْ»، فارتأيتُ، - درءاً لمزالق اللفظ ومذاهبه، ومشاحناته الشبيهة بمشاحنات الأقاليم، - أن نتحادث بالروسية، فوافقني.

بعد اثنين وعشرين يوماً من ذلك التعارف بيني وبين «جانو إينين»، كنت أعتمر خوذة صفراء، بدوري، مثل التي يعتمرها المشرفون على لهيب القيامة في عظام العمال، أو المهندسون الذين يطوّقون الخفيَّ بخرائطهم فيلتجىء الجنُّ إلى أُسس العمارات، وأدراج الأقبية يستوطنونها بأرتالٍ كالنازحين الإنسيين من الأرياف إلى المدن.

عُدْتُ مهندساً. عدتُ إلى ما لم أكن بدأته بعد، كمتخرِّجٍ حاملٍ على كتفيه صياغات أخرى من أقفال الهندسة ومجونها الرحبِ، لكنْ بتخصُّصٍ على قَدْرٍ كبيرٍ من الرهافة: «علم الزوايا القوسية».

أذكر عبارةً قادتني إلى مصيري: «القوس محنةُ الهندسة». كانت غامضة وشقية في الآن ذاته. مُلْهِمة ومشدوهة بفراغ من فراغات الفكر. دوَّنها أبو المُعْضِل أُوَيْس الماردِيني في كِناشِهِ «التأسيس الكبير»، ذي العنوان الفرعي الطويل القادم من قرنٍ ما ميلاديٍّ أو هجريٍّ قديم، لا أتذكَّره: «الأجرامُ والمَرَاتبُ: أخبارُ الظلِّ في النَّحوِ المنسيِّ، والمشافهاتُ المدوَّنة من فِقْهِ المِعْمارية».

صرتُ مهندساً، جنباً إلى جنب مع قبارصة، وبلغار، وبريطانيين، وبالطبع شريكي في الكثير من الأشياء، مُذْ اهتديتُ به إلى نصيبي من رِياح العمران، أعني «جانو إينين» الكرديَّ التركي، ابن «أضنه» ذا العينين

الحزينتين. وقد انتقلت من النُزل إلى مجمَّع دائريٍّ من المنازل ذات القرميد، التي تتوسطها حديقة عذراء على مقاس الشهوة العذراء لشجر الصنوبر العابس؛ حديقة من أزاهير شتى، شاحبة، في ظلِّ السنين الضاري المنسكب من علياء الأغصان المُسَطّرةِ ككلام الأيقونات الارثوذوكسية.

لكل مهندس غرفة نوم، ومطبخ صغير، وحمّام، في بناء مستقل. وثمت قاعة كبيرة مشتركة، فيها مطعم في جهة، وأرائك دائرية في جهة أخرى للمجالسات، والتدخين، والتأمّل، والاستراحة بعد الوجبات الثقيلة.

اخترتُ مقامي لصق مقام «جانو»، حتى لا يتكلّف أحدٌ منا لبس بنطاله في تزاورنا الليليّ، بعد الانتهاء من كل علاقة بالعمل. إنه مثلي يحب المجالسةَ في منامته المخطّطة متربعاً على الأرض، وهو أمر نادر بين زملائنا المثقلين بإرث المجاملات. وكلانا يتبادل سجالات روحه في شوارع موسكو. يا للمصادفة. كان في نُزْلٍ للطلبة أَبعد من نُزلي بشارعين، وكان يلتقي الشاعر الكرديَّ «مِيْلانْ» في بيته الضيق في زقاق روستينوف المسدود شرقاً، داخل تقاطُع بين نُزلينا. وهو شاعر كنت ألتقيه كل خميس، مشدوهاً بحكاياته الظريفة، التي تترقرق في عينيه الذابلتين من أثر الڤودكا، قبل نزولها إلى حنجرته الكهفية.

«المكان شَبَحٌ» يردد «مِيْلان» الأكثر شيخوخة من سنواته الخمسين. مناضل شيوعي من الجزيرة السورية. غادرها في الضِّيْق إلى المملكة اليقظى على أبواق الفقراء التي لا ينقطع نفيرُها من الفجر إلى الفجر، وبات يتأمل المجرّاتِ من غرفته ذات النافذة الوحيدة، الموصدة بزجاج مزدوج، لتقوده إلى المعركة الأكثر فتكاً: إنتظارُ اليقينِ البشريِّ مَنكُوْكاً، على جداريةٍ واحدةٍ، بانتصاره الملتمع كالنحاس.

«يا الله يا جانو!!» أُبدي دَهَشي من المصادفة. «لماذا لم نلتقِ؟» يردُّ الكرديُّ الهارب من «أضنة». لكنَّ فخّاً ثقيلاً بات يحطّم بين وقت وآخر من تلك المُجَالَسات المسائية، شفقَ هبوبنا على الحنين الصلب

كمكانٍ صلب. فقد ظهر لي أمر لم يظهر لمقيم في ذلك الرَّحبِ الدائريِّ من المنازل الحميمة. إذْ حين استقرّ بي متاعي الخفيف في الغرفة الواسعة ذات السطح القرميد، وجدت فيها درجاً، لصق جدار المطبخ الموازي لسريري، فظننته مستودعاً صغيراً لمن يملك فائضاً من الحوائج. ولمّا نزلتُ الدرجات التسع إلى القبو، وأنرْتُ كُرةَ الكهرباء الحليبية المتدلية من السقف في قبعة من القش الصِّيني، أجفلتُ: شابٌّ جاثٍ في الشلاّل الشاحب للضوء الكسول. شعره حليق برمّته إلاّ غرّتَه المجتمعة في خصلة كالعُرْف، تتدلى منها، على جبينه، خرزة زرقاء أُلصقت إلى الشعر بَكَرَةٌ صغيرة من الشمع.

لقد شممت رائحة عسل فعرفت أنها كرة من شمع العسل البريّ، وأكاد أجزم أنني أستطيع تحديد القيظ في سلاسله التي تُلهِب خيال النحل الغاضب، أبداً، وأن ألمسه بيدي في جهة ما من جهات الأرض، حيث لا حقول للزهر تَهَبُ رحيقَها المكتومَ لرُسُل أنهارِ السُّكَّر في الجنة، بل عراءاتٌ موحشة في عضمةِ نباتٍ موحش يعرف النحل كيف يدرِّبه على المشافهات التي تسيل منها عُصارته.

شممتُ القبوَ قبل إجفالتي من مشهد الشاب الجاثي على ركبتيه يتأمل خناجرَ ومُدى كثيرة، ذات مقابض على أشكال حوريَّاتٍ، ونصال ثعبانية، صقيلة. كانت الرائحة خليطاً من سمن الماعز الحلو، ومن لبن في أوعيةِ فخَّارٍ، ومن قش الشعير. لكن شيئاً من ذلك لم يكن موجوداً في القبوِ الأجرد إلاّ من الشاب الجاثي على بلاط أسود مستعرضاً خناجره ومُداه. وقد رفع إليّ وجهَهُ، جانبياً، بالثقل الذي رسمتْهُ وجنتاه البارزتان تحت عينيه الآسرتين في لا مبالاتهما، كأنهما من كثرة ما انشغلتا بالأشكال جرّدتا كلَّ مشهدٍ من لُغزهِ، حتى أنني خلتُ نفسي مرآةً في فراغ بعيد مفتوح على فراغ بعيد.

قلت كلمتين من كلمات قليلة التقطتها باليونانية: «من أنت؟»، فعاد بوجهه إلى بريق المعادن الرصينة التي يستعرضها. فكلَّمْتُه بالروسية، لكنه بقي على سكونه. ألقيت ألفاظاً انكليزية إلى الثغرة بيننا،

فضاع صداها أيضاً في تجويف الضوء الذي ازداد شحوباً، أو هكذا توهَّمتُ.

لم يبقَ لي إلاّ أن أخاطبه بالكردية، لأستنفِدَ مُدَّخراتي من جهالة الإنسان الحميمة، أعني لغتَهُ الموصدةَ على أنين حرّيتها: «عفواً.. من أنت؟». وحاولتُ تخفيف المفاجأة على نفسي قبل أن أُخفِّفها عليه، هو الذي لم يكن آبهاً: «أهذه غرفتك؟».

اتّسع التجويفُ الذي تلقّف صدى كلماتي، وانغلق البعدُ فكأننا شبحان كلٌّ في شفقٍ. عدتُ أدراجي إلى الغرفة صعوداً، ثم جلستُ على طرف سريري محتاراً. وحتى لا تبيتَ تلك الحيرة معي في ليلي، خرجتُ قاصداً «جانو إينين» الذي هو صلتي في ثقتها مع المكان، ومع الأسئلة. ومثلي، كأيِّ غريب، إمَّا يكون ضنيناً في ثقته أو سخياً حتى الحماقة.

قرعت باب منزله ففتح لي. دخلت وأنا أنظر إلى الجدار الذي يفصل سريره عن المطبخ علّني أرى مدخلاً إلى دَرَجٍ كمثل الذي عندي. نسيتُ أن أُسلِّم عليه، ربما. نسيت أن أنظر إليه. كنتُ عجولاً في تبديد حيرتي ذات الشدقين المنفوخين كبوَّاقٍ: أين الدَّرَج؟» سألتُه، وأنا أتّجه إلى المطبخ، لأقف، من ثَمَّ، عاقداً يدي على صدري: «أين الدرج؟».

«الجسر الجديد سيكون تجربة حقيقية لي ولك» ردَّ «جانو».

«عندي دَرَج في غرفتي يفضي إلى قبو..» قلتُ، ولم أزل متمالكاً نفسي، فردَّ «جانو»:

ـ سنبنيه على قنطرة واحدة، ضخمة، في مجرى النهر الجاف، وعليّ فتح ثغرة في جداره السميك، قوسياً، كقناةٍ للصَّرْف. مسألة شاقة أن تندفع المياه في ثغرة قوسية، دون دفق قويٍّ. حُلَّ المعضلة معي.

«يا جانو..» رفعت صوتي لأبدّد خبرَ الجسر من المحاورة كلها، مقترباً منه: «عندي قبو، وفيه شخص..»، فاسترسل «إينين»: «أنا أَخْبَرُ

مني بهندسة المتاهات من هندسة الأقنية..»، فأمسكتُ به من كتفه: «أتسمعني يا رجل؟»، فحدّق فيّ: «نعم. أسمعك».

صمتُ برهةً لأتيح له إصغاءً يرضيني: «أيشاركك أحد في منزلك؟»، فرفع «جانو» عينيه الحزينتين إلى السقف، وألقى عليّ جُملاً متناسقة من تحت شاربيه الكثّين: «أتعرف لماذا اخترتُ هندسةَ المتاهات؟»، وحدّق فيَّ ينتظر جوابي، فأنزلتُ يدي عن كتفه: «أنت لا تسمعني» همستُ له ولنفسي، فيما استرسل «جانو» بلكنته الروسية الشبيهة بلكنة أهل ضواحي موسكو: «قرأتُ مرةً عن حديقة لها متاهة هائلة من الممرات. عشب عالٍ على شكل جدران. ضاع فيها سبعون عاملاً قبل أن ينتهي المعماريُّ من رَسْم آخر مخرجٍ على خريطته». وحدَّق في عينيَّ مرخياً حاجبيه على عينيه الهاربتين: «حديقة يضيع فيها عمالها. فكاهة من فكاهات القرن السابع عشر. أتصدِّق ذلك؟ مرّ وقت طويل قبل العثور على هياكلهم العظمية، بعدما رفع الجيل التالي لجيل المعماريِّ أبراجاً من الخشب عليها إشارات، ومشرفون كمشرفي اليوم على شواطىء البحر يرصدون السابحين خوفَ الغرق. أتصدِّق؟».

لم أعقِّب على كلامه بشيء. كنتُ مُبَلْبَلاً من الخيال الذي رمى به القبوُ إلى فراغٍ من فراغات يقظتي. ولما استرسل «جانو» ثانيةً، كان في مستطاعي سماع صوته وصوت المعدن الصامت، البارد، الذهبيّ، للخناجر والمُدى المفترشةِ أرضَ القبو، معاً. بل أجزم أن صوته لم يكن إلاّ صدى خلْطِ الأسلحة تلك بعضها ببعض، ونَثْرِها على البلاط من جديد، في تشكيل يتيح للشاب الغامض، الذي وجدته في القبو، أن يسترسل في وحشته القوية، مثل قارئة الوَدَع تعيدُ إلقاءَهُ على الأرض مراراً لتستوي لها مداخلُ إلى فهم الجمادِ الكتوم.

«هندسة الأقنية فرع من هندسة المتاهات. حين تفكِّر في حدود المنزل الذي تبنيه تفكّر في الأقنية أولاً، في الأحشاء الرقيقة، الخفية التي تجرُّ الشهوة المُسْتَنفَدَة إلى محتومها: الأقنية خلاص المنزل من تُخمته» قال «جانو»، وأردف: «هندسةٌ هي فرعٌ خفيف من فروع

المتاهات، لكن العيش يجعلها أصلاً من أصول العمارة. اسمعْ»، وتهادى جالساً على طرف سريره: «حين قرأت ما قرأته عن متاهة الحديقة قلت لنفسي أنا ذاهب إلى تلك الحديقة». وصمَتَ واضعاً راحته اليسرى على جبينه.

مذ تعرَّفت عليه وجدتُهُ يخلد إلى وجومٍ ثقيل، بين ساعات وأخرى، حتى لو كان في أكثر لحظاته تفكُّهاً ومَرحاً. يضع يده على نصف جبينه، وجزء من عينه اليسرى، وخده، ثم ينظر إلى مراتب الفراغ الأفقية، المترجرجة كأثداءٍ من الصمت. وكانت تلك اللحظات تطول في المقهى الذي دلّني عليه؛ المقهى المواجه لشجرة الخرّوب الضخمة، حيث صرت رائداً يومياً من رواده، ومَعْلَماً من مَعَالم المصائر المفتونة بالجلوس، مثلي، على كراسيّ الخشب فيه.

تسع سنين في هذا المقهى، أنا و«جانو» وعلى مرأى منّا تكتمل الدورة الماجنة للجسد الذي لا حقيقة إلاّ لسُعاته المهرولين بالزمن في أيديهم كرسائل «البريد السريع»: نرى أطفالاً ذكوراً وإناثاً عائدين من مدارسهم القريبة، يتحوّلون - في الخطوات الست والعشرين لواجهة المقهى - إلى رجال ونساء. «إينين» يرصد الشَّعْرَ؛ يرصدُ الفتيات الصغيرات، اللواتي ينضجن بوهجٍ خفيٍّ من حقائبهنّ المدرسية، يوماً بعد آخر، كحبّات الكستناء على صفيح ساخن. لكنه لا يلتفت، في تعليقه على الزمن وسُعاته، إلى الأجساد التي تتطاول لعذارى المشهد، أو تكتنز في المعالم الشقية للشهوة - معالم التَّكاوير، تلك الطُرُق الرحيمة لصعود الأنثى إلى أَبَدِها.

إنه يكمن لشَعْرِ الفتيات كما يكمن القنّاص: طرائقِ ربْطهِ، إطالتِهِ أو تقصيرِهِ؛ تسريحِهِ إلى هذه الجهة أو تلك؛ إرخائِهِ على الجبين، أو ردِّهِ إلى وراء؛ تفريقِهِ من منتصف الرأس أو من جانبٍ فيه؛ إهمالِهِ أو تنظيمِه.

«الشَّعْر على رأس الأنثى رِقْيَةٌ مكتوبةٌ بأمشاط الفتنة» يقول «جانو» ويرشف الجعة بِنهَمِ الخائف عليها من الفَقْد: «الشَّعْرُ حَظْوَة كُلُّه، لكنّه

في الأنثى أوَّل المتاهة إلى اليقين». ويشير إلى فتاة كانت طفلة، من قبل، تضرب بحذائها أغطية الزجاجات المعدنية إذا عبرت، لكنها تعبر اليوم مُلْقيةً على الجهات تعاويذ سِحْرِها المترقرق في الظل الذي يزحفُ رَخيّاً لصق قدميها: «المتاهةُ يقينٌ».

قليلون كانوا يقطعون علينا تلك المشاهدَ التي تنصب فيها الأجسادُ فخاخَها للزمن. وكانوا، بعامّةٍ، أكراداً من تركيا، ينتمون إلى حزب «الذئاب الجبلية»، الذي في مقدور أتباعه أن يتخذوا أية هيئة يريدون. هكذا يقول «جانو». وأنا أعرف أن في مستطاع الذُّعر، أو الجسارة الفائقة، تمكين الآدميّ من الانقلاب على الشكل، لذلك أوافقه بهزّة من رأسي، فيما أرشف من الكأسِ السائلَ الذي لا لون له. وأحدّق طويلاً في الوجوه التي تُجالسنا، من أولئك العابرين الذين لا يمكثون إلاّ دقائق، مبتسمين في غلالاتٍ من الأرَق تشبه التاريخ.

علّمني «جانو» العدَّ بالتركية حتى العشرة، وكلمة «حبيبتي» التي يكرّرها لكل عابرة في الشارع مع هزة خفيفة من الرأس دليل اللوعة، وعضٌ على شفته السفلى حيث تتمدّد الشهوة في فجرِها اللحميّ. «أنا أحبهنّ جميعاً» يقولها. «شعورهن.. يا إلهي..»، ويلتفت إليّ متسائلاً في دَهَش: «ما الذي يفعل بي الشَّعْرُ؟ ها؟»، فأجيبه أنه يريد أن يختبىء: «الشَّعْرُ ملجأ، لأنك شخص هارب». فيردّ: «لا. الشَّعْرُ لا يهترىء، يا رجل. يموت الإنسان فيتحلّل كل شيء فيه، من اللحم إلى العظام، ويبقى الشَّعْر. إنه لا يهترىء يا رجل».

«أهذا هو السحر المُطْفَأُ الذي يشدُّك إلى الشَّعْر يا جانو؟» أسأله، مبدياً بعض اشمئزازي من أن تكون الفكرةُ كلّها خليطاً من التقدير العضويّ للخلود.

«لا» يقول «جانو»، معتذراً: «سُقْتُ مثالاً لا جَمَال فيه، يا رجل». ثم يتأمّل الدَّغل الصغير من العابرات بحقائبهن المدرسية، في تنانير زرقاء: «مُدَّ يدك، يا رجل». وينظر إليّ فيما يمدُّ، هو، يدَهُ من مكانه إلى الفراغ الذي تعبره الغماماتُ الأنثوية. ويكرّر: «مُدَّ يدك»،

فأفعل مثله، مبتسماً للدعابة في الحركة الخرقاء: «مَدَدْتُها. . ثمَّ ماذا؟».

«رياح الجبل» يقول «جانو» بصوت يحجب أنيناً ما في حنجرته. «شعرهنَّ ريح من رياح الجبل، يا رجل». ويحرّك أصابعه كأنه يلمس شجيرة فلفل رقيقة: «ألا تلتقط الريح، يا رجل؟ الريح نمرٌ أليف».

لا ينصت «جانو» حين أفاتحه أن رياح الجبال باردة أبداً، وصقيعية، مهمومةٌ، طائشة لأنها لم تُخَيَّر في اتخاذ طبقتها.

الرياح طبقات، ومراتبُ من الشقاء إلى التَّرف. إنها الصوتُ الأول الذي تعرّفت به الأرض الخرساء على نَفْسِها، حين أُلقي بها في المشهد القَلِقِ للكون؛ أعني الجزءَ المُسْتَنْزَفَ من اللون الذي استعارَ من الانسان أصباغَ معادنه، ثم استردَّه الإنسانُ رسوماً، منذ البدء، يموِّه بها مَجازاته كسيِّدٍ، فاحتكمت الأرض الخرساءَ إلى اليأس يترجمُ لها ما لا تقوله، بلسانٍ من العبث: «أيختلقُني من أَخْتَلَقْتُهُ؟».

سؤالُها ابْتَعَثَ الريحَ من العدم المسبوك كصفائح اللون: «كل سؤالٍ ريحٌ»، ذلك هو المقدور في السِّجلِّ.

من كل جهةٍ انحدرت ريحٌ بحسب جهات الإنسان. هي تموِّهُ عليه وهو يموِّه عليها. هي لا مرئيُّ فكرتِهِ، وهو زُخْرُفُها كشكلٍ ممعنٍ في الإسراف: هكذا احتالا أحدُهُما على الآخر، فسرق الإنسان صوتَ الأرض الأول، رسرقت الأرضُ مجازاتِهِ التي كانتْ قبل أن يكون. وهكذا صار الإنسان مراتبَ وصارت الريحُ: كل منهما مهموم طائش، حَذِر، عنيدٌ، بارد، في الأعلى، ذَلِقٌ، مستوفزٌ، رحيم، أبويٌ، في الوسط؛ مسكونٌ، خامل، شقيٌّ، هَلِعٌ، في الأسفل. ولأنّ الجبلَ صورةٌ من صور الإنسان، فقد رأيتُ أن رياحَه لم تُخَيَّر في اتخاذ طبقتها، بل ألقت الحيلةُ المتبادَلةُ بين الأرضِ والأدميِّ بها في المُسْتَقَرِّ الذي هو ثرثرةٌ، لتؤكِّد بها فجواتُ الأرضِ العاليةُ مُجاراتِها للكون كصوتٍ.

ريح السهل همسٌ. ريح الهضابِ جِدالٌ. أما ريح الجبل فهي الثرثرةُ.

لو أصغى «جانو» إليّ لهمست: «الكونُ صوتٌ؛ الكون يُقاس بالصوت، والصوتُ متاهة يا رجل». إنها الهندسة التي تفتحُ الشقاءَ كبابٍ على العلوم الجالسة في الحديقة، هناك، حيث قرأ الخبرَ الأولَ عن المتاهاتِ الأنيسةِ التي ابتلعتْ عمّالها.

قليلون من العابرين، الهاربين من تركيا برسائل الشفق في لهجة «صُوَران» ذات الطنين المُذَهَّب، كانوا يقطعون علينا بعضاً من الساعات الثلاث في المقهى. «الذئاب الجبليون». إنني أشمُّ الثلوج في لهجتهم الكردية. وكل له حكايته التي لا يرويها «جانو»، فيختصر أسئلتي الصغيرة إلى كراتٍ من الصوف لا صوت لسقوطها على سجّادٍ كريم: «هذا مندوب الطيور في جبال هكّار. وهذه الطفلة..» يشير إلى فتَاةٍ مضت بعد دقائق من الجلوس، «هذه طَلْقةُ أهل ماردينْ».

كل الذين يقصدون لقاء «جانو»، في كمينه المكشوف على أقاليم المقهى المطرّزة برفوف من زجاجات البراندي، لهم المجازاتُ ذاتها في عيونهم المُظَلَّلة بالألم وبالشّك. وهم، بعامّةٍ، لاجئون إلى أوروبا، ينطلقون منها بأوراقِ سفر لها نكهة إنسانية، إلى المهاجرين في الشتات الآخر، في لقاءاتٍ عابرة، أو مدروسة، تمدُّ العِرْقَ بانتصاراتٍ خفيفة على الموت. أمّا كيف يعرفون عنوان «جانو» الدائم في هذا المقهى، فذلك أمر لم أسأله فيه. وإن سألته سيردّ، يقيناً، «إنّهم نَحْلٌ، يا رجل. النحْلُ رسالة يتبلَّغُها الوردُ المهموم، يا رجل».

«أأنت وردٌ، يا جانو؟»، أسأله على جواب مُفْتَرَضٍ منه، فيعاينني وقد أغمض إحدى عينيه على نحوٍ ساخر: «أنا بَظْر الورد يا مُعيدَ النَّسْخ».

«مُعيْدُ النَّسخ؟!!». تعجبني الكلمات. «أعيدُ نَسْخَ ماذا، يا بظْرَ الورد؟»، فيردّ «جانو»:

«تُعيدَ نَسْخَ المكان يا إمام الفودكا».

«إنهم يتشابهون» أقول لـ «جانو». «هؤلاء الذين يزورونك في

المقهى متشابهون». كل مرّةٍ يحضُرُنا زائرٌ أردِّدُ الكلمات ذاتها، بالرغم من أن واحدهم لا يكرّر زيارته مرتين. يختفون عائدين إلى لهجة «صوران» التي هي دويُّ الكمال الصامت للجبال. يختفون في كلماتهم ذات الطنين. يتركون جُمَلاً صلبةً على المنضدة الصغيرة يأكلها، كلانا، كالنُّقْل، ثم نتجرَّع كأسينا: هُوَ كأسَ جِعَتِهِ المُرْغية كأنما يختضُّ في ذَهَبِها خطابُها الذي ستُلقيه؛ وأنا كأسَ السائلِ الذي لا لونَ له إلاّ لون الزجاج، لأنه يموِّه المقاصدَ، ويلفِّق ما يشاء من براهينه النبيلة.

تسع سنوات أتردّد على المقهى، ثم يلحق بي «جانو». لي عشر سنين هنا. سنة في النُّزل، أو أقل. تسعٌ في منازل المهندسين، التي أطلقت فيها، من بندقية «جانو» المرخَّصة، طلقتين على الشاب الذي في قبو مَسْكَني، في أوائل السنة التي باشرنا فيها بناء المتحف الكبير على شكل سفينة، وقد استغرقَنا ذلك ثمانيَ سنوات. أمّا السنة العاشرة، هذه، فلا شأن لكلينا إلاّ المقهى، ريثما يأتونا بمشروعٍ جديد.

كنتُ أحادث «جانو» بأمر الشاب الذي في القبو، فيحادثني في أمر الجسر. لم يكن يسمعني. وحين نقلتُ الأمرَ، بعد يأسِ أربعةِ أيام، إلى المشرف على منازل المهندسين الأصلع، البشوش، في مكتبهِ الذي يفضي بابه الخلفي إلى بركة السباحة المحاطة بطاولات زرقاء، أسرفَ الرجل في شرح أن يكون المطعم مُلْحقاً بحواف بركة السباحة المثلثة. كانت لغته الإنكليزية تتوازى وتتقاطع في لهجة يونانية، إنما دون تلكؤ، أو بحث عن ديباجة: إنه يُلقي بها إلقاءً صحيحاً على مسمعي، فأتأملها قبل العثور على جواب في معرفتي الشحيحة بها. أفهمها. أزعم أنني أفهم الانكليزية. والمفردات، التي تتخابثُ عليَّ، التقطُ آثارَها في الأصوات.

اللغة هي فصاحة الإغواء. الصوتُ مُريدُ اللغة الأمين، التابعُ، الذي يتحيَّنُ لجلالها حتى لو غابت عنه تجلياتُ المعنى. الصوتُ يصغي للّغة، ويردِّدها كمقلِّدٍ لمُشافهات الصمت الكبرى في بزوغ الإنسان على قَدَرِه، يوم لم تكن الأرض في حاجةٍ إلى أقدار.

صوتُ الإنسان كان عُزلته في المشهد الجاثم بين جِراء الأساطير. كلُّ صوتٍ كان عُزلةً، فأُوحي إليه، بلسان الدمِ الكاهنِ الذي فيه، ان يُقَنِّنَ الصوتَ المُطْلَقَ؛ أن يأسرَهُ ويجفِّفَه ويملِّحهُ مثل انبعاث معرفته الأولى في تخزين الطعام.

هكذا غدا الصوتُ مراتبَ في تشخيص إشاراته، ليخرجَ ـ بألفاظه التي استحدثَها في محاكاةِ يأسه الصامت في العراء المهيب ـ من العزلة الأزلية، التي هي خصيصة من خصائص الكينونة (كما يقول الموت بجلاءٍ كجلاءِ المعماريِّ الناظرِ إلى خرائطه)، شهيداً حيّاً باستعاراته التي تجعل المأساةَ وساطتَه بين الله وبين القيامة المشرفة على عزلته الثانية.

«سأقتله، والله» أقول للمشرف على منازل المهندسين، فيزداد انكباباً رصيناً على شرحٍ لا يعنيني في شأن الأضلاع الثلاثة لبركة السباحة، التي تروِّض المشهدَ العابثَ للخلاء الدائريِّ المُحاط بمساكنَ. . بَلْهَاء. ويشدِّد على كلمة «بلهاء»، مضيفاً إليها سِحْرَ اللفظة اليونانية أيضاً، حتى لتكادُ ترى في عينيه مصائرَ منقوشة في دروع الأساطير.

«سأقتله»، أُكرِّر للرجل المنصرف إلى مَجَازاتِ النِّعمة: «إننا نوزِّع الطاولات خَمْساً خمساً في كُتَلٍ دائرية من جهات الأضلاع الثلاثة لمثلَّث بِركة السباحة. الممرّات كثيرة، كما ترى، بين الكراسي والمُقَاطَعات العشبية»، ويضيف مُمَسِّداً جمجمته الحمراء: «كل شيء مدروس. وضعَ التخطيطَ أرستودولوس، ونفَّذَ المِعْمارَ كوستانياكي، وأشرفت على الحديقة كِيْكا التي لها أصابع من ذهب، والمخفورة بحشدٍ من مقصّاتٍ ذهبية، تشيرُ إليها، وتومىءُ، فتنطلق تلك المقصّاتُ طائرةً كرسولِ منيرڤا المجسَّدِ في بُوْمة الله، فلا يخرج العشبُ، أو الشجرُ، من عملها الخاطفِ إلا ناطقاً».

«اسمعني يا فحّامَ الفراغِ، سأقتله. ليس في مسكنٍ آخرَ قبوٌ إلاّ مسكني. وليس لأيِّ آخر، شريكٌ في مسكنه سواي. انقُلْني إلى مكان آخر، أو أقتُلْهُ. .»، أقول له محتدماً، فيقهقه، الرجل المربوع: «ألا

تسمع، يا رجل، هذا الكمالَ الناطقَ تحت مقصات السيدة كِيْكا؟ الشجر ناطقٌ، والعشب ناطقٌ، وربما وصلت العدوى إلى مياه بركة السباحة. كل شيء مدروس، ناطقٌ، يا شقيقي الكردي». ويرفع يديه مطوِّقاً رقبته من الخلف، متمطّياً: «أليست لديكم أشجار ناطقة؟».

لم يعد يشغلني الغريب الجالس إلى خناجره ومُداه في قبو مسكني. باتَ أليفاً إلى درجة لا تطاق، من كثرة محاولاتي الفاشلة في إقناع أحد بالإصغاء إليّ. لقد درتُ على المهندسين المتردّدين على الساحة الدائرية واحداً واحداً، بوجوههم التي عَبَر ناظريَّ بعضُها، ولم يعبرني بعضُها الآخر. سألت اليوغوسلافيَّ، والبلغاريَّ، والهنديَّ، وعربيّاً واحداً، التفتَ إلى ما أقوله باهتمام، ثم أخرج محفظته من جيبه فأراني صورة قديمة، هامساً: «هذا جَدّي».

يشرحون لي عن حيواناتهم. المهندسون وحيوانات المهندسين!! تبّاً للأقدار. أيؤسّسون حديقة حيوانات وسط المساطر الكثيرة، وأضواء النيون المنبثقة من أحشاء المنصّات الزجاجية التي يرسمون عليها خرائطهم المستطيلة؟

لكل مسكن فسحةٌ جانبية، مثل مرآبٍ، مُلْحَقَة به، يستطيعون استخدامها في وجوه عِدَّة، أوّلُها اقتطاع مربَّع للحيوانات التي يقتنونها، فيما يزرعون ما يتبقى من المستطيل الترابي بالذي يحلو لهم من نبات يؤكل كالهندباء والخُبّيز والبقلة، أو خضروات يتفنّنون في ترتيبها، متجاورةً، من الفلفل بنوعيه اللاذع والحلو؛ والبندورة بنوعيها الكُمثريِّ ذي القشرة الخشنة، والكروي الخجول، الملتمّ على سُرَّته المتغضّنة؛ والباذنجان بنوعيه، المستطيل النيليّ، والكرويّ الأسود، اللمّاع كفكرةٍ مكتومة؛ والخسّ، والفجل، والبصل، والخيار؛ وبعضهم يزرع البطيخ الأحمر أيضاً، أو يتمادى فيزرع اليقطين الذي يسدُّ منافذ المكان بصليل ورقه الخشن، الضاري، وزهوره الصفراء القُمْعية كأبواقٍ تستنفرُ الغبار.

تتفاوت أمزجة المهندسين، بالطبع، فتتفاوت مقتنياتُهم الحيوانية: لدى الروسيِّ زوجان من الإوز. لدى البلغاريّ فقمتان لن يفهم أحد

كيف يحتفظ بهما حيَّتَيْن في طقس الجزيرة القارّيّ. لدى العربيّ باشقان. لدى الهنديّ جروان من نمور البنغال. لدى الإيرلندي طاووسان. . . إلى آخر ذلك من أزواج النَّعام ـ من تيوس الجبل إلى القطط، ومن الزواحف إلى الثدييات الطائرة. وقد جرت قشعريرة خفيفة من المرح والفضول القَلِقَيْنِ حين تناهى إلى أسماعنا أن أحد المهندسين سيستقدمُ زرافتين، أيضاً.

إنّه تخطيط غير معلن لحديقة حيوانات ليست مشاعاً كحدائق الحيوان. وقد سألني «جانو»، الذي يقتني طائريْ حجلٍ في ركنٍ أحاطه بسياج من شبك رقيق، عن خطتي في الاقتداء بقاطنيْ المساكنِ، فرفعت كتفي: «لا أعرف». لقد زرعتُ الأرض الترابية لصق مسكني، من أوّله إلى آخره، بنبات الرَّشادِ ـ هذا الشقيق الحرّيف في فصيلة البقدونس، وكان يكفي إطعامَ فيلقٍ، لكنني لا أجد من يستسيغه كثيراً، لذلك كنت أقتطف منه بعضه، وأترك البعض الآخر يتطاول وحشياً بسيقانٍ رفيعة ملأى ببذور تنفلق أغشيتها فتتساقط لتنمو أجيالٌ منه، متزاحمةً في ضراوةٍ بتهافتها إلى قبسٍ من الضوء الأبويّ.

كانوا يدلِّلون حيواناتهم دلالاً غامضاً، وتوفّر لهم إدارة مساكن المهندسين كل المستلزمات، من طبابة وطعام على اختلافه: الرخيص كالتبن، والثمين كالبندق النيجيريّ.

إنها الطبيعة التي تحتّم احتجازَ العدالةِ حتى تشبع الحيوانات: لا مساواة في التبن. لا مساواة في الكَرْسَنَّة. لا مساواة في الشوفان، والبرسيم، والشعير، أما الرَّفاهاتُ الأخرى فلا تسألوا: الموز يذهبُ إلى الهبَّار ذي الفرو، والقُنبُزُ وحَبُّ اليانسون إلى عصافير الهذيان، وأكبادُ الأرانب إلى الكوندور الأمريكي، والفئرانُ إلى أفاعي البوّا، والبقُّ والبعوض المجفَّفان إلى ضفادع مدغشقر الحمراء، والنَّملُ الأسود إلى آكل النمل، وبراعمُ شجر الأثل الرمليّ إلى الأرْوَيَيْن اللذَيْنِ يملكهما رومانيّ.

مدارج لا تنتهي من التصنيفات في محيط منازل المهندسين.

و«جانو» يلحُّ عليَّ، بعد إطلاق النار على الغريب في قبو مسكني بشهرين، أن أقتني زوجاً من الحيوان بحسب رغبتي: «حتى الفيلة يُمكن إحضارها، يا رجل»، يقول لي بصوت قادم من الظلال المراوغة تحت حاجبيه. مضيفاً: «أجلبْها أنت من أي سوق، أو اطلبْها من إدارة المساكن. إخْتَرْ. عليك أن تختارَ، لا غير. الحيوانات مشيئةٌ يا رجل».

في اليوم الذي أطلقت فيه النار على الشاب الغريب، فكرتُ، جاداً، في اقتناء حيوانات. كنتُ جالساً إلى الطاولة ذاتها على رصيف المطعم الصغير، محاطاً حتى عظامي بدويِّ الطلقتين. لقد سألتُ صاحبي أن يعيرني بندقية الصيد المُرَخَّصة التي يحتفظ بها، فأعارني البندقية، دون سؤال قط، مع طلقتين. لم أحدّد له عدد الطلقات، لكنه قدَّم لي اثنتين من عيار ١٢ ملم.

كان ذلك مساء يوم في أواخر الصيف، الذي يتكرّم الله عليه بتمديداتٍ متتالية فيغدو خمسة أشهر أحياناً. وبعدما انتهيت من شرب بضع كؤوس من الشراب الذي لا لون له، أقفلتُ راجعاً من مسكن «جانو» إلى مسكني، وأنا أكاد أجزم ان اشباحاً من أشباح «الذئاب الجبلية» ـ التي تتخذ أيَّ شكل تريد ـ تعبر الفراغ المُقَسَّم أقواساً تحت أضواء القبّة الغامضة للمكان، وأكاد أسمع الريحَ المصفِّرة في كهوف جبال هَكّار تعينني على العبور، خفيفاً كغبار زهرات الميموزا، من برزخٍ إلى آخر، ولي صوت «جانو» وظلامُ محجريه الشبيهين بكتابةٍ ممحوَّةٍ على عجل.

معي بندقيته، ومن يحمل بندقية هو صيّاد بالفراسة. لا أحراشَ في مشهد الرؤيا المُلْغِزِ بين مسكني ومسكن «جانو»؛ لا سفوحَ؛ لا أودية أو أخاديد؛ لا صخور، بل أرضٌ سَهْلٌ، خضراءُ من فيروزٍ أسْقَطَهُ الصُّنَّاع من قلادة السماء الرابعة ـ؛ أرضٌ ترى نفسك في مسيلها كأنك ذاهب عكس اتجاهك؛ كأنك حاضرُك الماضي تسردُ فيه على قرائنك المجهولين حكاياتٍ عمَّا كُنْتَهُ بعد الموت.

فُسْحة من الفيروز، نقيّة مضاءة بشموس تتدحرج على سجاجيد

من ضيائها. وظلّي ينفصل عني في اتجاهات كثيرة، مبتعداً، متداخلاً، مُنْعَكساً أسفل وأعلى. ومعي بندقية «جانو»، محشوة بطلقتين.

كل شيء هدفٌ في ذلك الغَمْر اللانهائيّ. عليك أن تطلق النار مرّة لتنهض الفرائس من كمائنها في المجرّات. طلقةٌ أولى هي الطلقةُ الشَّرَكُ، تتبعها الثانيةُ في المَقْتَل.

يتفتَّح السهلُ الفيروزُ عن ثغرةٍ أكثر ألَقاً. في ضياء صعيده المُغْشِي. ومن الثغرة، تلك، أَنحدرُ على دَرَج كالماء الى سهل آخر لا ضياء فيه، ولا ظلام: أفق مستدير، منقوش بازميل من النحاس، وفي وسطه ذلك الشابُ الغريبُ جالساً تترامى أمامه مسارب النور الملأى، حتى التخمة، بخناجر ومُدى متراصفةٍ صفوفاً كأمشاطٍ بحسب أحجامها، تتلألأ مقابضُها حيناً، ونصالُها حيناً آخر، في شبكة من بريقٍ يعكسه مُذَنَّب لا مرئيٌ يحرثُ المشهدَ بمحاريثَ لا مرئية.

صامتاً كان الألقُ، كريماً بِعَدَمه الجسورِ الفيروزيِّ، حتى حلَّتِ اللحظة التي لا يقاومُ فيها أحدٌ إغراء المشاركة في افتتاح متاهةٍ.

ارتفع صوتُ الغريب بطنين خافت كأنما هو مدخل إلى أغنية أقلقتني لياليَ، أصغيت إليها منبعثةً في وحشة مريرةٍ من تحت سريري، حيث القبو على الأرجح. وهي أغنية كانت تنطفىء مع الفجر، مُسَلِّمةً سِرَّها للشعاعات القادمة من النافذة، فيما أبقى أردّدها في ثغرة من ثغرات كياني الكثيرة طوال النهار، كمَن يردّد أمراً مُعَذِّباً على نفسه حتى الإعياء.

كنتُ أقول لـ «جانو»: «كيف يمكن لشخص أن يردّد أغنية يكرهُها وتعذِّبُه، على نحوِ كالكابوس؟»، فيردّ: «هو لا يكره الأغنية، بل ما يعذّبه فيها».

«ولماذا يكرِّرها، إذاً، على نفسه، في صمت؟»، أسألُهُ.

ـ يحرِّض نَفْسَه على أمرٍ ما.

«أهذا جواب؟»، أتمتمُ مبتسماً، فيردّ:

«إذا لم يكن هذا جواباً، فلماذا يعذّب نفسه بأغنية يكرهها؟».

لا أعرف، تحديداً، إن كنتُ أكره الأغنية التي يرفعها الغريب إلى مسمعيَّ، في الضلال الموحش للسكون، حيث أخلد إلى نفسي المرمية على شبكة من أقواسها، أم أنني أنجرف إليها محمولاً على انكسار كبير، لا يُطاق. هكذا، بغتةً، وَجَّهتُ ماسورة البندقية إلى الأفق المُغْشي في ضيائه المُرَقَّش، وأطلقت طلقتين على الغريب، ثم أغمضت عيني في لحظة الإغراء التي لا تُقاوم على مدخل المتاهة.

لم أرَ ما حصل، لكنني سمعت سقوط آلاف الألواح من البللور، وارتطام أوانٍ معدنية بأرض صلبة، صقيلة، يتفجَّر فيها الصدى دوائرَ تعتقلُ الصوتَ وتنفيه. وأعقب ذلك هدوءٌ نورانيٌّ، مرفوع بسلاسل من الرصاص المعتم إلى قُبَّة أعلى من صرخة عالية، تكاثفَ على رخامها اللامرئيّ قَدَرُ البرهةِ تلك كبُخَارٍ.

لكل كائن برهةُ الإغراء التي لا تُقاوم على مدخل المتاهة. وفي استطاعتي وضع مصنَّفٍ أوسع مما صنَّفه الجاهلُ «حمّاد الصَّقّار» لابن مسعود الديلمي، الحائر في تفسير فجاءات بحر قزوين. يا للكلب. لقد أدخل في التصنيف ما لا يعرضُ له في أبوابه. قال، قال حموه عن زنجي من واسِطَ لا يُستعانُ بأحدٍ في تحديد حكمته المحمولة من زنجبار؛ قال: «أوّل المتاهة أن تعفي نَفْسَكَ من قَدَرِها». قيل له: «القَدَرُ لا يُعْفى لأنه منشأُ الفعل، واكتماله، واتّصالُ ما بَعْدَهُ به». قال: «أن لا تتذكّر نَفْسَك تُعفي القَدَرَ». و«حمّاد الصّقار»، الجاهل، أوقف تصنيفه على القتل وحده.

يقول: «تنتفخ أوداجُ الرّجل ـ أو المرأة ـ وينبض صدغاه». يقول: «تغشى عينَ المرءِ سحابةٌ من سحابات نجدِ الظامئة؛ وتعروه حُمّى ضفاف الفرات. لا يحسب نَفْسَه من الأرض ولا من السماء. إنه اختبالُ العقل وانخسافُ التقدير».

هنا يضربُ المرءُ ضربته كما يَرِدُ في تصنيف ابن الشيطان «حماد الصقار»، الأمرد، المُكْمَدٌ على صُفرةٍ، دون أن يهديه برهانٌ ممّا في مَلَكةِ المصنّفينَ الفحول إلى أن القتل مجازٌ من مجازات الوجود التي يُفتِنُ بها القَدَرُ الكمالَ: أن تقتل يعني أنك في انْجِذَابٍ إلى خيارك الأقصى.

القتلُ اختبارُ البداية في تأكيد نَفْسِها كحدوثٍ يستعصي على العقل ـ ثمرةِ التصانيف المُخَاطة بخيوط القُنَّب.

القتل برهانٌ. وكل مَقْتَلَةٍ قراءة من القراءات السبع والسبعين للحروف ذات التشكيل القوسيّ. وأنا أجزم أن «حمّاداً» المتفيهق على أبواب الدَّيلم كان يعاني كثرة شحوم في دمه، وهو أمر يبثُّ الأرقَ، ويُقْلِقُ أخلاطَ البدن، فلا يصفو فكرٌ. وقد هداني إلى تمحيصي هذا ذِكْرُهُ الكثير للسَّمن والفالوذج، وأخذه برأي القصّابين في منافع الشحم، وغُدد الأحشاء، حتى أنه أفرد لها باباً في كِنَاشه «الإملاق في الوصف»، وأخالُ الأجدرَ بالعنوان أن يكون «الإملاق في وصف الترياق»، للكذّاب ابن الكذّاب، ذي الإشارات الباطنية في علوم الظاهر، سليل الطَّرْخون اليابس، «حمّاد الصَّقار» حاملِ فُسَاءِ الكُوْشَر. والكوشر دويبة من فصيل الفأر يحتفظ به جاري الكريتي في مسكنه بمنازل المهندسين.

قلتُ لنفسي، مُذ قرأت هذا الرجل، إنه يصنّفُ الطرائفَ لأهل القتل، لكنه يجانب ذِكْرَ القتل، لأن له نَفَس الواشي يتغاضى عن العثرات ليجمع منها دَسَماً للوشاية. وهو يعمد إلى الموجبِ الأخلاقي في إحقاق القتل من جانب السلطان، ناسباً كل أمرٍ إلى موقفٍ مَرِحٍ: «أخِذَ مُكْثِرٌ في هجاء الأمير إلى الأمير، فقال اضربوا عنقه. فاستسمحه الهجّاءُ برهةً واحدة هي غايته قبل الموت، فأقرَّها الأميرُ له، فانبرى الهجّاء ينبح. فقال: ما بك تنبح في موقفك بين يدي الموت؟ فقال الهجّاء: أعود إلى أصلي. فحدجه الأمير مستغرباً: أأصْلُكَ كلب؟، فردّ الهجّاء: أنت قُلْتَها أيها الأمير، وما أراك أنك تضرب عنق كلب. فقهقه الأمير: بل أضرب عنقه وعنق أبيه وأمه».

يسردُ كهذا في مُصَنَّفه للديلميّ فيغمى عليه من الضحك. وأنا أقول لنفسي، الآن، على أي وجه كان هذا المكّارُ سيوردُ خبرَ أب أطلق النار على أطفاله الستة، وزوجه، وخرج إلى الشارع مبتسماً للأفق ابتسامة لم تنقطع قط آن تجمهرتِ الناسُ عليه، وحضر الشرطيون فقادوه إلى السجن، ومن السجن إلى المحكمة، ومن تلاوة حكم الإعدام عليه إلى الجلوس فوق كرسي تصعد بروقٌ من مَسَانده الحديد الى جمجمة الجالس، كخوازيق السّلاڤيين قبل خمسمائة عام؟

ظلَّ يبتسم. شَدَهَ المُحلّفين، والقضاة، بابتسامته الصلبة كأنما هي مرسومة في ملامحه منذ الأزل. أكان الرجل يفكّر في تقديم مشهد، أم أخذهُ انجذابٌ إلى صورة الكمال الأول الذي استعار فيه الآدميُّ الأول سطوةَ الله في تدبير المصائر؟

قتلَ الأخُ أخاه على باب المتاهة، ليرصدَ، من ثم، بعينين لا تنامان، شراكتَه المؤسيةَ التي أبرمها مع السماء. وقد ظل يتعهَّدُها بعد ذلك، حرباً حرباً، ودسيسةً دسيسةً، وحيلةً حيلةً، حتى أن العقل لا يقاسُ إلاّ بالأحابيل التي تعزّزُ البقاءَ.

حين أطلقتُ النار على الغريب أعتمَ المشهدُ الفيروزيُّ للمكان المعلّقِ كصحن دائريٍّ بين مسكني ومسكن جاري «جانو»، ووجدت نفسي عائداً إليه أقرع بابه فيفتح، فأمدُّ إليه بندقيته: «أشكرك. هاكَها»، قلتُ.

تناول «جانو» بندقيته مني في لا مبالاة جعلت صدغيَّ ينبضان نبضاً بارداً. قال: «عمتَ مساءً» وأقفل الباب، فيما لم أزل واقفاً. تلفَّتُّ دائرياً ببصري على المساكن الهادئة في طمأنينة اللون المحفور بأزاميل رحيمةٍ تحت المصابيح. لم يخرج أحد يتحرّى دويَ الطلقتين اللتين أظنهما أَقْلَقَتا شجرَ الصنوبر العابس كجدٍّ يائسٍ من حكمته.

لقد أطلقت طلقتين. لا وهْمَ في ذلك. أشمُّ رائحة البارود الساخن على يدي، وأرى، في شحوبِ المكان تلك المجرَّة التي هي صورةُ نداءٍ

من نداءات القلب حين يعبر الفراغَ إلى مداره.

كلُّ شيءٌ ممتلىء بجوهره: ذلك ما أشمُّه في رائحة البارود. لكن صمت مساكن المهندسين حيَّرني، وهو الصمت الذي ألحقتُ به الحيف، ومزَّقته، وانتهكْتُه، وأسَرْتُه، وقيَّدتُه بالومض، وكمَّمت فمَه بحزاميَ الجلديّ، وسلخته ايضاً، ثم نثرتُه شظايا بطلقتين من عيار ١٢ ملم، فلم يُنْجِدْه أحد. غير أني أراه على طمأنينته، شيِّقاً مثل أزلٍ لم يستيقظ بعد.

عدت إلى مسكني خاملاً كمن استنفدَ شهوةً. دخلت وأغلقت الباب ورائي، ثم استلقيتُ على سريري ونمت.

تسع سنوات لم ألتفت إلى جدار المطبخ لصق سريري، حيث يكمن الدَّرج. أهملت النظر إلى الثغرة المفتوحة هناك حتى أنها لم تعد هناك. تشاغلتُ عن الفسحةِ الصغيرة تلك وكأنها ليست من أجزاء المسكن. لم أتحرَّش بها ولم تتحرَّش بي. والأكيد أن ما من رائحة صعدت الدَّرج إليَّ حتى يومي هذا: تواطؤٌ فاحشٌ بين الصمت والصخب، في محيط مساكن المهندسين، أخفى خبرَ الغريب الذي أطلقتُ عليه طلقتين، حتى أنني لا أستطيع تقديم برهان على ذلك قط، كأنما الذي حدث جزءٌ من شاغلٍ خاصٌ بي، مستورٍ، أُلقي عليه غشاءُ الله وحجابُه، فلا يظهر إلاّ لفكري وحدي كلَّما تأمَّلت شجرة الخرّوب الضخمة التي هي باب الأفق الشمالي للمقهى، حيث جلستُ ظهيرة ذلك اليوم أنتظر مجيء «جانو» محمولاً على دخانٍ حامض فجَّرهُ البارود في الطلقتين المغلفتين بورقٍ أحمر، مقوًى، منتصب في عقبين من النحاس تقعَّر مرْكزاهما إلى الداخل بفعل الطّارقِ في البندقية.

نمت خفيفاً تلك الليلة؛ خفيفاً كأنما مسٌّ بي من شهوة الغيبوبة. وإذ أفقت صباحاً، تفقَّدتُ ذاكرتي، مثلي مثل كل من يستيقظ صباحاً يتفقَّد الثغرات في ذاكرته ليحاسب الحياةَ على قَلَقِها، فلم أجد غير حكمة كسولة أوردها «ساسون» الورَّاقُ في معرض استخفافه بـ «حمّاد الصّقار». قال ساسون: «سألته أقرأتَ لفلان، فقال حمّاد: نعم. لكنني

نمت وأنا أقرأه. فأجبته: إن داهمك النوم وأنت تقرأ فذلك حقٌّ من حقوق الشيخوخة عليك. لكن إن كتبتَ تصانيفك وأنت نائم فذلك حقُّ الخَرَفِ عليك. فوالله لم يكلمني بعدها قط، حتى ضربه الديلميّ بمصنّفاته على رأسه، كلَّ مصنَّفٍ مائة مرة، فلفظ كبده من فمه قِطَعاً فمات، والديلمي يضحك صارخاً: لو خفَّفْتَ أيها الأحمقُ مقاديرَ الورق في مصنَّفاتك لخفَّف الله عليك ثِقَلَ الضرب».

مَنْ يفيقُ على حكمةٍ ممسوسةٍ كهذه، بعد ليل ممسوس تطايرَ فيه فراغُ الغريب الجالس في فسحة صغيرة مِن قَدَرِهِ؟. منذ متى كان في القبو؟ أيُّ غِناءٍ أخرقَ مسَّني وحدي فكمنتُ له على باب المتاهة؟

في ظهيرة ذلك اليوم، الذي أعقب الطلقتين، سألت نفسي بضعة أسئلة رطبة كهذه، فيما كانت حفّارة آلية تعبر سياج شجر الزيتون، الواقع إلى الشرق من شجرة الخرّوب الضخمة، عبر فسحة ضيقة، فجرفت أغصاناً كثيرة، وطيَّرتْ عصافيرَ من الغبار كانت راقدةً هناك منذ الفجر الأول لمنطقة «آيوس ديمتيوس».

كان اقتحام الفسحة الأليفة، المُهملة، تلك، اقتحاماً فظّاً. لقد تدرَّب بصري، في الأشهُر الأولى من جلوسي إلى ذلك المقهى، على الخلاء المحاط بعددٍ من شجر الزيتون، كأنما المرءُ في بريةٍ خارجَ الطراز المتفيهقِ للعِمَار الإسمنتيِّ على ضحالته.

كانت رقعةٌ مُهْمَلةٌ من الأرض تحدّها شمالاً وشرقاً أبنية لاهثة في لونها الرماديِّ، ويفصلها طريق ـ شرقاً ـ عن شجرة الخرّوب الضخمة. فيما أُحدِّدُ لها، من مكمني وراء طاولة المقهى الملولة، جهاتٍ أخرى لا يُسْتَدَلُّ عليها بذاتها، بل بقرائن من ظلالٍ نسيتها القرون، فالتقطها الغبارُ يعيدُها إلى شجرات الزيتون تهشُّ بها على وحشتها كمن يطرد الذّباب.

في مقارناتي الشاحبة بين الأشجار، خارج معرفتي النهمة بالزوايا القوسية، لم أجد اكثر وحشة من شجرة الخرّوب الشعثاء، المفتوحة كجرح في كثافة الأرض المُهْرَقة على سمائها الضّالة. شجرة تستغيث

على نحو مُبْهَم بأغصانها الألف، وأثلام لحائها العميقة التي تؤوي تسعمائة وتسعة وتسعين نسلاً من الزيزان (هذا البوَّاق الشهوانيّ)؛ وثمانية فصائل من النّمل تقاسُ أرواحها بالريح؛ وصنفين من البعوض المدرَّب على التُّخمة؛ وخمسةً من «صَرّار الليل» البطران، ذي الصوت الخنثوي؛ وثلاثمائة وستاً وعشرين بقَّة سوداء، كسولة، لا يُكلِّمها الزمنُ ولا تكلِّم الزمن؛ وسبعمائة عنكبوت بهلوان، تحمل شطرنج الأبدية على محفَّة من نسيجها الذي لا يتلف؛ وخمسَ جرادات أطول من ساق دجاجة، قاسية المظهر في أقنعةِ تنكُّرِها، لا تتحرك قط، وهي تحدِّج بعيونها ـ الباردة ككواكب من رماد ـ في الشقاءِ المُنتَظِرِ أبداً على أجنحة الجفاف الكبيرة؛ وستة جِعْلان بطيئة هي بركان الكسل الصارم على هَدْمِ اللَّذَّاتِ وإحيائها؛ وعقربين لهما لون العسل الأشقر، يتقابلان، كل يوم، على غصن مختلف، كخصومةٍ عذبة، لا ينزلان إلى الأرض المُحَاصرة بتخوم من الإسفلت، ازدراءً للرائحة التي تُنبِىءُ بالشهوة العظمى إلى مغيب العراءات؛ وإحدى عشرة سحلية، التقطتها يدُ الكون الأولى من جفاف الأثلام كإشارة على حُسْنِ نيَّتها؛ وضَبٌّ حكيم، يصعد الساق إلى الأعلى، مُقَدِّماً الشُّكرَ للهواء على طريقته بلسانه النَّضناض، فيما تدور عيناه دورات قوسية على ستِّ جهاتٍ، ثلاثٍ في كل ناحية، ليضلِّل المشهدَ بجهتين زائدتين في الحساب المعروف، المُسْتَقِرِّ على أربع؛ وثمت ـ بحسب معاينات صاحب المقهى «أبوسْتولي» ـ أفعى بُنيَّةٌ، اكتسبت لونها من العُصارة البنية الحلوة لثمرة الخرّوب، تتدلّى في التواءٍ صامت تحت الأوراق فتبدو كغصن جافٍّ، يابس تماماً، يدبُّ فيه عبثُ الحياة في المغيب، فتُقْفل راجعةً إلى ظلامها في أخدود من اللحاء السميك، تستعرض على نفسها ما رأتْهُ، وما سمعتْهُ، وما قرأته في صخب الحفّارة الآلية ذات الفم الحديد وهي تقضم الأرض، في شارعٍ لا يترك للأنين برهةً كي يُحَضِّر مِزمارَهُ الرَّحيم.

منذ أن دخلتِ الحفَّارةُ ذلك الخلاء المحاط بشجر الزيتون، في ظهيرة اليوم الذي أعقبَ ليلة القَتْل، باتت إحدى عينيَّ على شجرة الخرّوب الضخمة، التي تجمع الأفقَ دائرياً في كُرَةِ المشهد، والأخرى

على سائق الحفَّارة ذاته، الذي أرخى قبعتَه القماشَ على ثُلثي عينيه، فيما تَرَكَ الثّلث الباقي يغمرُني، كل بضع دقائق، بثلثِ نظرةٍ لم يَخْفَ عنّي وميضُها الدَّفين.

شقَّت الحفّارةُ الخلاء الترابيَّ من الغرب إلى الشرق، فسمعتُ لهاثَ شجرات الزيتون. اتَّسع الاخدود بعد ساعة من ذلك، تحت مظلة الغبار الذي انبرى للمكان بهجائه الرماديّ، وشتائمه العاصفة، ثم جاءت شاحنة تلقفت في أحشائها التراب المُنْتَهَك لتُبْعِده عن ملعب الحفّارةِ ذات الصولات المُثْقَلةِ بمَجَازٍ آليّ.

تنفَّست الأرضُ، في تعب، من جرحها، فتحرَّكت خصلةُ الشَّعْر المتدلية على أذني اليسرى. بعد ذلك، ببرهة ممسوسة، شممت ما يشمُّه الغريقُ: الوميضَ الدّاكن الذي يحوِّم حول القلب بإغواءِ الغيبوبة؛ لكنني لم أكن أغرق، في البرهة تلك، بل أسعل من جرعة الشراب المتجه خطأً إلى قصبتي الهوائية، فيما انهالت يدٌ رقيقة ضرباً رقيقاً على ظهري لتخفِّفَ الغصَّة التي أدمعتْ عيني، فهتفتُ: «شكراً» باليونانية قبل أن ألتفت فأرى المرأةَ ذاتها، البريطانية، التي سترسم شجرة الخرّوب الضخمة تسع سنين بعد ذلك، فلا يتعدى الشكلُ الذي ترسمُه صاريةً تتدلى منها خِرَق من كل لون.

لم أفهم، ولن يفهم أحد آخر، قَدْرَ اللوعة في انكباب تلك المرأة على رسم شجرة الخرّوب. كانت تضع أوراقها على الأرض بين صفوف من معاجين اللون، وتركع على ركبتيها في بنطالها المخمل، ثم تنهمك في رصد المسافات، والظلال، والسكون، بعينين قويتين في زرقتهما البحرية كعيني قابلةٍ تستولد الأميرات. لكنها لم تقترب، مرة واحدة، في رسمها من ذلك الهيكل القاسي للشجرة المستوحشة.

أكانت ترسم الفراغ المحيط بالشجرة؟ ليس ذلك أكيداً. بل أظنها لم تكن ترسم على الإطلاق. كانت الألوانُ تهرب من نَفْسها، أو تحتضر على الورق الخشن الذي تلفُّه بشرائط خضراء كخرائط المعماريِّين، وإذ تفرده على الأرض تضطر إلى تثبيت زواياه بمنافض

الرماد الزجاجية التي تستعيرها من صاحب المقهى، وذلك ما يغيظه، سيما وأنها لا تكافئه على بقائها ساعتين على رصيف مقهاه إلاّ بشراء فنجان قهوة. وقد تغفر لها قليلاً تلك البروق السخية التي تقذف بها إلى مغاليق شهوته، في انحنائها، جاثيةً، على أقاليم الورق، فينحسر قميصها من تحت البنطال حتى منتصف ظهرها الأحمر كتحيةٍ من الشمس.

والمرأة ذات بشرة حمراء، على أية حال. تبتسم فينحدر خطّان أبيضان من خديها إلى زاويتي فمها. وهي تبتسم على الدوام كلما التقت عينان بعينيها، في حركةٍ تنبعث من الخصائص الفطرية ـ في الآدمي ـ كتعويذة تقي من الشرّ. وتمشّط شعرها بأصابع يدها اليسرى، كلما رفعت رأسها عنِ الألوان الغارقة في شقاء أملها، لتحدّق في الشجرة الهاربة، من جديد، تحديقاً أزرق كقلق عينيها الزرقاوين. بيد أن شَعْرها الأسود الفاحم لم يكن في تناسق مع بشرتها الحمراء. فيؤكد «جانو» لي أنها تصبغه: «بشرة حمراء كهذه يلزمها شَعْر أحمر يا رجل»، ويضيف بعدما يميل بجذعه ليسرق العواصفَ الصغيرةَ التي تنفلت من تحت قميص المرأة في حركاتها اللامبالية: «عندنا، في جبال هَكّار، مَغْقَلٌ هو الأكبر بين معاقل النساء ذوات الشعر النحاسيّ، والبشرات المُحتقِنة، يا رجل. لا تستطيع تقبيل جلودهن لأن القبلة يفضحها الدَّمُ الذي يتورّد تحت البشرات». ويهزُّ رأسه أسفاً: «الدم يفضح القبلات يا رجل. حريقُه يفضح». ويضرب ركبته براحة يده، ماطّاً عنقه صوب المرأة المنكبة على قرارة ألوانها: «لم أُقبّل فتاةً، قط، في نواحي هكار».

كان يحضر مع المرأة البريطانية رجلٌ طويل، رماديُّ الشَّعر طويلُهُ حتى الكتفين، وله شاربان معقوفان على شكل اعتراف بجدٍّ قديم من أجداده الجبليين. وقد عنّ لي ولـ «جانو» أن نصنّفه كممثل لا يرقى شكّ إلى مهنته، بسبب نظراته الصقرية الواثقة، وطريقة نَفْثِه لدخان لفافته، وجلوسه ـ أبداً ـ إلى البار الباهت في ركن من المقهى، دون أن ينزل الى الطاولات، أو يجالس صديقته التائهة في مجاهل خطوطها. لكنه يبعث إليها بإشاراته من داخل المقهى، مصحوبة بسأمٍ واضح، وذلك ما

دفع «جانو» إلى بعض الجسارة في مخاطباته للمرأة الحمراء، بعدما كان يتهيّب من ذلك، شهراً أو شهرين: «صاحبُها ممثلٌ رقيع»، ردَّد لي، وخاطب المرأة بانكليزية ممطوطة لها لكنة كردية: «هذه شجرة البحر»، فابتسمت المرأة الحمراء ابتسامة طويلة وهي ترمقنا بنظرة مرحة، لما في جملة «جانو» من عبثٍ لا يُفضي إلى معنى.

ربما كان التدبيرُ الأولُ للكلمات الانكليزية، على لسان «جانو» القنّاص، هو الذي هيَّأ له جُملتَهُ خبط عشواء، أو ـ ربما ـ تفكيره الدائم في ربط الأشياء بالبحر مُذ بلَّغه النافذون في امبراطورية المهندسين برغبتهم في بناء متحف على شكل سفينة. «آ آ. أمر شيق» قال لي «جانو»، يومها. وقد سألته البريطانيةُ، دون اكتراث كبير: «لماذا هذه شجرة البحر، وليس الجبل؟»، فمسَّد الشاب على شاربيه كَمَن تناول ملعقة من الحساء: «كما ترين، يا سيدة، لثمارها شكل أسماك. ألا توافقينني؟»، لكن المرأة كانت مشغولة، في اللحظة تلك، بمحادثة خفيفة مع صاحبها القبرصي، الذي غادر المقهى وفي إشاراته الملولة ما ينبئها أنه ذاهب الى البيت، فهزّتْ رأسها وهي تنظر الى ساعة يدها: «أراك لاحقاً».

عرفنا، من المرأة ذاتها، أن صديقها ليس ممثلاً مسرحياً، بل موظف في مصلحة الضرائب، فازدادت جسارةُ «جانو» التي لم تحظ بإعجاب «أپوستولي» الصامت في قناع شهوته. لكنهما لم يكونا متكافئيْنِ. فصاحبي يعرف بعض الانكليزية، فيما صاحب المقهى، الخارج من عارض في القلب، لا يعرف العدَّ حتى العشرة باللغة الشقراء تلك، إضافة إلى الجسارة الحمقاء في طبع «جانو».

وقد اتَّسعت خيوط اللعبة الأزلية، من ثَمَّ، فبات «جانو» يركع على الأرض، جنباً إلى جنب مع المرأة المُحلِّقة في غشاءٍ من شرانق الشمس، تحت بصر صاحبها الذي ازداد، شهراً بعد آخر، انحناءً لعاصفة براندي «انكلياس» الأحمر، الأشقر، الفضّي، الذهبيّ، المُسَخِّر لحمل الجنّ إلى ألق النهار مغلولين في أصفاد من رائحة شواء الخنزير

دون توابل؛ تلك الرائحة التي أسَّست مطبخَ المقهى أوَّلاً، فكاد يتحول إلى مطعم صِرْفٍ. لكن اعتدالَ ارسططاليس، ابن اللغة الاغريقية المستولدةً من ذعر البحر، قَسَّم ريحَ العقل في تجويف من تجاويف رأس «أپوستولي» قسمين، فجعل للمطعم امتداداً أخذ منه ثلاثة أرباعه، وسمّاه «مقهى پاپا يوانو الأحمر»، تيمُّناً بمؤسس حزبه البلشفي النبيل، الذي لم يتوانَ عن تقليد تصفيفة شعره أيضاً، برغم فارق العمر بينهما. لكنه لم يكن فارقاً يتيح لـ «أپوستولي» الاحتفاظ بشعر فاحم على رأسه، وفوق شفته العليا. ولطالما سألناه عن الصبغة التي تجعل محاكاة الطبيعة قوية على ذلك النحو، فكان يردّ هازلاً: «الفحم الذي تريانه. فحم الموقد، ودخان شحم الخنزير». ويضحك: «إنهما لا يجعلان الشعر أسود فحسب، بل هاتين أيضاً» ويشير إلى خصيتيه.

صار صاحب المرأة يغيب طويلاً، وإن حضر، بين وقت وآخر، حضرَ مُطْفَأً قبل أن يبدأ رشفتَهُ الأولى من كأس البراندي. لقد أغرقته الأرقام، وأوثقته إلى مجهولٍ من مجاهيلها، فما عادت عيناه تريان إلاّ الثِّقل الكبيرَ للتجريدِ الساحرِ، حاملِ سلالِ الكهولةِ إلى قاطفي الأزل كالبرسيم.

شاخَ الرجلِ الطويل فجاءة. تضاءلت رقبته، وتقاصر شارباه عن فمه المغلق دائماً. ارتخى حزام بنطاله عن خصره حتى بانت أطراف سرواله الداخلي الأزرق: لقد قضمته السنةُ الأولى من تردّدنا على المقهى، حتى صارت المرأة نفسها تسنده في مجيئه وتُعِيْنُهُ على جلوسه المنكسر فوق الكرسي الدائري أمام البار، ومن ثم تُعِيْنُهُ على النزول عنه، آن يتهيَّأ للخروج، لتعود ـ ما بين الفترتين اللتين لا يصمد فيهما الباشق القبرصيّ، طريدُ الأرقامِ وفتنتِها، أكثر من ساعةٍ صامتةٍ ـ إلى ألوانها المتشاجرة كجنود يتقاسمون غنائم نهبهم الأول. وقد اتخذ «جانو»، في الفوضى العميمة لأقدار اللون على ورق المرأة، صفةَ قائد خوَّله الفراغُ بتنظيم المجرّات: كأس «أوزو» الأبيض تستقرّ إلى جانبه، على الأرض، لصق كأس الجعة، متناوباً على ارتشافهما بطريقة لا تشبه طرائق الشاربين، الذين يتجنبون الخلط بين مزاج الجعة و«أوزو» ـ العَرَقِ

اليوناني، وهو أمر لا يحجم عنه السّوْقَةُ ممن يطلبون سُكْراً سريعاً. لكن «جانو» لا يطلب سُكْراً سريعاً، بل يشير على عادة قومه في «هكار» في شُرْب العَرَق جرعةً تعقبها، على الفور، جرعة من الماء. وإذْ أسألُه لِمَ يحيْدُ عن العادة تلك بالعزوف عن الماء إلى الجعة، يردّ: «أجْمَعُ شعيرَ السهل إلى كروم الجبل، يا رجل. أنا رسالةُ الريحُ»، ويُقَرّبُ أنفاسه الساخنة من شعر المرأةِ المُجْتاحةِ في قلاع ألوانها: «طِيْرِي. أنا الريحُ، طيري» يقولها بالانكليزية المُتْلَفَةِ في حنجرته، فتضحك المرأة ضحكاً يتقوّس منه جذعها، وينفلت شعرها الفاحم من حصار يدها اليسرى حين تردّه إلى الخلف في انحنائها على كهوف الأوراق: «إلى أين؟» تسألُه، فيردّ: «إلى الشجرة، سيدتي؛ إلى شجرة برسيڤال هذه».

«أإسمها شجرة برسيڤال، في بلادكم؟» تسأله المرأة الحمراء.

«اسمها شجرة جولييت، عندنا» يردّ «جانو» في سخرية تُخفى على المرأة، فتسترسلُ، هي ضاحكة:

- كيف أطير إليها؟

يلتفت «جانو» إليّ، مغمضاً إحدى عينيه بحركةٍ تهريجية، ويهمس بلغة أهل موسكو: «لخصيتيَّ جناحان. قلْ لها: في وسعها أن تستعيرهما».

لكن المرأة الحمراء لا تستعير شيئاً إلاّ منافض الرماد الزجاجية من «أبوستولي»، لتُثَبِّت بها زوايا ورقها المستطيل على الرصيف، منحدرة - يوماً بعد آخر، تسع سنين - إلى تحايلٍ كبير على الشجرة، ومواثيق شكلها، زاعمةً أن الخطأ في اختزال الغصون، أو إضافة غصون، هو خطأ اللون. وهي تؤكد لنا، دائماً، أن مكعبات الألوان المائية، في العلبة الصفيحِ، مغشولة بأخلاط من طحين الذُرة. وأن مواسير الألوان الزيتية تجري تعبئتها في العتمة فلا تعود للّون ذاكرةٌ، تماماً كأنْ يجري حفظ النبيذ في خلاءٍ مضيءٍ: «للألوان روح. للنبيذ روح. تنكسران إذا لم تُعْقَد صفقةٌ رحيمة مع الضوء».

هكذا تشرح لنا المرأة إخفاقها، بكلماتٍ تقريبية، عسيرة على ملامحها المبتسمة للفراغ. فيصحّح لها «جانو»: «الألوان...» ويبحث عن تشبيه يحضُني، أيضاً، على البحث عن مفردة له بالانكليزية: «ما هي كلمة متاهة، يا رجل؟»، وإذا يراني أطيل التنقيب في ذاكرتي، يرسم لها، على منديل ورقيّ من مناديل المقهى ممرّات أشبه بِتَسالي البحث عن الكنوز في مجلات الأطفال، مُهَمْهِماً يسألُ المرأةَ:

«ماذا تدعون هذه بالانكليزية؟».

«متاهات» تردُ الغارقة في كيان الشجرة الهارب.

«أووو..» يقول «جانو» في مرح المُسْتَهدي إلى كَشْفٍ:

«نعم. اللون متاهات، سيدتي»، فتقاطعُه:

ـ ناديني باسمي.

«عفوك. اسمك سيدة حزيران»، ويبتسم لها فلا تبتسم، هامسةً:

ـ ناديني باسمي.

يسرح «جانو» بعينيه إلى شجرة الخرّوب، تلافياً للنظرة الثقيلة التي تُحدِّجُهُ بها. يتمتم وهو يستقيم بعدما كان منحنياً، مثلها، على الورقة في ركوعه: «جيْنْ. حين نمنح أحداً لَقَباً غير اسمه، فإنما نستردّ له اسمه الحقيقي».

«اسمي الحقيقي جينْ» تقول وقد احمرَّ جبينها، فيقدِّم لها كأس العَرَق: «أنت حزيران. أنا لم أسمِّك»، ويغمزُ الشجرة: «هي التي سمَّتك حزيران. اشربي رشْفَةً»، فتتناول المرأة الكأس من يده، تحت بصر «أبوستولي» المُصفَر كسهم من عتمة المقهى الظليل. تحتفظ برشْفَةِ العَرَق لبرهات في فمها، ثم تَزدردُه في هدوءِ المستمتع بطَعْم ينبغي تحديدُ مزيجه: «لماذا حزيران، تحديداً يا جانو؟» تسأله عرّافة الرصيف الحمراء، فيجيبها:

ـ هذه الشجرة هي مأوى حزيران. دِبْسُ ثمرتها قُبَلُ حزيران

الحارقةُ. فما الذي تفعلينه، على أوراقك هذه، غير تدوين اسمك الحزيرانيّ بألوانِ شُباط؟

أجزمُ أن «جانو» كان يختلِقُ جُمَلاً بالانكليزية خارجة من كأس العَرَق توّاً؛ رطبةً مسّها إشراقُ السُكْر الخفيف. والجُمَل، تلك، تحديداً، كانت تُبَلْبل المرأةَ فتعروها حيرةٌ متورِّدة كلون وجنتيها وأنفها، كأنّما تجاهد أن تستوعب أسراراً مقذوفة من اللكْنة الكردية إلى لغة فرسان الملك آرثر، المحيطين بشهوته المستديرة.

«كيف يصير أبيضَ بزيادة الماء إليه؟» تقول لـ «جانو» في إشارتها إلى كأس العَرَق القبرصي. فيرفع ذراعيه كمن يصلي، متجهاً بعينيه إلى السماء: «إذا خولط الدَّمع بالماء صار حليبياً»، ويصفّق: «هذه غيمة، أترينها؟»، ثمت بكاء هناك. الصّفاء البلّوريُّ اختلط بالدمع، والغيمةُ هذه إشارة إقليم ضائع». ويلتفت إليَّ مُدَمْدماً بالكرديّة: «قُلْ شيئاً يا رجل»، ويضيف بالروسية: «اشرحْ لها أنني مُهَيَّأ، ككاردينالٍ منهوبٍ، للتبشير بهذا اللَّحم»، ويعصف عصفاً غير مرئيٍّ بالثَّنيات الرقيقة للَّحم المُنْفلت من أطراف حزامها.

أكتفي بابتسامةٍ، أو بوضع راحتي على أذني وصدغي الأيسر، لأن عينيَّ، كلّما راوغتا، عادتا إلى النظر في أمر الأرض المحاطة بشجرات الزيتون، حيث تنفتح الأحشاء هناك لالتقاط بذرة الصخب التي تهرقها الحفَّارة الآلية كَمَنيٍّ.

ثمت نداء ما من هناك يقطع «جانو» إصغائي إليه، أبداً، بحركاته المُتَمْتِمَةِ للُغَاتهِ المستعصية على شرحٍ كبير يحتبس في شرايين يديه النافرة: يريد أن يقول كل شيء للمرأةَ المطحونة برحى ألوانها، دفعةً واحدة، وأن يضع قمراً على المنضدة، صارخاً: «هذه آيتي الكردية ـ آية هَكَار».

لم يكن «جانو» مغرماً بالمرأة الحمراء قط. وما كان توّدده إليها يحملُ فكاهاتِ الإغواء. كلُّ الذي وجدته في ذلك الهرج الخفيف أنه

يريد مجادلة شخص لا يفهم، تحديداً، مراميه، بسبب فروق اللغة، كي يضع نَفْسَه، أو الآخر، على عتبة السّحر الطاغي لعلوم المتاهات. حتى أنني، نَفْسي، حين كنتُ أبادله مجادلاتٍ مُلْغِزَة باللغة الروسية، التي يتقنها كلانا، كان يكسر مجاريها بجُملٍ طويلة من الكردية بلهجة «صُوران». فإذا اعترضْتُه مستوضحاً ما يَخْفَى عليّ، لا يشرح لي شيئاً، بل يُجَاوز ذلك إلى استرسالٍ بالروسية فيه ثغرات عمياء. ولربّما عاتبْتُه، أحياناً:

- ألا تقول جملة واحدة، مستوية، مُرْسَلَة، دون ثغرات، يا لَقْلَقَ أَضَنَهْ؟

- الجُملة المستوية، دون ثغرات، هي نقيض العقل، يا رجل.

- كن مجنوناً ضدّ عقلك، وأَتْمِمْ جملةً صحيحة.

- أأنا عاقل إلى هذا الحدّ، يا رجل؟ أنا رجل القوانين، وهي متقطِّعة، يا رجل، مثل هذا الفاصل بين شاربيَّ.

من جبال «هكّار» كان انتقال «رسول إينين»، والد «جانو»، إلى أرض «أَضَنهْ»، في مطالع سبعينات هذا القرن. «كل شيء تغيَّر» يقول «جانو». رياحُ «هكار» العاصفةُ تصل سَكْرى، دمثَةً، مغلولةً بمرح العنب إلى «أضنهْ». «كنا قريبين من بحيرة وَانْ - ذلك الثدي الأزرق، المتَّصل بالسماء لا بالأرض. ملايين الحَلَماتِ يا رجل، وأنت حرٌّ أن ترضع منها، أو تُقبِّلها، أو تعضَّها إذا كانت لك أمزجة التوابل.

لبحيرة «وَانْ»، الصغيرة، حدودٌ «مُجْتَهِدةٌ» كالفقهاء المجتهدين على بعث الكلمة من شؤون الحروف المتناظرة إلى شؤون المجرّات المتناظرة. بحيرة وَانْ هي حيرةُ المُجْتهدِ في اقتناص يقينه من البراهين الصغيرة، يا رجل.

كانت «وَانْ» صغيرةً، في أقصى الشرق من كردستان تركيا، لكنها ترى الجهاتِ بعينيْ هكّار، ذلك المرصد الذي تسترشدُ به السفنُ إلى الفردوس الجبليّ لتستقرّ خارج أزل الطوفان. وقد ابتنتْ لها حدودُها

«المجتهدةُ»، الفقيهةُ، فراغاتٍ أكثر اتساعاً من آسيا، يا رجل.

في «أضنهْ» كان السهلُ، الذي تستطيع ذراعُ البحر الجنوبيّ أن تمدّه برسائلَ رطبةٍ، ونفحاتٍ تجعل الطير أقلَّ وحشة مما في الجبال.

تهتُ قليلاً حين وصلتُ «أضنهْ»، لكن الأمر لم يَدُمْ: «لقد وحّد العنبُ أُفقَ الكُرد من هكّار الشيخ، في أواسط العراء السّهبيّ العظيم لآسيا، إلى البحر الجنوبيّ الغربيّ، التائه في رطانات شعوبه الهَرِمة. الكُرْدُ هُمُ الريح من هناك إلى هناك». ويصمت برهة، قبل أن ينطلق انطلاقةً مكسورة من أوَّلها: «العنب، يا رجل». ويُقفل حديقتَهُ أمام زائر المعرفة، أيّاً كان.

هكذا، إذاً: «العنب»! . عليَّ أنا أن أتمّم الرسومَ التي لا يُكملها «جانو» على اللوح الخفيّ، بمقدارٍ خفيفٍ من معرفتي بشؤون العنب، الذي يُعتصر في «أضنهْ» ويُعرَّض للشمس في صحاف واسعة جداً، لا عمق لها، فإذا جفَّ لفّوه لفّاً على بعضه كالقماش، فيباع بالأمتار. وقد يغلون العصارة في حلل ضخمة، ثم يسكبونه شبه جامدٍ في حاويات مستطيلة من الخشب تُحشى بالجوز، وتتوسطها خيوط القنب. فإذا جفّت كانت كالأمعاء، تباع بالأشبار. ومن أحوال العنب الزبيبُ. أما العَرَق، البلّوري، فهو رحيق النشأة الأولى لخيال الإنسان، الذي استولدَ المَرَحَ أوّلاً، فالقلقَ بعد ذلك، ثم وزّع الزمنَ مراتبَ على صورة قلبه التائه. ثم استولدَ نَفْسه من خياله ذاته، ليحاكي الصفات الأكثر شقاءً في اللاتحديد. وهو إذ يمزج العَرَق بالماء يحدّد السائلَ البلّوريَّ بحكمةِ البياض الذي فيه، فيستعير منه خيالَهُ الأولَ، المشْرفَ على العماء الرحيم للكون.

في «هكّار»، كما في «أضنه»، يتوافر «بُهَاق الشيطان» (وهي التسمية التي يطلقها المتدينون على العَرَق) بكثرة. وللبيوت مؤونات منه في القوارير الموصدة بسدّادات من خشب الحور لا تمنع نفاذ رائحة اليانسون، كنحلٍ إلهيٍّ، من الفوّهات، ومن جدران الزجاج نفسه. لكن بعضاً آخر، ممَّنْ لا يَلْحفون كثيراً على الله في دِيْنهم، ويعفونه من أسئلة

النجاة قياماً وقعوداً، لا يرون في عَرَق العنب منزلاً من منازل الشيطان: إنّه يُخليه، بين حين وآخر لمقاماتٍ رحمانية أخرى، تتنزَّلُ لطيفةً كرؤى، فتأخذُ الشاربَ بَرَكَةُ اللّوعة فَيَنْشَدِهُ إلى الخفيِّ العظيم الذي مهَّدَ ضربةَ الخلية الأولى، في عواصف القرون المصطفقة كأبوابٍ، فإذا كل شيء ينكبُّ، كالإسكافيّ، على إنشاء الكائن نشأتَهُ الزمنية، بالخلود القويّ الذي في العضل، والعظام، والعروق، والدم.

العَرَقُ يُذَكِّرُ بالخلية طافحةً في بياضها القديم؛ بياض الشهوة التي تُقدِّم الأملَ، في تعريفها الساحر، إلى الله.

هذا ما يؤكّده بعضٌ من الذين لا يرقى شكٌ إلى وفائهم للأبدية دون مقابل من الأبدية، فيتغاضون عن الثغرات التي في نسيج الأزل، ومن هذه الثغرات الإنسانُ: كأسٌ تقرّبُه من الألم خيرٌ من صحوة تقرّبُه إلى الفرح الذي هو مدخل الفتنة وعتَبَتُها. وإذا حاجَجَهم الناسُ المتوسلون إلى يقينٍ مُرْسَلٍ مثل عروق اليقطين، قائلين «العرق يبعث على النشوة. ألا ترونهم يُغَنّون؟» ردّ الأتقياء المجتهدون: «الغناء ألمٌ. إنه ابتكارُ نَسَقٍ آخر من العويل في مراتب الصوت».

الألمُ هو العنب. الألم هو مجابهات الكينونة ورثتُها: هذا ما يقوله الواقع إذا أحاط بمنضدة يجلس إليها كرديٌّ غيرُ مُدَرَّبٍ على مَرَح المكان. وأنا أتمِّم ما لا يكمله «جانو» من مغاليق معرفته بالعنب، دون دراية كبيرة، ناظراً إلى سُبّحتِهِ الخرزِ متدليةً من جيب بنطاله الواسع، في ركوعه قرب المرأة البريطانية، كأنما استعار ألوانَها من الرسوم الطائشة على الورق، أو أعار الرسومَ ألوان سُبّحته الطائشة.

سُبّحة السجين هي سُبّحة «جانو». كرات من الخرز الملوّن تأخذ شكلَ حبّاتٍ على نحو دقيق، ثم تُعْقَد الحبّاتُ متجاورةً في سلك معدني لتغدوَ سُبّحة كالتي من نُوى الزيتون، أو الكهرمان الأصفر، فيسبِّح الأتقياءُ عليها، بعد ذلك، مردّدين التعاقبَ الأزليَّ لأسماء الأمل، فيما يتّخذها غير الهيّابين من الغيب ـ أو مَنْ لم تُفْتِنْهم الأبديةُ بَعْدُ بكلامَ

الفردوس ـ لَهْوَاً يمرِّنون بها ضجرَ أصابعهم النائمة، ويُهينون بخشخشاتِ حبَّاتها السكونَ ـ شقيقَ الموت الضليعَ في ابتزاز الحياة.

سُبَّحاتُ الخرز صناعةٌ معقودة للسجناء عادةً، يتفنَّنون في بروقها المشمولة بنعمة اليأس في أعماقهم: خرزٌ صغير كرأس الدبوس إلى جوار خرز صغير، في دأبٍ كدأب النمل فيه ازدراء للزمن، وتعفّفٌ عن مراقبته شاحباً ترك الموتُ على خفائِهِ المُضحك قُبَلَهُ الظاهرة.

ومن السُبَّحات تتفرّع أصولٌ أُخرى، كبيرة، لصناعة المسجونين: أَهِلَّة عَلى أشكال حدوات الخيل، تُرفع صواعقَ زرقاء على جبهات الأبواب؛ أحزمة للنساء يحيط الخرزُ الصغيرُ فيها دوائرَ بالخرز الكبير. مَحَافظُ يدوية جرى تدوين الخرزِ على قماشِها في أشكالِ قلوبٍ مطعونة، وزهور هندسية، حمراء في تويجات سوداء. أساور لها جيوب في بطانتها المخمل لحفظ الرّقى الورقية، المدوَّنة بالكحل، والمطويةُ مثلثاتٍ في أغلفة من القماش المُخَيَّطِ من أضلاعه الثلاثة، لئلا يعبث الضوءُ بالهِداية التي يُفتيها الظلام. وثمّت، أيضاً، أحزمة للبنادق تتوسطها غزلان متناظرة من خرز برتقالي في فضاء أزرق. أمّا التعاويذ المربعة، التي يجري تثبيتها في ثنايا الثياب بدبابيس معقوفة، فهي لا تُجاوز، في معظمها، رَسْم العين الرَّاصدةِ مهبَّاتِ الشرِّ، بتحديقها الذي لا يكلّ حتى لو تساقط الخرز الإهليلجي كلّه، وامَّحَتِ الخطوطُ.

ذاكرة «جانو» جزء من سُبَّحته التي يحتفظ بها هديةً من سجنٍ ضائعٍ بين صخور جبال أمانوس، الممتدة كلسان بارد من جنوب تركيا إلي مغاور البحر المتوسط: «لا ينضج، قط، مَنْ لم يدخل سجناً» يقول لي. ويتأمَّلني: «أنت لم تدخل سجناً بعد. أستطيع تخمين ذلك من عينيك». وإذْ أسأله: «نعم. لم أدخل سجناً. لكن ما الذي ترى من الأمر في عينيّ؟»، يردّ: «الألم. إنه دليل نظراتك إلى كلّ شيء يا رجل».

«غريب!!» أتمتمُ سارحاً ببصري إلى شجرة الخرّوب. فيرفع سبابته أمام عينيه كَمَن أدرَكَ برهاناً: «أراها تتألّم كلّما نظرتَ إليها. أرى

الحفّارة الآلية تتألم إذا حدّقت فيها. أرى سائقها شاحباً من الألم تحت ناظريك. ألا توافقني؟».

«ولماذا الألم إذا لم أدخل سجناً كالذي تصفه لي؟» أسأله.

«السجن بَيْعةٌ يكتمل بها إعلان ثأرك الإنساني، يا رجل» يقول «جانو» العرّاف.

«لا أريد إعلان الثأر على أحد يا جانو» أقول له، فيردّ:

ـ هذا ألمك.

«ما الذي تعنيه بـ «الثأر الإنساني؟»»، أسأله وأنا على يقين من بلبلةٍ ما في الجملة الفظّة.

«القطيعة مع الحرية»، يردّ «جانو».

«هذا كلامٌ...»، فيقاطعني:

«كل شيء كلام، يا رجل».

أصمت برهة أمسح فيها قطرات من الشراب استقرّت كختمٍ مائيٍّ على المنضدة، قبل أن أبادره:

ـ أتعني أنك لم تعد تتألم، مثلاً؟

« لا» يردّ «جانو» في ثقة مكتومة. «إذا احتجبَ الألمُ بدأ الذّهول»، وينظر إليّ ممتحناً كلماته على بؤبؤيّ: «أنا في ذهولٍ، الآن».

«مِمَّ؟» أسأله، فيجيب، فاتحاً زرّيْنِ من أزرار قميصه:

من السجن، يا رجل. السجن يستطيع أن يأخذ منك ألمك، دون تعويضٍ قطّ.

«لم أفهم» أقول، فيدمدم:

«السجنُ عِظةُ الله، يقول أبي. لكنه لم يقُل لي شيئاً في أمر هذا الخرز»، وينظر إلى سُبّحته، مضيفاً: «لدي كيس يزن ثلاثة أطنانٍ...

أعني كيلوغرامين، على الأرجح، مليء بخرز من كل صنف صغير، حتى أكثره صعوبةً في تمرير الخيط فيه».

«أتحتفظ به هنا؟»، أسأله.

«نعم» يردّ. «في أصيص زجاجي على حافة النافذة، كي أراه أبداً قبل أن أنام».

«ولِمَ تحتفظ به؟» أسأله.

«لأطفالي» يجيب «جانو».

فأمازح «جانو» الأعزب:

- «تعني أطفالك المقبلين، من أمهم البريطانية، هذه؟» مشيراً إلى المرأة المسفوحة على أوراقها.

«ولِمَ لا؟ من هذه المرأة؛ من ابنة القحبة صاحبة باشا الأناضول أزكيْنْ. من الجرّافة تلك..»، ويدقّق النظر في هيكل الجرّافة الأصفر، حيث التمهيد لأساسات البناء على أشدّه في الخلاء المحاط بشجرات الزيتون: «الجرّافة أيضاً. أستطيع إنجاب أطفال من الجرّافة، ومن شجرة الخرّوب»، ويرفع كأسا العَرَق القبرصي لصق خدّ المرأة الحمراء: «نخبكِ. نستطيع إنجابَ أطفالٍ من كل شيء»، ويلعق شاربيه المبتلّين، جاثياً مستقيمَ الجذع: «الأطفال جاهزون للخروج»، فيستقيم جذعُ المرأة، أيضاً، وهي ترقب حركتَهُ المرِحةَ. «إنهم في جيب قميصي»، ويتفحص جيب قميصه، ثم يخرج يده ويدسّها في جيب بنطاله: «وهنا، أيضاً»، ملتفتاً إليَّ: «أليس في جيوبك بنات صغيرات؟ كل الذين ألمس أجسادهم، في جيوبي، لهم...»، ويرفع سبابته منتصبةً للتدليل على الذكورة. لكنه يميل، فجاءة، على المرأة، محدّقاً في الفتحة الجريئة للقميص بين ثدييها الحُرَّين: «جيْن. هناك أطفال يختبئون هنا»، فتضم المرأة الحمراء الفتحةَ بجماع يدها، وهي تقهقه من دعابته الماجنة.

أطفال «جانو» سيولدون ليذهبوا، من فورهم، إلى السجن،

حاملين كيسَ الخرز العريق، لينجزوا ما أنجزه «يَلْمَاز مَلّيْ» في مُعْتَقَل «قُونيَهْ». وهو كردي غطى جدران القاووش الأربعة، من السقف حتى الأرض، بسجاجيد من الخرز، قد يجري تقديرُ استغراق صناعتها، من الوقت، بألفي عام. فإذا كان في الأمر مبالغة رمزية في عمر الرجل، فإنما للرسوم على سجاجيد الخرز ثقل ألفي عام، وثمانمئة وستة وستين. والرواة، بحسب «جانو» يتندّرون: «لم يدخل أحد السجن قبل يلماز». وفي غارة من غارات الكُرْدِ ذوي الأمل النّاريّ، جرى تحرير السجناء جميعاً، إلا «يلماز». رفض مغادرته. حثّوه تحت دخان البارود، أن يهرب فلم تُجْدِ المجادلةُ. طوّقوا الجدران بسلسلة من الديناميت، ومدّوا الفتيل طويلاً، حتى يسنحوا له أن يتفكّر، بين اشتعال الفتيل والانفجار، في أمره، وانسحبوا على عجل قبل مجيء مَدَدٍ من قوات الدّرك التركية. لكن «يلماز» جلس وسط القاووش الفارغ، ومرّر خيطاً بلاستيكياً رقيقاً في أربع خرزات، لإنجاز تعويذة لابن أخيه من وَدَعَةٍ بيضاء، صافية، كاد ينتهي من تغليفها. آنذاك غطى الدّوي شرقَ «قونيه»، بيديه الملتمعتين، وانهار السِّجن رُكاماً.

لم يمت «يلماز». رُفِعَتِ الأنقاض فإذا بشريحتين من السقف شمَّرتا، متناطحتيْنِ، فوق جسده كمثلثٍ، وهو جالس بانحناءٍ يتحسَّس ثقوبَ الخرز بالخيط في الظلام.

نقلوه إلى سجن آخر، من «قونيه» إلى «مرسيْن» القريبة من «أضنه»، فاشتغل الرجل على رسوم بَحْريَّةٍ، وصف له مشاهِدَها سجناءُ آخرون من سلالات «مرسين» نفسها، المشمولة بميثاق البحر المتوسط، الذي يحمل آثارَ أقدام على سطح مياهه يسترشد بها النوتيّون.

رسم الرجل حوريات من الخرز بأثداء عارية. رسم سلطعونات تشبه الدِّيَكةَ الرومية، وأسماكاً لها ملامح أطفال هرمين. رسم أَعْيُناً طائرةً كالنوارس بين موج مصفوف كالسطور، ومراكب أكبر من البحر نفسه، بأشرعة مدَّ لها زوائد من القماش المطرز بالخرز إلى السقف.

غطى «يلماز» قاووش السجن الجديد، بجدرانه الأربعة، وببعض

سقفه أيضاً. حمل البحر الى الفُرُش الممدّدة على الأرض حتى ليكاد الشخص يطأ، في نهوضه شخصاً آخر. دوَّخ حلم المسجونين تحت أذيال حورياته. وقسَّم عمره الألفين شعاباً مرجانيةً، ومحارات، وصناديق كنوزٍ ضائعة في طين القرون تحرسها أحناشُ المياه المُجَنَّحة. ثم أعطى كل سجين حصّته من عمره ذاك: رُقى خضراء من الخرز الفيروز تُعَلَّق إلى بطانات القمصان، أو تُربط حول المعاصم. رُقى للحرية عليها صور نساء مشوَّشة، لكنهنّ نساء ما دام لهن شعر طويل، وأثداء يقظى تترصّد الهبوبَ الذكوريَّ للَّوعة.

فتح «يلماز» سجن «مرسين» على بحره الذي لا يعرفه، لأنه ابن جبالٍ، ثم جذّف فيه على مركب من خيالات المسجونين.

لم يلتق «جانو» بـ «يلماز» حين عبر أضَنَهْ على بغلة حمَّلها أربعةَ أكياس من الخرز. والده «رسول» أخبره طرائفَ من مآثر الرجل ذي الألفي عام. فإنه، حين أفرج العسكر عن «يلماز» من سجن «مرسين»، جمعَ الأخير سجاجيده المطرّزة بخرز روحه، ليحملها معه إلى وحشة الحرية، منعه مأمور السجن: «القماش الذي طرَّزته مُلْك الدولة. خذْ خرزك وحده».

أقسم «يلماز»، الذي لا حدود لانكساره، أنه جمع رقائق القماش من بطانات سترات السجناء، ومناديلهم، وأغطية مخدّاتهم، هبةً منهم، ثم خَاطَها بعضَها إلى بعض، ثم اسْتَنزلَ السماءَ في الخرز، وأغوى البحر، و... الى آخره من براهين تكفي نَفْثَةُ دخانٍ من فم مأمور السجن لتحويلها إلى هاوية تبتلع اليقين.

«أعِدْ إلينا القماش» قال مأمور السجن بنظرة تحمل العبثَ على صحنٍ من الدَّم الفاسد إلى قلب «يلماز»، فأعطاه «يلماز» إشارةَ ألمه: «سأفكُّ الخرزَ».

كان في مستطاع أي شخص آخر أن يهب السجاجيد إلى المأمور، ويخرج مَرِحاً من الصفقة المعقودة مع الحرية حتى لو كانت طائشة،

لكن «يلماز» انكبَّ على الخيوط وسلاسلها المعقودة في إتقانٍ صارمٍ إلى القماش، حيث جرى تثبيت كل خرزة على حدة، كأنّما كان مقبلاً على تأبيد تصاويره لألفي عامٍ آخرين، على مهلٍ لن يجد الوقتُ نَفْسُه ما يمكّنُهُ من مجاراته. وقدْ استغرقه فَصْلُ الخرز عن القماش سنة وتسعة شهور. وإذ غادر سجنه بكيسين من خرزه اشترى، بما باعه إلى السجناء من رُقى، ومَحَافظ، بغلةً من السوق، وطعاماً من تين يابس، وزبيب، ولحم قديدٍ، وخبز مجفّف، فقصدَ «أضنه» أولاً، ومنها عبر الجنوب البحرِي في خط مستقيم، ثم اتجه شمالاً إلى «هكار» ومنها إلى بحيرة «وانْ».

خيط من الخرز المتساقط من كيسه هو أثرُه في مسالك الأقاليم. خيط يدور على نفسه، ويتقاطع، ويتشابك، ويتوازى، كأنَّ الرجل يضلّل الحرية، أو يأسرُ المكانَ بشباكِ المتاهاتِ، حتى أن خَرَزه كان يطير، كالحباحب المضيئة، من دغلٍ إلى سهل، ومن سفحٍ الى أخدود، ومن أكمَةٍ إلى مُنْحَدرٍ، ومن شفَقٍ إلى غسق. عابراً كردستان تركيا إلى الممرات التي افتتحها نهرُ دجلة لنفسه جنوب جبال طوروس، لصق الحدود السورية مروراً إلى العراق، حيث الأرض التي ليس في سلوك أكرادها أن يخزنوا عَرَقَ العنب على غرار قبائل «جانو».

السُكْر محظور في الأقاليم الكردية، جنوب الأسلاك التي تُدْمي الهواءَ الجنوبي لتركيا، في المسافة بين دجلة، شرق سورية، إلى آخر امتداد لجبال الكرد الذي يظلّلُ عينيه كبحّار فيلتقط خليجَ اسكندرونة ـ تلك المحارة الضائعة.

اليقظة، أبداً، هي عُرْف هذا الاقليم: ينام الإنسان يقظان. ينام الشجر يقظان. تنام الآبار، والسهول، والمجرّات في أقواسها يقظى.

عين الإنسان على المجهول، والمجهولُ يقظةُ العارف. لذلك يبقى كل شيء يقظان في حكمة الكُرد هناك. وكلّ إخلالٍ باليقظة نحولٌ إلى الفتنة. والشراب المُسْكر حجبٌ لليقين، فهم لا يشربون.

لكننا كنا، في السنة التي سبقت سَعْيَنا إلى الكمال العريق في علم «الزوايا القوسية» داخل موسكو، نتعاطى الشراب الخفيف، أعني الجعةَ. أمّا العرق فكان ثقيلاً على أحشائنا الرقيقة من تصاريف التغذية العشواء: برغلٌ على لحم دسم؛ لحم على برغلٍ طافح في السمن؛ حنطة مسلوقة باللَّبن؛ شحم دجاج على أرزّ؛ قديد مقليّ؛ شحوم مقلية بالشحوم داخل العدس؛ أحشاء خراف محشوة بالشحم؛ رؤوس غنم مسلوقة تتجمع طبقة من الشحم على عصيدها إذا بَرَد؛ باذنجان مقلي بالزيت. بندورة مقلية؛ كوسا، فول، بيض، فراغات، مواثيق، حِمَم، منجنيقات، ظلال، سُحُب، أقمار، أرواح مقلية في الزيت، فيما يصيب الإهمالُ كل طعام آخر، من خضار الله إلى فاكهته. لذلك كانت أحشاؤنا رقيقةً إذا مَسَّها العَرَقُ جفلتْ، واخْتَضَتْ، واقشعرّتْ. أما أحشاء «جانو» المدلَّلة بنسائم التين، والعنب، والتفاح، والإجاص، والكمثرى، فكانت تزدرد العَرَق مقتدرةً عليه، وتصعد به، رويداً، رويداً، دون فجاءاتٍ، إلى صدغيه اللذين تنبض فيهما الألوان، المرفرفة في رسم المرأة ذات اللحم السخي فوق الحزام، كفروجٍ يحيط بها دغلٌ من شجر الخرّوب.

ثمتَ أمر غفلتُ عن تثبيته، في هذه السطور التي أُمْلِيْها شِفاهاً على نفسي، وسط دفّتي الساعات اليومية في كتاب مقهى «ابوستولي».

وإذا سمّيتُ المقهى كتاباً فالقصد ليس بياناً من بيان اللغة الذي علقتْ منه شذراتٌ بروحي، بأثر من «التأسيس الكبير»، ذي الحبر الذي تُرى في مخابئه أقدارُ العمارة ومصائر المعماريِّين. أعني أن مقهى «ابوستولي» يشبه دفّتي كتاب، بحقٍّ. فالستارة القوية، المُخطَّطة - التي تفصله شرقاً عن ساحة محل البقالة - هي دَفّتُهُ البادئةُ، حيث تمكُنُ قراءةُ العناوين المسطَّرة بصناديق الخضار المرفوعة على رفوف من حديد. الصناديق هي الحروف. صناديق النعمة التي يجتهد البقّال في تفسير أسعارها المرتفعة للشارين: «لن تجدوا هذه الأصناف عند أحد غيري»، يقولها جاداً لتبرير نَهْبِه. فإذا سألْتَهُ: «من أية أرضٍ تأتي بضاعتك؟» حكَّ

صلعته قبل أن يجيب: «هذا استهتار بالله»، ويرسم الصليب في الفراغ المشتبك برائحة الجّوافة.

«وما شأن الله بأسعار بضاعتك؟» ستسألُهُ حتماً، وستسمع ردَّهُ الشاحبَ:

«نعمة الله لا تقدّر بثمن، ومع ذلك تجرّأتُ ووضعت عليها أسعاراً. فلتكن مكافأتكم لي، بشراء بضاعتي، مكافأةً على جرأتي وبضاعتي معاً».

الستارة الشرقية، التي تحجب رصيف المقهى عن رصيف البقالة، هي دفة الكتاب الأولى، أما دفته الأخيرة فهي ستارة تفصل المقهى، غرباً، عن مرآب للسيارات، تدلت من سوره أغصان لا تُحصى لشجرة بوغانفيلي يكرهها «ابوستولي»:

ـ لماذا تكره هذه الشجرة الكريمة، أبوستولي؟

ـ فألُ شرٍّ.

ـ وما الذي يجعلُ شجرةً مزهرةً، على هذا النحو الأُبهي، فألُ شرٍّ، أبوستولي؟

ـ هاااه. تعرِّش، وتنبسط،.. تأكل المكان. عمود الكهرباء أفضل منها.

ـ وأين الشرّ في شجر يعرِّش، ويأكل المكانَ من الكَرَم الذي في المكان، أبوستولي؟

لا تجري، بالطبع، محاورة متجانسة من هذا النوع بيننا وبينه، بسبب ثغرات في اللغة، لكن إشاراته الواضحة تفصح عن شيء من هذا. ويضرب على أوراق النصيب الملوّنة بظاهر يده: «لم أربح شيئاً مُذ تدلَّت هذه القحبة من سور المرآب».

أعود بي إلى الأمر الذي غفلتُ عن تثبيته، على هذه الطاولة التي يلتمع فوقها غبارٌ رقيق كملحمة يتداخل فيها عويل الأجداد بعويل

الأحفاد، وهو أنني لستُ وحدي، و«جانو»، من يرتادان المقهى، في الساعات الثلاث الميتة، بدءاً من شيخوخة الصباح حتى مشارف الظهيرة، منذ أن أنجزنا بناء المتحف الشبحيُ الضخم، الشبيه بسفينة مائلة، في القاطع الشمالي من العاصمة.

أربعة آخرون، متشابهون في زيّهم الأخضر الأقرب إلى ما يرتديه عمّال التنظيفات. لهم شعور رمادية طويلة حتى أكتافهم. ولكل واحد منهم عصابة جلدية يغطي بها عينه اليمنى، وفي بعض الأحيان يرفعونها فإذا العيون تلك سليمة تماماً، لكنه دَأْبٌ لم يستطع حتى «أپوستولي» النفاذ إلى الحكمة في صيغته. يرفعونها قليلاً ليمسحوا العرق عن أجفانهم، ثم يعيدون العُصابات البُنِّيَّة إلى أماكنها حاجبِيْنَ السِّرَّ الذي للظلام في محاجرهم.

هؤلاء روّاد المقهى، مثلنا. يأتون بعدنا بنصف ساعة، ويغادرون قبل أن نغادر بعشر دقائق. وهم يطلبون السَّمك، أبداً، فيقدّمه «أپوستولي» لهم في الجزء الشاحب، الداخلي، من مملكته. غير أنهم لا يذوقونه. يخرجون تاركين صحونهم ملأى، يرفرف عليها غموضٌ من رائحة الزيت.

أصواتهم غريبة. كلماتهم يونانية، لكنها متلجْلجة، متلاطمة، ومتداخلة، بسبب القاسم الشيطاني الذي لا يوحّدهم بتلك العُصابات على عيونهم اليمنى، بل بحناجرهم المثقوبة أسفل الحراقد، تماماً كالثقوب التي يفتحها الأطباء في النُّقرات لأولئك الذين لا يستطيعون تنفُّساً من أنوفهم المسدودة. وكان الأربعة يحيطون رقابهم بمناديل تنتفخ وتنكمش بحركة تنفُّسهم، لكنهم يضعون أصابع أيديهم على الثغرات المخفيّة إذا تكلموا، ليخرج الكلامُ من الشفاه لا من الثقوب. ومع ذلك تشبه أصواتُهم طنيناً مكتوماً، مصاحباً بكثير من حروف الحلق الجافة، مبتورةً ومصفَّرةً، ومحتدمة كقلقٍ في غير أوانه.

رأيتهم، أوّل مرة، في الظهيرة التي أعقبتْ إطلاقي النارَ على الغريب في قبو مسكني. أعني، أعتقد أنني أطلقت عليه طلقتين من

بندقية «جانو». لم أوجِّه الفوهة إليه، بل إلى المشهد الذي حمله إليَّ ثقيلاً في غنائه المكتوم. لكنني أعرف، بعدما خَمَد كل شيء في ذلك الأفق الفيروزي، أنني قتلته هو.

دخلوا المقهى تباعاً، فيما كنت، ذلك اليوم، جالساً إلى الطاولة البيضاء على الرصيف، وعيناي لا تفارقان عيني سائق الجرّافة التي اقتحمت الخلاء المنبسط تحت أمومة الزيتون. لم أنتبه إلاّ إلى زيّهم الأخضر كأنما شجرةٌ التجأت إلى داخل المقهى. كان ظهري إليهم طوال ساعة. وإذ نهضت لأملأ كأسي، وكأساً لـ «جانو» الذي تأخّر عليّ نصف ساعة، لمحت تلك العُصابات على الأعين، وسمعت حشرجات تنفُّسهم تنفخ نَفْخاً في المناديل التي غطوا بها ثقوب قصباتهم الهوائية.

أحسستُ بحرج إذ ظننتُ أنني أحرجتهم بنظرتي الفضولية، لكنهم كانوا غافلين عن شخص مثلي، يخاطبُ واحدُهم جليسَهُ المقابلَ على المنضدة، بسبَّابة تتجه إلى عينه المكشوفة. وحين رجعت إلى طاولة الرصيف، خارج المقهى، دمدمتُ دون نظرة إلى الخلف: «أرأيت هؤلاء، جانو؟». فأمال صاحبي بعنقه من خلف جذعي، محدّقاً في الفراغ الأبدي لمملكة «أبوستولي» العابقة برائحة القُنَّبيط: «هؤلاء رُسُل المسيح الدجّال، يا رجل»، وقهقه طويلاً، ثم رفع كأسه نخبهم، في حركة ممازحةٍ، دون أن يلتفتوا إليه: «أطال الله أعماركم حتى نرى يأجوج ومأجوج في هذا المقهى».

غير أن الأربعة حين خرجوا تباعاً كما دخلوا، لم يبدُ منهم ما يَشِي أنهم من رُسُل الأساطير: نظروا إليَّ تحديداً، مبتسمين، ثم حيّوني بإيماءات من رؤوسهم المتوَّجة برماد الهيبة الساخرة. وقد أبدى «جانو» استغرابه، أوّل الأمر: «منذ متى تعرفُ هذه الشموس العوراء؟»، وأردف جملته بجواب يخصّ نفسه به: «أنا دلَلْتهم على هذا المكان».

«أنت تعرفهم، إذاً»، قلتُ له، فردّ:

«لا أعرف أنني أعرفهم. ربما».

«كيف دَلَلتهم على مقهى أپوستولي؟»، سألتُه.

«المتاهة يا رجل. لا بدّ من أحدٍ أن يستهدي إليك عن غير قصد، فيما هو ذاهب إلى غيرك»، قال.

«إلى أين تظنّ هؤلاء كانوا ذاهبين، جانو؟»، سألتُه.

«إلى الله». قال «جانو».

وهؤلاء، الذين انعطفت بهم طريقُ «جانو» إلى الله صوب مقهى «أپوستولي»، صاروا، مثلنا، روّاداً يوميين، منذ اليوم الذي أطلقت النار فيه على الأفق الفيروزي، فتحطَّم شكلُ الغريب كما في مرآةٍ، وسكتَ غناؤه الذي حَشْرَجَ رئتيَّ مراراً، كأنني كنتُ أردّد ما يردّده عليَّ ككابوسٍ من الحمّى الباردة.

تسع سنوات، وهؤلاء الأربعة ـ الذين يتجادلون في أمور الصّيد، كما أخبرنا أپوستولي بإشارات كثيرة ـ يحيّونني في المغادرة فقط. يدخلون باردين، ويخرجون فيحيّونني. لكنني، في هذا اليوم الذي تكتمل فيه سنتي العاشرة كضيف على المدينة، وجدتهم لا يغادرون في الوقت المحسوب لمغادرتهم المقهى.

تأخّر «جانو» أكثر مما ينبغي. حان موعد انصرافي، ثم أمهلته ساعة بكاملها، فلم يظهر، فيما بقي الأربعة على جلوسهم في الركن الخلفي من مملكة «أپوستولي».

كانوا صامتين. لاحظت ذلك حين ملأت كأساً ثالثة من شراب الحمّى البلّلورية، الذي تعوّدته في موسكو. وقد تعمَّدت الإطالة في الوقوف لصق البراد ذي الواجهة الزجاجية، حيث يتعمّد أپوستولي أن يكشف قواريره الساحرة في غَزَلها، متمدّدةً طبقاتٍ فوق طبقات، تموجُ بطونُها الزجاجُ من لهاث عُذْرتها.

اتّكأتُ بمرفقي على سطح البراد العالي، ولويت ساقي اليمنى على اليسرى في وقفتي، عازماً على شُرْبِ كأسي الثالثة واقفاً، فيما وجهي كلُّه إلى طاولتهم.

كانت عيونهم المكشوفة مسبلة الأجفان، في إطراقة ثقيلة. «أبوستولي» لاحظ ذلك ايضاً، من مدخل مطبخه الضيق. نظر إليَّ وألوى شفته السفلى ساخراً، ثم غاب في العتمة ليشرف على خضرواته المركومة تحت صنبور الماء الدّافق.

تنحنحتُ. غرفتُ جرعاتٍ من الكأس في تسارُع. تعبت قليلاً فاتّكأتُ على حقويَّ الأيمن بثقلي. ولمّا لم تُجْدِ حركاتي المتطفلة في دفع أيٍّ منهم إلى الخروج عن إطراقته الغامضة، تلفَّتُّ، تلقاءً، عبر زجاج الواجهة إلى حيث المبنى الذي جرى تشييده، في دأبٍ يومي، وسط شجرات الزيتون، فراعني أن العاملين على إنجاز آخر قواعدِ البناء، من دِهانٍ، ونجارةٍ، ونحوهما، قد تجمهروا في فسحة تحيط به، وهم يتبادلون نظرات امتنانٍ على ما فعلوه.

لقد أُنجز المبنى الدائري، الذي لا نوافذ فيه، ولا أبواب: كرةٌ كبيرة، تشطرها في منتصفها، بعلو خمسة أمتار، شرفةٌ دائرية من الجهات كلها، فيما تتصل بها سلالم تصعد من الأرض إلى حواف تلك الشرفة.

لم أنتبه إلى بساطته المفرطة من قبل. لكن، لماذا تسع سنين من مشادات العمال، وعويل جبّالات الإسمنت، وشَرَر مناشير اللّحامين الحديدية في انكبابهم على تقطيع قضبان الفولاذ وصَهْرِ أطرافها، لتغدو شبكةً آسرة من الرسوم على مدار الشرفة الدائرية، وعلى مساند السلالم، التي جرى دَهنُها بدهانٍ فيروزيّ؛ لماذا تسع سنين مختزلةً توقظني، في برهتي الآن، بعدما هدأ الصّخبُ، وتبادلتِ الأقدارُ أنخاباً هادئة قرب الأساسات الحجرية؟

رجل ذو شعر طويل، مرهق قليلاً في قسماته، التفت إليَّ من وسط الجمهرة المُمْتَنَّةِ لذلك الكمال العابث في قسمات المبنى الذي لا يشبه أيَّ مبنى يجاوره. ومن ثم فتح ثغرةً لنفسه بين المناكب المتزاحمة، متجهاً إليَّ من خصاصٍ كبيرٍ بين شجرتي زيتون تكسَّرَ الكثير من أغصانهما بِصَدْمِها الجرّافاتِ الذاهبة الآيبة. ولمّا صار الرجل خارج

الجمع التفتوا إليه، بحركة هادئة مُدَرَّبة، كأنما يحثونه على المضي قبل أن يتردّد، وهم يواجهونني، بدورهم، من ورائه، مشيرين إليَّ إشارات لطيفة يمهّدون تعارفاً، من بعيد، بيني وبين القادم الذي لمحْتُهُ، مراراً، من قبل، يلقي إرشاداتٍ متمهّلة إلى العاملين على البناء، في السنوات التسع من جلوسي إلى مقهى «أبوستولي». وقد أشغلني، لأوّل مرة، مُذ صار خارج سور الزيتون، بالشَبَه البيّن الذي قرَنَ، في ذاكرتي، ملامحَه بملامح الشاعر الكردي «ميلان»، المتلفّع بجُبَّة الفروِ وبسنينه الخمسين المُضاعَفة، في بيتٍ ما من شارع روستينوف الموسكوفي، المسدود شرقاً.

إنهما يشتركان في النظرة اليائسة ذاتها، المحفوفة بظلال من الدّهاء، ولهما الشَّعر الأبيض الطويل ذاته، وهزالُ العارفين المشعُّ بجلالِ نكبةٍ ماضيةٍ أو قادمةٍ.

«هذه الجُبَّة من أختي» يقول لنا «ميلان» في أيام موسكو. «مُبَطَّنَةٌ بصوفِ تسعة خراف في الشهر الرابع من مواليدها. إنها من أختي». وأخته، بحسب روايته الفَكِهَةِ، شيوعية لم تَفُتْها صلاة في الأوقات الخمسة. لا تقرأ إلاّ القرآن، ولها تسعة أبناء، أكبرهم متخرّج من «دار المعلمين». تقطن قرية «هَرَمْ رَشْ»، وتحتفل على طريقتها بانتصار البلاشفة. عندها طبل ذو جلد غير مشدود، صنعه لها حَرَّاثُ حقولٍ نال على جهده المشكور، برغم اللاإتقان الواضح فيه، أربعة جلود إضافية، وسطلين من الملح، ومديتين لهما شفرتان تشطران الشَّعرةَ الآدمية طولياً.

لها طبلُها تقرع عليه بِمِغْرَفة الخشب، التي تحرّك بها الحساءَ في القدور، كل يوم يكون تعدادُه السابعَ عشر من الشهر، أيِّ شهرٍ.

سبعة عشر هو رَقْمُها، الذي لا يوافقها عليه زوجها، ليس من قبيل الاحتجاج على البلشفية ذات الطنين الغامض في مسمعه، بل ضد توقيت التطبيل: هي تقرعه فجراً، وهو يرى أن تؤجل احتفالها إلى الظهيرة.

لم يُثنِها أحدٌ عن احتفالها الشهري، المُحْكَم على رنين الفجر ذي الأوتار المشدودة في قرية «هَرَمْ رَشْ». قويَّةٌ هي في تقواها، لذلك لا يتلفظ الأهلون باسمها إلاّ مصحوباً بصفات الإجلال: «شيوعية أَمدَّها الخُضْرُ بلسانِ العارفين ـ لسانِ البَرَكة».

كانوا لا مبالين بلفظة «الشيوعية» التي يتطيَّر منها الممسوسون بالخشوع لفنائهم. «لا بأس بالشيوعية والله معاً. الشيوعية ليست ضد الصلاة». كرّروا هذه العلامات لأعماقهم، ثم اختَسَبوا طَبْلَ «كُوْتي» مشافهةً من مشافهات الفجر غير المدوَّنة في صحائف السهول حول القرية. لكنْ لم يشترك معها آدميٌّ في جسارةِ حِفْظِ الرقم البلشفيّ المشير بعقاربه الكهرمانية إلى السابع عشر المُطْلَق في حديقة الأرقام.

«إنّه الخُضْرُ يحدِّثُها» يقولون إذا سمعوا الطبل. النَّبيُّ الذي يعبر القرون كالحقول، ويتخذ هيئاتٍ أنيسةً هو «الخُضْرُ». شفيعُ المعوزين، ومَنْ مسَّتِ الخِفَّةُ عقولَهم فصاروا في مقامات مباركة لأنهم لا يعرفون الخداع. يظهر في هذه التخوم أو تلك، ممتحناً ضعفاء الآدميين وأقوياءهم: إنّه القوس الأكبر في دائرة العقل يتلمّسه أهل القرى بأصابع يقينهم، وينحرون على اسمه الأكباش.

هُوَ الحدثُ الغامض في كل شيء، والجسارةُ الأنيسةُ في كل شيء. وطبلُ «كُوْتي»، أخت الشاعر «ميلان»، بعضُ صوته المترجرج ككلام في نفق، لأن الحرَّاث لم يشدَّ الجلدَ جيداً على إطاره الدائري. وارتخَاءُ الجلد في الطبل لا يعين الصدى على استعراض شأنه في خلاءات الأرض، وحَدَباته.

بعضُ سِحْرِ طبلها أنه ليس كالطبول. وسِحْرُها البلشفيّ أن أحداً لا يردّد، مثلها، على نفسه كلمات أشبه بكلمات التناسخ والحلول في رطانتها، وبخاصّة حين تذكر «كُوْتي» أسماءَ روسية، مُحرَّمة جداً، بيقينٍ عارمٍ في أن غموض حروفها المتلاطم هو باعث على السكينة، والأملِ معاً.

الغموضُ أملٌ في سِجلِّ أعماق «كُوْتي»؛ وهو مشعٌّ مشرق، وآسِرٌ في عُرْف أهل «هَرَمْ رَشْ»، لذلك لا يتطاولون على سِرِّ المرأة البلشفية، أخت «ميلان»، ويعتزمون أحياناً أن يدوِّنوا كلماتها المبتورة ـ التي حفظتها على نحوٍ مُحَرَّف من زياراتها لأخيها في بلدته القريبة ـ في رقائق من الكتّانِ الأبيض كتعاويذ.

لم يذكر لي «ميلان»، في لقاءاتي به كل خميس، بلدته القريبة من «هَرَمْ رَش». أعرف البلدات، والقرى، والضياع الصغيرة، والدَّساكر، والمدن، في مدى القوس الطائش الذي يصل دجلة شرقاً بجبال الأكراد غرباً، فأي بلدة يعني «ميلان» انها بلدته؟ لا بأس. يردّد، في عموم من لغته الطريفة، أنه من «الجزيرة السورية»، والكلمة كناية إلى الأرض الواقعة في الصَّقْعِ المشمول بعناية دجلة والخابور، فيما تمتد تخومها الحقيقية إلى مجرى الفرات.

لم أحبَّ شعره الذي كان يلقيه علينا ـ نحن الزائرين الطلبة ـ في منافذ بين دعاباته، وطرائف أحاديثه التي تحمل صدى يأسٍ طريٍّ. لم أحبَّ الشِّعْرَ قط، لذلك لم أحبّ شِعر «ميلان» أيضاً. حفظت بعض الأشعار العربية، تلقيناً، في المدرسة، لا أكثر. أما الشعر الكردي فلم أحظ بسماعه إلاّ عبر أبي، الذي كدَّس في البيت كلّ شِعْر يتصل بالمدائح النبوية مترجمةً إلى اللغة الكردية، المكتوبة بحروف القرآن.

بعض الأشعار كان يتسلل إلى أغاني الأعراس، ولم يجاوز صداه إلى روحي أبعد مما كان يفعله المزمار الحانق على أنغامِهِ نَفْسِها ذاتِ الصرير. وكان «ميلان» يلحظ ذلك فيَّ فيردّها إلى أنني «منحرف عن جادة الشكّ»: «أنت تحبّ اليقين في كلِّ شيء يا آدميُّ. هذا كثير على شاب مثلك».

«وما العيب في ذلك، حتى لو كان ما تقوله صحيحاً؟» أسأله.

«الشكُّ يقرِّبك من الشِّعر»، يردُّ.

«لا أرى مظهراً للشك في شِعرك» أقول له، فيرد ضاحكاً:

الشّعر هو الشكُّ يا آدميّ. ما دمت أكتبه فأنا منهوبٌ بالشّك.

«مناضل مثلك...» أُلَمّحُ إلى اليقين الذي يتصف به حلُمُه في جلوس البشرية إلى منضدة واحدة كالرغيف، يشمُّون عليها رياحَ الفردوس بالتساوي، فيقاطعني:

ـ أُخَفِّفُ الشكَّ عن نفسي بالكلامِ المرفَّه، يا آدميّ؛ كلام الأرستقراطي التائهِ في جبل «قَافْ» التائهِ في مَجرَّة الدنيا.

ظرافةُ «ميلان» كانت تنساق لغواية العبث في لحظات الإشراق تحت بروق البراندي اليوغوسلافي المحموم، فيلفّ بعضِ أوراق قصائده على شكل قمع صغير يتخذه كالكأس، فَمَا يتجرَّعُ بَلْعَتَيْنِ حتى تكون الورقةُ تهرَّأت من البَلَل، فيمضغها كاللّبّان: «هذا خبز الله البيزنطي». لكن المُلفت للنظر، في شقته الصغيرة مثل سطر من سطور شعره، ذلك الحزام المجدول من صوف ملوّن، بطول ثلاثة أمتار، جرى تثبيته إلى الجدار الشرقي، حاوياً جيوباً بعرض اصبعين على امتداده، حتى أنه يبدو شبيهاً بحزام طلقاتِ الفرسان القوقازيين. وفي كل جيب منه حزمة خفيفة من الشَّعر جرى زرعها فيه باتقان، لتبدو أطرافها واضحة للعين المدقِّقة.

هذه كانت حديقة «ميلان» في مخبئه الموسكوفي البارد: أُصص من الصوف، ونباتٌ من الشَّعر. لكنه كان لُغزاً مكشوفاً، لا رباطَ عليه ولا قِفلَ، فكَّ لنا رموزَهُ في الزيارة الثانية: «هذا شَعْرُ نسائيَ زوّدنني به لأتمِّمَ المُعْضلة».

«أية معضلةٍ، تعني؟» سألته.

«كلّ شيء معضلةٌ ناقصة، كما تدري» قال، فقاطعتُ يقينَه المازحَ:

«لا أعرف ذلك»، وأضفتُ ممازحاً بدوري: «ظننتُ كلَّ شيء معضلةً كاملة».

«إسمَعْ» قال لي، ورفع سبابته إلى مستوى خصيتيه يشير إليهما:

ـ هنا مُعْضلةُ الخَلْقِ الناقصة، وأنا أتمِّمُها.

«بِمَ تُتَمِّمُها؟» سألتُه، فردّ:

ـ بهذا الشَّعْر المجزوز من حواف المتاهات، يا آدميّ.

«المتاهات!؟» سألتُه في خِفَّةٍ، فردَّ وهو يلتهم بعينيه الحزامَ المعروضَ على الجدار:

«الفُرُوج. ألا تعرفُها؟»، وأضاف إلى هدوئي جملةً من الكلام تماوجتْ كذيل سنجاب ينزل شجرة صنوبر: «هذا الشَّعر مجزوز من عاناتِ نسائيَ، وأنا مؤتمن عليه لأنني مؤتمن على تعبي».

«مؤتمنٌ على تعبك؟» سألته وقد بدت الجملة غريبة، مفرطة في اختلالها، فأجابني:

«سيل من المنيّ جَرَف هذا الشَّعرَ إلى حديقته فوق جدار البيت. تعبٌ كثير أجْرَى عَرَقي من قذالي حتى مفترق رَدفَيَّ. لهاث يكفي لإنضاج حقلٍ من البرتقال. ألا ترى؟»، وأوهمني أنه يعدُّ الجيوبَ الصغيرةَ في حزام الطلقات القوقازي المعروض على طول الجدار.

شَعر أحمر. شَعر أشقر. شعر خرنوبي. شعر رماديٌّ مموّه. شعر أسود. شعر بنيّ. شعر في ألوان قوس قزح، جزَّه «ميلان» من عانات نسائه، خصلاً صغيرة مسَّدَها بقليل من الزيت والشمع لتَتَجَدِلَ وتلمعَ رؤوسُها الخارجة، كتويجاتٍ، من جيوب الحزام.

في كل استدراج لإمرأة إلى مخدعه المُغطى بكليم افريقيٍّ كان يَحْضُرُ مِقصُّه ذو المقبض المسبوك على هيئة طيرين يتناقرانَ.

مِقصٌّ صغير من نحاس أحمر، مصنوع يدوياً للزينة على الأرجح. أرانيهِ وهو يطقطق بشفرتيه كأنما يجزُّ بعضاً من العانات الخفية الطائرةِ في الهواء: «إنه من سوقٍ في باكو. باعَنيْهِ غلامٌ يحمل مرايا مؤطرة بالنحاس، هامساً إليَّ: لن تندم، أيها السيد. وأنا لستُ نادماً على

شرائه. حَفَفْتُ حدَّيه بالمبرد حتى صارا شفرتين، وأوكلتُ إليه مهمَّته الرّوحية»، قال «ميلان»، الذي يكره العانات المرخية على عواهنها فتُضيِّع معالمَ «الكون».

«الفَرْج صورةُ الكون، يا آدمي» يقول «ميلان». ثمت ترتيب صارم، في عُزفه، يجعل الفَرْجَ تجلّياً من تجليات الكمال المُسْتَقَى من الغامض. «أمرٌ هائلٌ يتفجّر، كوحيٍ مجنونٍ، في كل عِرْقٍ فيك حين يلقي بك الفَرْجُ في غمامته. تعثرُ علىَ نَفْسك وتضيِّعها في البرهة ذاتها يا آدميُّ؛ تَلْمَسُ الأبعدَ الذي في انتظارك على هيئة اليقين. ولأن اليقينَ معجزةُ الغامضِ، لا يغدو خفيّاً أن الفَرْج يقينٌ بدوره، يا آدمي». ويعتصر صدغيه بسبابتيه:

ـ إذا كان اليقين هو الحرية، فالفَرْجُ هو الحرية، إذاً.

ويعدُّ جيوبَ الحزامَ، المُعلّق الى الجدار، بعينيه: «كيف يسمحون لهذه الحرية، المشغولة بيد الحياة على شكل لحمٍ، أن يخفيها الشَّعْر؟»

يريد الفَرْجَ ظاهراً على أتمِّه، ممهوراً بخَتْم البظْر من فوق، ومستنداً إلى قاعدة المِشْفَر الذي يحيط بالمهبل مثل فكرةٍ تصوغُ نشيجَها.

يريد الفَرْجَ متكلّماً بلسانه الظاهر. يريده ظاهراً ليُقَلِّدَ الباطنَ حقيقةَ المَنيِّ كوسامِ شَرَفٍ. يريدُه فَرْجاً يليقُ باسمه المُزَلْزِل، فلماذا قناعُ الشَّعْر؟

يستسلمن لدعابة مِقَصّه. دائماً تبدأ المسألةُ دعابةً: «خصلة شَعْر؟ ما الذي ستفعل بها؟» يسألْنَه في فضولٍ مَرِحٍ، فيما يقرِّب «ميلان» الخصلةَ من الضوء حتى تتوهَّجَ وتلتمعَ، هامساً: «ألا ترين ما أراه؟».

واحدةٌ تمنَّعت عليه. واحدة مُرَصَّعة بكواكب البحر الأسود ـ يقول «ميلان». ارتابتْ من حركته حين أَحضرَ المقصَّ: «أنتم تختنون النساء»، كادت تصرخ، فأقسم لها أن سلالته لا علم لها بختان النساء. وقد

تنازل، أمام ذعرها، إلى الإكتفاء بسؤالها خصلةً من شَعْر رأسها، فتأبّتْ: «ستحرقُها. أنت تحضُر التعازيمَ..». فأقسم لها بأمّه، وأخته، وأعمامه، أنه ـ كمؤمنٍ صالحٍ بخلاصٍ على الأرض أوّلاً، وأخيراً ـ لا يأخذ التعازيم إلاّ على محمل الفكاهة. لكنها غادرتْ، بعدما نال منها ما نالَ، دون هِبَةٍ من الشَّعْر، فاستوقفها في الباب: «انظري» وشمَّر عن عانته، ثم جزَّ بالمقص خصلةً منها، وهي مدهوشة: «ترك فرجُك رطوبةً على عانتي. سأحتفظ، أخيراً، ببركَتِك هذه»، فصفقتِ البابَ من خلفها مصعوقةً.

قهقه «ميلان» حتى اختفى صوتُه، كأنما ليس هو الذي يروي الطُّرْفةَ، بل أحدُنا يرويها عليه.

كان ذلك في اللّقاء الثاني به؛ في اللّقاء بواحد من تلك السلالة الجالسة على حافة كل شيء، منتظرةً إشارةً ما لتقذفَ بنفْسها إلى جهتين في الآن ذاته.

لم أحبَّ شِعْره قط. أحببتُ يأسَه المكتوم. أفي مستطاع أحدٍ أن يحبَّ اليأس؟ أسأل نفسي سؤالَها الغبيَّ، المتأخّر أبداً بعد حدوث الأشياء بآلاف الأمتار من مساحة الأزل.

إذا فعلتُ الأمرَ فذلك يعني، قطعاً، أن أحداً ما فعلَ الأمر ذاته، في فُسحةٍ ممّا يتوارثه الإنسان، لا مِنَ الطباع وحدها، بل من الزمن نفسه: الزمنُ إرثٌ أيضاً. وقد أورثني «ميلان» ـ الذي يسبقُ يقينُه يقيني، وأملُهُ أملي، (بالنظام المُحْكم الذي أورثته القرون طباعَه) ـ أن اليأس هدايةٌ إلى جلالٍ كبير أهمله الوصفُ الذي أوقفه الإنسان، ووحيُه، على تُرَّهاتِ الأملِ وعبوديته.

يأسُرك الأملُ، فيما يحرِّرُك اليأسُ. قد أرى الأمرَ إشكالاً من إشكالات اليقين ذاته. ربما. لا أعرف. لكن «ميلان» ذا الكلمات الذهبية كالفجر الذي يكرّره في شِعره المُثْقَل بالبشرية وخطواتها الصاخبة في دائرة الحروف، أَجْلَسَنِي معه على العتبة التي لم يَبْلُغْها شِعرُه بأقدامه

وأظافره، وأسنانه، وكلاّباته، وسلالمه، ومنجنيقاته التي تقذف الوردَ إلى الفروج الكثيرة للأقدار.

لم يصرِّح، قط، بأيِّ شكٍّ، حتى ظننته مُدَرَّباً، كالجواسيس المحترفين، على دَفْعِ كلِّ شبهةٍ مهما كلّفه الأمر. دماغه مغسول، ضد اليأس، كما يقولون في علوم المذاهب المتناحرة. حركاتُه مغسولة. كلماته مغسولة. ظلّه مغسول. عيناه مغسولتان، وذلك ما لا تقدر إلاّ الآلهة على فعله. ومع كل هذا الحصن الحصين جلستُ إلى يأسه، وجهاً لوجه.

شَكْلُه هو اليأس: هُزالهُ الشَّبَحيُّ في تلك البشرة البيضاء، المجلَّلة بشَعْر أبيض طويل يزيدها غياباً.

ما من عيب في قامته المتوسطة. ما من عيب في ملامحه المتماوجة بإلهامٍ ما بين يوم وآخر. لكنه، ككُتْلَةٍ، كان ذائباً. لروحه دويٌّ خارج جسده، على مدارٍ قريب من التقاء نظري بعباءته الأزلية التي أشمّ منها ثُغاء الخراف.

يموِّه يأسَ شَكْله بعباءته ايضاً. أعرفُ ذلك. يلفّها حوله بإحكامٍ كلما ارتخت حتى لا يندلقَ الإرثُ. يخفي يديه في كُمَّيها. يتدثر بها في استلقائه على جَنْبه فوق الأريكة الوحيدة تحت حزام العانات. ولأنني لم أكن ألتقي به إلاّ ليلاً، فأنا أزعم أن العباءة تلك كانت شريك نهاره أيضاً، تصدمُ حواشيُّها أيدي الجالسين في مقاعد الحافلات حين يَصْعَدُها أو يَنْزِلُها، وتجرفُ أذيالُها، المسوَّرةُ بفتائل من الصّوف المُذهّب، ثلجَ الطرقات، بين مقهى «ستولينكا» ومطعم «غايدولين» ذي الخدمة الذاتية، بوجباته الساخنة الرخيصة.

إلهي، كيف لا يكون يائساً من يحفظ هذا القَدْرَ الكونيَّ من الفكاهات؟. «ميلان» وحش الفكاهات. تنِّينُ الفكاهات. يجرف أحشاءَك بسيلٍ من الضحك حتى يغدو الضحكُ نشيجاً. وأنا أعرف أن تلك هي طريقته في انتحارٍ هزليّ قاسٍ، وطويل أيضاً. أمّا جُمْلَتُه الأثيرة «المكان

شبحٌ» فهي تأكيد خالص إلى ما أذهبُ إليه في شخص هذا الشاعر، المجبول على الهباب الذي تطاير من نَفْخِ الله في الطين العدميّ.

«المكانُ شبحٌ». لا تحديد لعلامةٍ في ميثاقِهِ، هذا، مع الفراغ. كلمتان ترفرفان قليلاً، وتحطّان على سيفين أخضرين انبثقا من أصيص فوق الرفّ العُلويّ لمكتبته الهزيلة: لقد زرعَ نُواتيْ تمرٍ ليعاندَ قَدَر الصقيع في بلادٍ لا ذاكرةَ للنخل فيها.

سَيْفان رقيقان، يزيدان على شبرٍ طولاً. لكنهما سيسقطان ذابلين، مختنقين بما يستنشقانه من رائحة التبغ في الغرفة المغلقة، المحصّنة ضد ريح تجفّف العمارات ذاتها مثل أسماك الرَّنْكَةْ. و«ميلان» سيعود، بالطَبع، إلى زرع نُوى تمرٍ أخرى، في أصيصه الذي ليس إلاّ علبة صفيحية وَصَلَتْهُ من أرض الجزيرة السورية ملأى بدبس الخرّوب.

عنادٌ وصَفَهُ بنفسه في دمدمات من الشِّعر لم أحفظها. لكن الطنينَ، الشبيه بعزف الريح على أسلاك الكهرباء المديدة، في جملة «المكانُ شبحٌ»، ما يزال يؤرِّخ لي سباقي المحمومَ في حفظ الأصوات.

أحفظُ الرنينَ، في ذاكرتي، وليس الكلمات. والرنينُ تأريخٌ للقلق الذي توارَثَتْهُ الكلماتُ في صيرورتها إلى بلاغةٍ تُخْفِق، كلَّ قرنٍ من عمرها، في الحصول على اعترافٍ من المعنى. وها أنا، بعد تسع سنين من إطلاق النار على الشاب الغريب في قبو منزلي، أشمُّ الدويَّ شمّاً، وأتحسَّسُه في أناملي حين تُمسِك بالكأس الباردة على رصيف المقهى، كأنَّ الصوتَ ـ في الممكن الأكثر صخباً فيه، أو الأكثر صمتاً ـ هو مشهدٌ بصريٌّ، يخرج منه رجلٌ يشبه «ميلان» قادماً إليّ من ثغرة في سياج أشجار الزيتون، حيث أُنجزَ المبنى الدائريُّ ككوكبٍ ثابتٍ تدور من حوله معالمُ المكان أحشاءَ متداخلةً إهليلجية.

قد أزعم أن ليلتي الماضية، التي تطلُّ على عامي العاشر في ظهيرة هذا المكان، كانت مضطربة من دويٍّ خافتٍ مسَّ ستارة نافذتي فسمعتُ نبضَ الستارة رذاذاً من هواءٍ مُجْفَلٍ.

دويٌّ خافتٌ، أكثر خفوتاً من أن يُسمع. بعيدٌ، لكنه شامل كأنه يترقرق في مركزِ كل شيء، ولا يتصيّده إلاّ القَلَقُ اليقظان. ولو لم أُحسَّ تململاً في رئات الحيوان، داخل صعيد منازل المهندسين، لظننت أنه خَلَجةٌ من تلفيقِ الظنّ إذا أثقلتِ اليقظةُ على النَّفْس.

كانت الحيوانات تتبادل مجادلاتها العَجْماء، كلٌّ برطانةِ إقليمه الذي ينحدر منه الأسلاف، في هزيع من الليل لم آلَفْها تتخاطبُ فيه. وقد جلستُ في سريري، مائلاً برأسي الى جهة النافذة أُصغي إلى التورية الأولى للنشوء في الصوتِ الذي لم يروَّض بعد ـ صوت الحيوان: إنه دَفْقٌ واحدٌ من اللُّغزِ لا تقطيعَ في إشاراته، أو مشاحناتٍ في النَّبرِ كعهد الآدميّ في تفصيل دخائله تشبيهاً بعد تشبيهٍ، لأنه غير واثق من المعنى الذي يُفَصِّله فيرتابُ فيه فيعيدُ تصويرَه، فيدوِّرُه، فيجزِّئه على مراكز من علاماته الطاحنة، فيقْصِيْه دَفعاً ثم يستعيدُه جَذْباً حتى يقتله.

خصيصةُ صوت الحيوان هي خصيصةُ الخَلْقِ ـ ذلك الصَّفير الرَّخيم الذي جوَّفَ الطينَ من فروجه المعلومة.

نفخةٌ واحدةٌ ـ يقول المحمولون على أملٍ يُسَطِّرُه الغيبُ بأقلامه ـ كوَّرتِ الحُمَى روحاً، وطيَّرتْ لدائنَ العدم المُختَجبة أمشاجاً تكاثفتْ في السِّترِ المرئيِّ للكينونة. حُمَى، وعَدَم: ذَانِ هما أَرَقُ الآدميِّ؛ وفي أَرَقه هذا انكبَّ على ترويض الصفير الأوّل، المُلْغِزِ، عبر إشاراتٍ، وعلاماتٍ، ومجازاتٍ ، وفواصلَ، وتراسيمَ، وإدغام، وتفاريق، وإعجازاتٍ، وسَقْطٍ، وإقْرانٍ، ولَمْزٍ، وتهفيتٍ، وتصريحٍ، وهَذْوٍ. فيما حفظ الحيوانُ بَوْحَ النَّفْخِ الأوّل في توريته الكبيرة، يستعيدُهُ بصوتٍ منسرحٍ يقولُ انفعالَه دفعةً واحدة، ضربةً واحدةً، بياناً واحداً عالي النبرة أو منخفض النبرة، متشابهاً في تواتُره من دمٍ إلى دم، عبر قرون تُختَسَبُ بزمنٍ غير مُنْجَزٍ.

صوت الحيوان هو المعرفة الكُلّيّة مختزلةً إلى عَجْمَةٍ تؤرّق الإنسان الباحث عن براهين اكثر تَرَفاً على أَلَمه الصغير. وقد سمعتُ، تلك الليلة، مخاطباتٍ كُلِّيَّة أَعجزُ عن تجزئتها إلى معانٍ، لأنها كانت ـ على

الأرجح - مجلوَّةً بالبدء الذي لم يصِرْ معنى بعد.

من كل منزل صَعَدَ خَفْقٌ من اللون المسموع. تناقرت التسابيحُ كما يتناقر السنونو طائراً، ومن ثم نقَّلَ السكونُ الخاشعُ بَيْدَقَهُ إلى رقعة أخرى، تحت بصر الحديقة المُنتهبَة بشجرِ الصنوبر، والممراتِ الخفيفةِ المدوَّنةِ بين مشاتل الزهر بحبرٍ كحبرِ الأيقونات.

رافقَ الصوتَ صخبٌ أيضاً. نهضت أشباح الحيوانات في الزرائب الجميلة، المُتْرَفة، الملحقة بمنازل المهندسين. أزعم ذلك، لكنني لم أرها تنهض، وأنا جالس على سريري لا تكاد عيناي ترقيان أكثرَ من عتبة النافذة. وقد دار كل حيوان على نفسه، في مكمنه المظلم الذي تخترقه سيوف رقيقة سَلَّتْها مصابيحُ الساحةِ الدائريةِ إجلالاً للظلام في عبوره المديد.

استقمْتُ على ركبتيّ فوق السرير، فجاوزتْ عيناي عتبةَ النافذة إلى الخلاء الشاحب للساحة: لا ضوء يرشح من نوافذ المنازل. الكلّ نائم، إذاً، ولم يفق إلاّيَ على الدّويّ السارحِ، خافتاً، في الأشكال.

شجرات الصنوبر استَنْفَرتْ، أيضاً، مِجَسّاتها الوبرية الشعثاء في ذلك الرحم الدائريّ. لم أرها، بل سمعت طقطقاتِ الغصون وهي تتمدّد في أثيرٍ من روحِ النبات. وأظنّها كانت مثلي على فضولٍ مِنَ الذي أقلقَ الحيوانَ في زرائبه، التي لن يغفر المهندسون لأحد إذا سمّاها زرائبَ.

كلّ مهندسٍ كان يتبارى في تفخيم مسكن حيواناته. وأنا إذْ أسمّي مساكنَ الحيوانات زرائبَ، في مُجَّمع المهندسين، فإنّما أحطّ من شأنها دون قصد، لأنها، بحقٍّ، أكثر رفاهاً من منازل المهندسين ذاتها، الذين يتبارون في إضفاء السحر على ممالكهم الأعجمية، فيسوّرونها بسياجات من المعدن والنبات المعرَّش، ويجعلون لكل حيوان لوناً من الإضاءة لا تزعجه في الليل بخفوتها، بعد دَرْسٍ وافرٍ من النفسانيين في علوم الشقيقِ الأكبر للإنسان؛ وينحتون على مداخلها فَسَاقيَ من الجصّ الصَّلد تنبثق منها نوافير خفيفة من الماء هَمْساً. كما يرفعون على جدرانها

الداخلية رفوفاً عليها أبواب من الزجاج، حيث يحفظون طعام الحيوان في أكياس لا تخرقها الرطوبةُ أو البلل. وهم يقرأون، على مقاعد خشبية لصق الجدران الداخلية للزرائب، كتبهم في الخلْوات. ويكادون ينقلون إليها موائد طعامهم أيضاً لِمَا يحسُّون من أُنسٍ فيها، لكن إدارة المُجمَّع تحظّر ذلك. كما تُحظَر المبيت في المسكن المخصص للحيوان، حتى لا ينقل الإنسان إليه الرّبو، والرطانة التي يتخاطب بها في نومه، بصوتٍ عالٍ، ككائن مكشوفٍ لأرَقهِ حتى لو كان نائماً.

لديَّ حيوانان ايضاً، في القبة الملاصقة لجدار المنزل جنوباً. أطلقا، بدورهما، نفثاتٍ مكتومة، ثم خمَّشا الجدار، دون صرير، بمخالبهما يوقظانني، فدققْتُ براحتي على الإسمنت أبلِّغهما: «لقد سمعتُ الدَّويَّ. أنا يقظان مثلكما»، فتوقّفا عن خَمْشِ الجدار، لكن نفثات رئتيهما كانت تكملُ المجادلات مع رئاتِ الحيوانات الأخرى.

في الصباح سألت «جانو» عن الدّويّ فرفع كتفيه على سخرية: «أحدُهم فضّ إحداهن بإحيلِ وحيدِ القَرْن». وقد سألت المهندس الباكستاني، أيضاً، فنفى أنه سمع شيئاً من هذا. وها أنا أحسُّ ذلك الدّويَّ أكثر التصاقاً بعظامي، مثل دغدغة لا تستطيع تحديد مكمنها تحت جلدك، في اللحظة التي يقترب فيها مني الرجلُ القادم من سياج شجرات الزيتون، بعينين فيهما بلاغ رقراقٌ، ودعوةٌ، أو نداءٌ زادَهُ غموضاً أن العاملين كانوا يتطلعون إليَّ، بدورهم، من جمهرتهم المتَّحدة في ظل المبنى الدائري، بإشارات فصيحة تدلُّ عليَّ أن أستقبلَ الرجلَ، كأنما هو رسولهم إلى تعارُفٍ لا يمكن تفاديه.

لم أعرف ما الذي يليق بي أن أفعله تلك اللحظة، بعدما صار الرجل على أمتار قليلة مني، وهو يجتاز الشارع على مَهَلٍ رصينٍ، وأنيسٍ في الآن ذاته. أبعدْتُ الطاولة عني قليلاً حتى أحرّر ساقيّ الممدّدتين فأنهضَ في خِفَّة إذا شاء الرجل أن يصافحني. مسحت يدي المبتلّة بالحَبَاب البارد على جدران الكأس التي يغتلي الثلج في شرابها، وتنحنحتُ لأستعيدَ صوتي الذي لم أجرّبه منذ الصباح. لكن، حين وطأ

الرجل ذو الشعر الرماديّ الطويل عتبةَ رصيف المقهى، برز «جانو»، فجاءةً، من وراء الستارة المُخطَّطة، التي تفصل الحدَّ الشرقي للمقهى عن دكان البقالة، متجهاً في تعبٍ صارخ إلى الطاولة كأنما سيرتمي عليها.

لم يلتفت «جانو» إلى الرجل القادم صوبي. سحب كرسياً ثم اتّكأ عليه. حدّق فيَّ بعينين شاردتين لا أثر لسخريته المعتادة في مَعْقليهما الطافيين على سيل بعيد، وغمغم بصوتٍ خارجٍ من أحشائه الباردة: «لقد انهار المُتْحف».

جلس على الكرسي بعد جملته العاصفة برهة لا تزيد على رمْشَةِ عين، ثم نهض مدفوعاً بسهم الجمر في مكان ما من رئتيه، ملتفتاً حوله يتوسَّلُ الغبارَ أن يوقظه من فداحةِ ما هو فيه، مُتمتماً: «انهارَ المتحفُ، يا رجل».

٢ ـــ الكُليُّ ومطابقاتُه: غوايةُ «التأسيس الكبير»

ثلاثة وأربعون سنتيمتراً طولاً، واثنان وعشرون عَرْضاً، ذلك هو الكتاب المحفوظ في جيبٍ حافظٍ من جلد الجاموس، له حزام يُلَفُّ به صوناً من فضول الغبار ورُسُل الزمن ـ العثّ، والأَرَضَةِ، وهُذبيات الذَّنَبِ المفتونة بأَخْلاط الحبر إذا تقادَمَ. وإزادةً مني في الحرص كنتُ أنثُر في الجيب الجلديِّ الكبير ذَرُوراً من النشادر، ودقيقاً من ثمار فُساء الذّئب الشبيهة بتمرٍ أجوفَ جافٍّ، وأُعرِّض الكتابَ ذاته، كل مساء، للدُّخان بأنواعه، سواء أأحرقتُ قماشاً، أم حفنَة تبغ طريٍّ في إبريق صغير من التوتياء تفحَّمتْ جنباتُه.

كان الكتاب ذا غلاف من لحاء الشربين، رُقِّقَ بمهارةٍ، ثم نُقِعَ في محلولٍ من حِبْرِ فُطْر الغراب الأصفر، وصَمغ الطَّلْح، وحُفِظ في رماد عظام الماعز تسعين يوماً، في مكان رطب. وقد خِيْطَ الغلافُ إلى الورق البنيِّ المرصوص بخيوط من أحشاء السُّلّور سُقيَ ملحاً كثيراً في شرابه، شهراً، قبل نَحرِه لإتخاذ عَصَبهِ سيُوراً لا تَبْلى. أمّا الكتابة فقد جرى تحبيرُها بمزيج من رمادِ نبتَةِ السَّلْجَم والإثْمَدِ، وجُعِلَتِ السطورُ دائريةً في المتن، والحواشي مبثوثة أفقياً على يمين المتن وشماله. وفيه رسوم لقناطر تستند أصولُها على رؤوس طيور، وزوايا مجسَّمة مقعَّرة، وزوايا منعدِمَة، كلُّها بحبرٍ أحمرَ يُرجَّح أنه من دم الضّبِّ الشحيح الثخين رُفِدَ بعُصارة الكَرَفس المغلي على حَطبٍ من نخل القُنّب.

بُهِتَتِ الحروفُ وغارتْ في الفضاء الأصفر للأوراق، ممّا اضطرني إلى تحبيرها من جديد بأناةٍ كأناة مُرَمِّمي التاريخ العالق بعظام الماموث. بيد أن الرسوم بقيت على ألقها الأحمر، المشوب بغموضٍ شاحب، في المخطوط المعروض على جدار بيتي، بحمّالتين جلديتين ترفعان الجيبَ الجلديَ الحافظَ إلى مسمارين من الفولاذ.

هكذا أردتُ الكتاب جليّاً في محطّة نظري الأولى، على الجدار

الخالي من أي رفٍّ، أو رَسْم، أو طلاء متقشّر كما هي حال الجدران الأخرى في منزلنا، شمال بَلدة «عَيْنْ دِيْوَارْ» ذات الينابيع، المظلَّلة بامتداداتٍ من جبل طوروس بسفحه التركيِّ القابض على حزام طويل من حدود سورية، التي تنتهي عند الأفق الغربي لدجلة.

ارتاب إمام المسجد «عُمَر بالو» في أمر المخطوط المركون إلى التجويف الطيني العريض في جدار لصقَ المحراب، وسط مصاحف كثيرةٍ خَلقَةٍ وجديدةٍ تبرَّعَ بها الأتقياء في مناسباتِ تجديد العهد بينهم وبين الله، دَوْرياً. وكان «عُمَر»، هذا، شاباً في العقد الثالث، ورث الإمامةَ من أبيه الذي ورثها من جدّه. حفظ القرآن غيباً دون كتابة أو قراءة. وحفظ خطبتين يتيمتين كرَّرهما أبوه على مسامعه عشرين عاماً، خلطَ فيها الكردية بالتركيةِ بالعربية، بتمتماتٍ صوتية كأوراد الشفاعاتِ على ألسنة الفُرْس.

كان يقرأ خطبتيه، كل جمعة، مغمض العينين حتى لا تشردَ ذاكرته إذا شردت عيناه لأمرٍ ما. يبقيهما في المحراب المغلق على صوت أعماقه. يُبْقي عينيه بعيدتين عن متاهة الرؤية المدوَّخة في قسماتِ النَّفَر القليل، الجالسين على زرابياتٍ خاشعة لها رائحة الحُمَّيْضِ النَّهريّ مذ حطَّت أساساتُ المسجِدِ الرقيقة على نَهْرٍ قرب النَّبع، ليصير الوضوء في مائه أقلَّ مشقَّة مما كان عليه في عهد أبيه، الذي رفض نقل المسجد اللَّبِنيّ المستطيل من المَنْبَتِ الخفيض لسفح الجبل إلى وسط البلدة، أو جوارها الشرقي حيث النبع. «بُعْدُ الشُّقَّة أجرٌ للمؤمن. عناؤه أجرٌ» كان يُردِّد أبوه كلمات أبيه، أيْ جدِّ «عمر». لكن الإمام الشاب، الذي يرتدي قفطاناً فوق البنطال، أفتى بنقل المسجد لتسهيل ارتياده على الشيوخ في البرد، فأُنجِزَ المبنى اللَّبِنيّ الجديد في شهر واحد، وطُليَ بدهان أخضر من داخل وخارج، عدا المحراب الذي اصْطُفِيَ له اللونُ الأزرق الفاتر. وزوِّد بمنبر خشبيٍّ ينتهي في قمته إلى كرسيٍّ من الزَّان حُفرت على مَسْنَدَيْهِ آية الكرسي، وزُيِّنَ لوحُ ظهره بسيفين بينهما اسم الله ولقب الجلالة.

حين نُقِلَ أثاث المسجد القديم، من حُصُرٍ، وزرابيات، وسجّاد، سِيقَتْ، مع الأثاث، المصاحفُ على محفَّة حملها أربعة رجال، وبينها كان «التأسيس الكبير»، الأكثر ضخامة في حجمه.

كان الكثيرون من مُتِمِّيْ المسجد يتداولونه، منذ عهد جد «عمر»، وإذ يقلِّبون أوراقه على اعتقادٍ من أنه مصحفٌ يردُّونه، من ثَمَّ، متحيرين من فحواه الغامض، وخطوطه المدَوَّرة على رسومٍ ظنّوها من رسوم الحجاب أو نحوه من ما يتخذه المتطيرون تعاويذَ ورُقىً. لكنهم لم يسألوا أنفسَهم فيه، وبخاصّةٍ أن كُتباً كذاك كانت تحفل بها التكيَّات، والأرْفُفُ الجانبية في منابر مساجد أُخرى تؤخذ عنها الرسوم المُلْغِزَة للشّفاء، وَرَدُّ الحَسَدِ، ودرْءِ السوء، والاستعانة بِسَهرِ الخير وخلائقه الخفيِّيْن، المُنجِديْن، على روح المرء الطاهرةِ مخافةَ الإغواء. وقد تنبَّه إليه الإمام «عمر»، بتبليغ من دارسٍ قرأ القرآن في «أورفة»، بتركيا، قبل نزوله بأنحاء «عين ديوار».

قال الدّارس الشيخ للإمام: «هذا كتاب من علوم الإنس تحفظونه، في المسجد، إلى جوار كتاب الله. أفي ذلك نفعٌ؟»، فاستغرب «عمر» الأمر: «أليس مصحفاً، أو مُصَنَّفاً من تصانيف الحديث؟»، فأدرك الرجلُ جهلَ الإمام بالقراءة، لكنه تغاضى:

- بل هوَ من كُتُب الحِجاب، وصناعة الأقفال الخفيَّة، لا يليقُ به أن يجاور كتاب الله.

وقد عَزَله «عمر» من فوره. وضعه تحت سلَّة التَّمر الكبيرة، تلك الثمرة التي يتبارك المصلّون بحباتٍ منها بعد أداء الصلاة، ويردّونها بعدئذٍ أكياساً لأمر المسجد. بيد أن إقامة الكِتاب لم تدم طويلاً تحت الرَّحيق المُبارَك للسَّلة، فقدَّمه «عمر» إليَّ مذ رآني نجيباً في شؤون الدنيا (بحسب ما حدَّثه أبي عني)، أقتني كتباً في التاريخ لا أساطير فيها، وبي مَيْل إلى مجاهل الفيزياء اللامحدودة في رقعه «عين ديوار» الصغيرة، النائمة على الوتر الأوسط الذي يُعْزَفُ عليه ثَقيلُ خفيفٍ بالبِنْصِر، كما يقول الأصفهانيُّ - مُؤَرِّخُ الأصواتِ وَصْفَاً.

هي بلدة تشبه آلة العود، على أية حال. وفيها ثلاثة ينابيع رقيقة كأوتار غير مشدودة، أكثرُها ادِّفاقاً هو نبع المسجد، الذي استُعِيْضَ عن الأباريق فيه برؤوس ضخمة من اليقطين المجوَّف تُمْلأُ ماءً. ولليقطين، ذاك، استطالات هي منشأُ الثمرة في اتّصالها بسوق النبات المعرّش، فيربطونها بحبال من قنَّبٍ غير غليظ، مربوطة إلى أوتاد قوية على محيط النبع، فيُدَلّي مُيَمِّمُو المسجد كُراتِ اليقطين في الماء حتى تمتلىء، ثم يسحبونها بالحبال فيتوضّأون. ولم يكن للمسجد مرحاض، أو خلاءٌ في البَطِح القريب يُتَّخَذُ ستاراً، لذلك كان على المصلين أن يأتوا طاهرين من الجَنَابة الصُّغرى.

كلُّ خَبرٍ آخر سَقَطَ في سردي: لقد وصلني الكتاب على حالٍ كأنّه لم يُمسَّ. وأدهشني أكثر أنه مخطوطٌ أصلٌ بأحباره التي أكاد أشمُّها، برغم الجفاف الذي قلَّبَ الزمنُ بيده الخفيةِ أوراقَهُ المتَّسِعَةَ فضاءاتٍ على الرسوم، والسطورِ الدَّوائرِ على مراكز ممهورة بختم صغير، بيضاوي الشكل، يتوسَّطه اسمُ مؤَلِّفه «الماردِيني»، وإلى جانبه رقم الصفحة باللاّتينية.

«أبو المُغضِل أويس الماردِيني» هو اسمه كاملاً في حواشي الكتاب وفي توطئته، فيما اكتُفي بوضع عنوان الكتاب على الغلاف الخشن بطريقة الضَّغط: «التأسيس الكبير»، وحُبِّرَ عنوانه الفرعي، من تحت الكلمتين الكبيرتين، في سطرين: «الأجرامُ والمَرَاتبُ: أخبارُ الظلِّ في النَّحْوِ المنسيّ، والمشافهاتُ المدوَّنةُ من فِقْهِ المِعْمَاريَّة».

قلَّبت صفحاته سريعاً حين مدَّه أبي إليّ. سُررتُ به كمخطوط أوّلاً، فأركنتُه رُكناً بين كتب التاريخ المجلَّدة بقماش ثخين، في رفٍّ محفورٍ، عَرْضاً، في الحائط نفسه. لكنني، حين عدت إليه بعد أيام، أتمعَّن فيه، ممتحناً قيمةَ خَبَرِه وشأوَ معانيه، زُلْزِلَ شيءٌ فيَّ فمسَّتِ الحمَّى الخفيةُ يقظةَ قلبي.

كان في مُفْتَتَحِ التدوير في السطر الأول منه فخٌّ على شكل ثلاث كلمات: «القوسُ محنةُ الهندسة». وقد تكرّرت الجُملة، دوائرَ دوائرَ

حتى المركز. واقتضى مني اللحاقُ بها أن أدوِّرَ الكتاب بين يديَّ (فهو هكذا يُقْرَأُ بسبب السطور الدائرية فيه) حتى رَعَشَتْ عيناي، واقتُنِص فُضولي، فانجذبتْ سريرتي إلى سريرةِ الختم البَيْضيِّ.

لماذا يكون «القوسُ محنةَ الهندسة»؟ الدوائرُ التي هي أمُّ القوس، والزوايا، والفضاءات المتناظرة، والخطوط المستقيمة، المتقاطعة، أو المتوازية، أو المُطْلَقة في تقديرٍ وهميٍّ، هي ـ كلُّها مجتمعةً ـ عقلُ الهندسة وعيناها الرَّائيتان. فأية محنة يمكن أن ننسبها إلى أساسٍ من أساساتها؟ وسَعْيِيَ إلى فهم مراد «الماردينى» قادني، من ثم، إلى مصير مثخنٍ بثلوج موسكو، بحثاً عن علوم الزوايا القوسية، علني أجدُ نَذيرَ الرجلِ المذعور، الذي رماني بمخطوطه من فراغٍ ما.

كان المؤلف يسترسل، مذعوراً باعتقادي، باباً بعد آخر، في تحميل القوس ما لا تحتمله الأساطير، مقسّماً كتابه إلى بحثين في السياق المتَّصل لمذهبه: «كيف تبني مدينةً في فاصل بين البصر والصوت»، و«القبر: فراغُ المستقيم والبناءُ فيه». وهو، فيما أفرد لبحثه الأول سبع صفحات، آثرَ البحثَ الثاني بمائتين، في صخب هائل من اعتراضاته على تحميل القوس أيَّ ثِقْلٍ في العمارة، كأنما يذهب إلى إلغائه في جدالٍ طاحن مع وساوسه التي ألقتْ بي إلى وساوسي ذاتها.

بحثُ المدينة، في «التأسيس الكبير» بسيطٌ، مُسْندٌ إلى تصنيف من الحِكَم الخشنة، والأشعار، وخَبالاتٍ مِمّا يدوِّنها طلاَّبُ الطرائف في تآليفهم:

الناس قرائن وشُفعاء. وأوّل ركن في بناء المدينة أن يحسن المرءُ تصنيف نفسه إلى أصلين: الحيلةِ والأملِ. ففي الحيلة، كما يقول الماردينى، نجاةُ الفكر، وفي الأملِ العمرانُ. والإنسان منجذب بينهما بتوازن العنكبوت.

ولا تستقيم مدينة، يقول الماردينى، إذا لم يظهر حانوت لزجَّاج يُثْقِبُ الياقوت بخبرةِ تِسْعِ أجدادٍ توارثوا كيمياءَ الصَّنعة. وهو ينسب إلى

«القِيداحِ» (أوّل جدّ خَرَقَ الماسَ ونَضَدَه في عقدٍ أُهدي إلى بَرْذَان الكاماني، في أصقاع بحيرة «وانْ») وَصْفةً نَقَلَها تواتراً عن شيخ من دجلة؛ يقول «التأسيس الكبير»: تكون الماسةُ على شفرةٍ من الظلّ، تصيبُ الشمسُ نصفَها فحسب. يعلوها قُمْع دقيق الصنعة من نحاسٍ في أخلاطه ذهبٌ، ثابت على ركائز يدارُ فيه سائلٌ قطرةً قطرة فينفذ من عنق القمع إلى الخيط الذي يشطر الماسة نصفين في الظل وفي الضوء. والسائل، ذاك، يقول الماردينيّ عن رواةٍ، هو لعاب الذباب وَوَنيمُهُ، جُمع من سطح زجاج مستوٍ نُثِر عليه دقيقٌ من السُكّر في ظهيرةٍ قيظٍ. ثم انتُهِرَ الذبابُ بعد دقيقة واحدة من عَرْضِ المأدبة عليه، فاستُخْلِص كَشْطاً بشفرةٍ من شفرات الحجّامين، (أي جُمِعَ السُكّر بما عليه من لعابٍ ونيم)، فخولِطَ بمقدار ضئيل من الماء، وأُحْرِق في إنبيق على نار حتى صار لزجاً، فأضيف إليه دقيقٌ من طحالب الصخر الأزرق؛ وجرى تجفيف العجين الدّبق عشرة أيام على سطح صفيح، ثم كُشِطَ وخُلِط الرَّاسبُ بخلِّ السفرجل، ثم أُخِذَ السائلُ القليلَ في كُشتبانٍ لتجري إسالتُهُ في القُمع الدقيق قطرةً قطرة، فما تلمسُ القطرةُ الماسةَ حتى تغور فيها فتنثَقِبُ كأنها عجينُ الفالوذج.

ما لا يجري فيه عِلْم كهذا لا يصيرُ مدينةً ـ يؤكّد الماردينيّ في صفائحه. ويتطرّفُ فيصف البناءَ على أقواسٍ أنه متوالياتُ اللانهاية، وصيرورةُ الظاهرِ خفياً، والمعلومِ مجهولاً، ممّا لا يصلح لعمارة المدينة التي هي الظاهرُ كلّياً، غيرُ المحجوب بجزءٍ أو جرثومةٍ في أساسه، مستنداً إلى محاججات لـ «الميناثي» السرياني، في تُرْجُمانِهِ عن اللاتينية القديمة «أهوال الفجر»؛ كأنْ يقتبسَ عنه: «ساكنو القباب محجوبون بحجاب القوس، تؤول العمارة بهم إلى فراغ كالفَلَك، ويتيه البنيانُ في سرابه المتناظر، فتفسدُ أرومتُه ويتضعضعُ الأساسُ على قَلَقٍ هو جرثومةُ القوس».

ويتأسى «الماردينيّ» على ما لحق بهذا التصنيف (أعني «أهوال الفجر»)، الذي لم يرِدْ ذِكره في تآليف الأقدمين أو المحدثين، فيتّهم

العامَّة بإتلاف الأصل بعد نقله مُصَحَّفاً في ثلاث مدن هي نيسابور، وبَذلِيْس، وعفرون. فإذا الأبواب المعقودة على «الجماد» تصير «الجماع» (أي: النكاح)، وأبواب «السُّكْنى» تصير «المجاهل»، إلى آخر ذلك مما لا نفع في إيراده. وممّا يؤثِرُ «المارديني» نَقْلَه عن «أهوال الفجر» قول مؤلّفه: «لا يصلح للسُّكْنى إلاّ الظاهرُ». وعلى أساسٍ غير واضح يبني «الماردينيّ»، في قراءته «أهوال الفجر»، أن «القوس باطنٌ»، لذلك لا يصلح للسُّكْنى. ويستعير منه: «القوسُ ثباتٌ، يخالفُ المشيئةَ». ففي زعمه أن التدوير في الهندسة، كمحاكاةٍ للمكان، يفضي إلى عبثٍ في استقصاء المركز بجهاته، وتعريفه بعد تعريف جهاته، فيما امتدادُ النَّسَقِ البنيانيّ، مستقيماً بلا معارجَ، هو فَضْلُ النشأةِ ويقينُها: «يبدأ الخلقُ من الله جماداً، وينتهي إلى خلافه» ـ هكذا يسطِّر الماردينيُّ حاشيةً في صحائفه.

«المكانُ نسَّاءٌ؛ ذاكرتُهُ هي الأثيرُ، وحده» يقول «التأسيس الكبير»، ويفيض في شَرْحِ أن تتطاول الأعمدةُ، وتستقيمَ الجدرانُ، وتُسْتَنْبَتَ الحدائقُ في أجرانِ الحجرِ الكبيرة: العمودُ ذاكرةُ الفضاء. الجدارُ ذاكرةُ الأفق. الحديقةُ ذاكرة التراب.

في سَبَأ أُرِيْدَ البِناءُ بلا ذاكرة، كالنّور بلا ذاكرة لأنه غير موثوقٍ: قام كلُّ شيءٍ على زجاجٍ شفيف. الأعمدةُ، السقوفُ، الأساسات، السُّتُرُ، المَجَالسُ، الطيلسانات، السُّرُجُ، قنواتُ المياه في مجاريها بين حمّامات بلقيس وساحات عامّتها. كلّ شيء زجاج في سَبَأ (يقول المارديني)، والزجاج من وُصَفَاءِ النور لا ذاكرةَ له، فذهبتْ سبأُ ولُفِّقتْ من حولها الأخبار، ثم صُحفَتْ فكان ما كان من نَسَب أخبار أرض «قونية» إلى أرض الصحراء العربية، وجُمِعَ المِثال من نساء «كريْت» إلى المثال من نساء «عَدَن»، فَحُفِظتِ الحكاياتُ على عاهِنَةِ رُوَاتِها ـ يقول المارديني، وانقلبتِ الأرض بِمجَنِّها.

وفي بحثه المتَّصل بتحقيق المدينة يقول «المارديني» أنْ لا يكون جسرٌ لا تكونُ مدينةٌ. الجسرُ هيئةُ الطبيعة إذا خلعتِ الطبيعةُ حجابَها،

وبه تتّصل ضفافُ الظاهر المنفصل. ويروي: رفعنا جسراً على دجلة بتصاميم رأيتُ أن نثبّتَ في الماء ستةَ عَمَدٍ، وأربعةً ـ اثنين على كل ضَفَّة. فَهَالَ البعضَ ما رأيتُ من شأنِ العَمَد. قالوا: أربعةُ عَمَدٍ على الضفتين تكفي، وهيكلُ الجسر أنْفَعُ فيه الحبالُ والعوارضُ الخشبُ، ورَضَفَاتُ الحديد؛ فاسْتَسْخَفْتُ هولَهم، وحشدتُ الغطّاسين، كلَّ أربعةٍ بلوحٍ من الحجر أكبر من قبر ذي القرنين الإسكندر، وجعلت في أعناقهم أجْرِبةً ملأى بالحصى تعينهم على الجلوس في قاع النهر، فلا يطفون إلى سطحه إلاّ إذا سحبناهم، فنحدّد بذلك ما يتوجّب على واحدهم المكوث لإثبات الألواح. ولو تركتُ لهم مواقيتَ الغوص لما جشَّموا أنفسَهم البقاءَ خُلْسةً من الوقت، فكان لي ما ذهبتُ إليه عشرةَ أعمدةٍ كاملةً، فيما قضى سبعةٌ من الغطاسين عُوِّض عليهم في عيالهم فما عرفتُ أتبكي نساؤهم من حَزَنِ الفَقْدِ أم من فرح ما أُجْزِل لهنَّ عِوَضاً. وجِسْريَ، هذا، فيه موازناتٌ من حساب «الجُنْدُقِ الآذريِّ»، و«أَخْماليذُسْ» الفلكيّ.

فمِنَ «الآذري» أخذتُ تدويناته الفجرية، في كتابه «شَمْل العطّارين»؛ وما كان يدوّنه فجراً أَسْلَمُ عاقبةً في الأخذ ممّا يدوّنه آناءَ الليل في سُكْرِه المتَّصل. وقد فطن بنفسه إلى أمره فجعل كتابه في جانبين، يُقرأ تدوينُ الفجر منهما من يمين الصحائف، أما تدوين الليل فيقرأ من خاتمته في اتجاه داخله، ككُتب أهل اليونان والروم. فما وجدت بالعربية أغرب من ذلك. ومن طرائف تدويناتِ الليل أنه يزعم أن جدَّ أبيه أقام جسراً على نهر «جيحون»، بقناطر لا سندَ لها من الأعمدة ترفعُها عن الأرض؛ معلَّقةٍ إلى الهواء الثقيل الذي هو زفراتُ يأجوج ومأجوج خلف سور الله. وتحت كل قنطرة تمثال يتدلى من شَعْره أسماها «مراقي الشهوة» من اليمين إلى اليسار، في تسع فراغات فوق المياه دلَّ عليها بسهم من حبر مرارةِ الحِرْذَوْن، ذيَّله بكلمتين: «نظائر المُشْكِل». ولقوسِ كُلِّ قنطرة، عِندِه، اسمٌ، تَثْخَنُ الشهوةُ فيه أو تشفُّ. ويزعم أن لظلِّ كلِّ قنطرة ينعكس على المياه ما يعادلُهُ من نَفَقٍ تحته، في باطن الأرض الذي يلي قعر النهر، وفي الأنفاق خَلْقٌ من

العطّارين يجلسون إلى حوانيتهم لا يبيعون ولا يشترون، منكبّيْنَ على صحائف يُحَبِّرون فيها أحوالَ المنجنيقات، وانقلاب الدّول.

في تدوين الفجر يكون «الآذريّ» أقرب إلى طبيعة المعماريّ. وقد ذكر أن أعمدةَ جسرٍ فوق المياه تتأسّس بغوّاصيْنَ في أفواههم قصب طويل يعلو المياه، لا يخرجون إلى الضفاف إلاّ غرقى يحفظون سرَّ بقاءِ الأعمدة ثابتةً دون أن تمسّ القاع، كأنما فراغٌ قليل من الماء بين أسافلها وبين الطين، جرى حسابُهُ بعلوم تَخفى على البنّائين، هو الذي يوازنُ الثِّقَلَ ويسندُهُ فلا تغور الأعمدةُ ولا تطفو. ولا يميل الجسر أو يهتز.

«الثابتُ في الجُسُور هو ما لا يقوم على شيء» يقول «الآذريُّ» في رواية صاحب «التأسيس الكبير»، الذي أخذ عنه مذهبَهُ هذا، وخالطَهُ بعلومٍ أجراها «أخماليذُس» الفلكيّ في تصنيفه المُعْجِب تحت اسم «السُّلُوقيّان»، وهو برج في دائرة «الدبّ الأكبر»، منجذبٌ إليها وهاربٌ منها، لذلك سُمّي على اسم الكلب السلوقيّ الصيّادِ لا لنَفْسِه بل لغيرهِ؛ القويّ في الركض لكن لا يهرب من مالكه حتى لو جوّعه، لا عن وفاءٍ كسائر أقرانه من كلاب الحاضرة والقُرى، والضّباع والدّساكر، بل لِفَرَقٍ يغشاه إذا استوحدَ، حتى أن من أسمائِهِ (بحسب الآذريّ، دون سندٍ من المَعَاجم) الفاروقَةُ؛ أيْ: شديد الفَزَع.

يرى «أخماليذُس» أن يكون الهواءُ مُخَلْخَلاً حيث تبنى الجسور، وذلك يكون إذا اتّفَقَ أن يُلقي برجُ «الفَرَس الأعظم» من إقليم حزيران، بظلّه على «يد الجوزاء» من إقليم أيلول، فتموجَ المجرّةُ بينهما كسرابٍ، في الهزيع الثاني من الليل، كل ستين سنة. فإذا أمكن رسمُ زاويةٍ مجسَّمَةٍ مُحَدَّبةٍ، مِنْ ميْل الجسد مع سَمْت السراب العالي، تحصَّل الموضعُ الذي يَرْهَنُ المعماريُّ فيه علومه، ويرفعُ الأعمدةَ. وجسرٌ يقوم في هواءٍ مُخَلْخَلٍ لَهُوَ قمينٌ أن يعبره الثقيلُ من العتاد، والعربات، وأسراب الماشية، فحسب. لكنه يميلُ، ويترجرج، ويهتز، ويتخلّع، ويتزلزلُ إذا عبره عابرٌ خفيف، فلا يكون للصّ، أو جسّاسٌ منفذٌ منه إلى معسكرات الجيش التي تكون بتلك الأنحاء، كما يرى «أخماليذُس».

والجسر الذي بناه «المارديني» على دجلة له توصيفاتٌ من هذه. وقد ضُرِبَ بالمنجنيق، بحجرٍ مغمَّس في القار المشتعل، ثلاثين ألف مرَّة، بعدد الحروب من «قندهار» المسلمين إلى «قيسارية» الروم، فاسودَّت أعمدته من الحريق، وصار لحجارِ رصيفه وعارضَيْه وهجٌ لا تبرحُ حرارتُه حتى يومنا هذا، فإذا فاض النهرُ قليلاً نشَّ نشيشَ الحديد المحمَّى، وتشمَّمَ الرعاةُ في الهواء شواء السّمكِ الحنكليسِ. وكان على جنباته وقائع تُروى عن فريق من الحجَّامين، الذين يُداوون بالفَصْد، ويتخذونه مذهباً في الطبّ، أنهم أغلقوا جهةً من الجسر بأهرامٍ من النار ألقوا فيه مثانات ألْفٍ من قِرَدة البابون، فثارَ منه عجاجٌ أشدُّ من الدخان في مهب الريح إلى الجهة الأخرى، وهم يرومون أن يوقفوا وفداً طويلاً من أطباء جرمانوس جاءوا يحملون على بغالهم أنابيقَ، وقُفَفاً من ضروب العقاقير ينشدون أن يبسطوا صناعتَهم أمام الدَّهاقنة، والولاة، في الأقاليم. وكانوا على حِرْفَةٍ عظيمة في علومهم، فخشيَ الحجَّامون أن يفقدوا هيبةَ مذهبهم إذا وصل أولئك الذين استحدثوا العقاقيرَ الباردةَ والساخنة، والجراحةَ، ومداواةَ الأهواء بالحمَّامات. فكان أن أحرقوا ما أحرقوه ليمنعوهم، عشر سنين، حتى انقلبت الريحُ عليهم في هبوبٍ من الغرب إلى الشرق، فأسْقَمَهم دخانُ مثاناتِ البابون المحترقة، فأخلوا جهاتِ الجسر، وضاع بأسُهم إلى يومنا هذا.

يُطلق على جسر «الماردیني» اسمُ الروم: «جسر الرومان». تهدَّم جنبُه الشماليُّ فصار ضيِّقاً في معبره. وقد أُسْنِدَ، على أيدي المُحْدَثين، بقوسين من الحجر لا أراهما إلاّ زَلْزَلا سطورَ «التأسيس الكبير»، وروحَ صاحبه في ظلامٍ ما من قبره غير المعروف.

«القوسُ مِحنَةُ الهندسة»: تلك هي الجسارةُ الغامضة التي غمَّست قلبي في حِبْرها. لكنني، في الطريق إلى الرِّهان على «المحنة»، مررت بأهوال «الزوايا المضلَّعة»، التي لا تقبل القسمةَ على أنفسها، كما يقول «الماردیني».

«زوايا مضلَّعة»؟ لم أكن سمعتُ بشيء من ذاك، بَعْدُ، في علومي

المدرسية، ولم أسمع بها في علومي اللاحقة أيضاً، من موسكو إلى مساكن المهندسين هنا. لكن تمحيصاً شخصياً منّي قادني الى ان الرجل كان يلمّحُ إلْماحاً إلى فراغات الخُمْس الثاني من علم الفَلَك، وهو عِلْم قيد الدَّرس، والتخمين، يعوزُه برهانٌ أبعد من قياس شعاعٍ مُنْعَكِسٍ تائهٍ في المُنْهَدَم الفضائيّ بين «برج العقرب» و«ذات الكرسي».

ولـ «الماردينيّ» تعريف للزاوية المُضلَّعة هو «النِّقاب»، يُرفَعُ مرَّة كل مائة عام لتهرب الكواكب السجينة في «برج التنين»، ساحبةً خلفها سلاسلَ ملتهبةً هي وشيعةُ المجرّة الثامنة في مدار القوس. وقد جعلتِ الملوكُ لنفسها القبابَ في القصور تيمُّناً بالفَلَكِ المُقْفَل في دائرته المترتبة من أقواسٍ، حتى يبقى سلطانُهم في دورةٍ يتصل آخرُها بأولها وأوَّلُها بآخرها، فلا يجوزُها أسرى هاربةً كما هربت كواكب «برج التنين». ومن ثم صارت الدائرة من علوم الأبدية، فاتخذها الملوكُ فلسفةً للإفتاء بالتوريث، واتخذتها بطانةُ الملوكِ صناعةً في السياسة.

وما يصيرُ إلى دائرةِ الملوك لا ينجو بعد ذلك قط: ـ يقول «المارديني».

«النِّقاب»، إذاً! كيف تصير «زاوية مضلَّعة» نقاباً؟ أين أضلاع «النِّقاب» وأين ترتسم زاويته في القبّة الصغيرة من متتاليات الكون؟. لا يكلّف «المارديني» نَفْسَه توضيحاً، كأنما عِلْمُهُ هذا من البداهات. وقد اتخذْتُهُ بداهةً، بحقٍّ، في مذهبي المسحور بالزوايا القوسية، التي شتَّتني في البحث، عبرها، عن تفنيدٍ لمذاهب القوسيِّيْن، إرضاءً للمارديني. فما كدتُ أمسك أوَّل قَبَس تجلّى لي ذات ليلة ساهرةٍ، في مساكن المهندسين ـ وأنا أستعيد أقوالاً من «نظائر المُشْكِل» الذي هو فرع في كتاب «شمل العطّارين» للآذريّ ـ حتى بَلْبلني الغناءُ الصادر من قبو مسكني، وما كان، بعدئذٍ، من أمر الغريب وأمر طلقتين من بندقية «جانو» عزّزتا الصمتَ الأبديّ بصخبٍ لن يفارقني قط.

وفي تلك الليلة، أيضاً، كنتُ أستعيدُ اقتباساً من «أخماليذُس» أورده «المارديني» لم أجد له صلةً بمتْنِ مَبْحَثه في تلك الصفحات التي

أوْقَفَها على مَرَاتب بناء المدن. قال «المارديني» قال «أخماليذُس»: قال ماردٌ لآخر: اقْتلني.

«بِمَ أقتلك؟» سألُه الآخر.

«بالذي تريده» قال الأول.

«أقتلك، إذاً، بمجرَّة تتناهشُ من حولها المجرّاتِ» قال الآخر.

«اقتلني بشيء غير المجرات. إنها حلقات في سلاسل لا تُميت»، ردّ الأول.

«أقتلك ببرجٍ تعاظمت نجومه، وبسطت فيه المهاوي غواياتها»، قال الآخر.

«اقتلني بشيء آخر، فالبروج ضعيفة، وهي من صَنعة الحدّادين على غير مهارةٍ»، ردّ الأوّل.

«أقتلُك بالفَلَك تُصْعَقُ بهولهِ، وهولِ مجهوله» قال الآخر.

«اقتلني بشيء آخر، فالفَلَك ما تتفكَّر أنتَ فيه دون زيادةٍ أو نقصان» ردَّ الأول.

«بمَ أقتلك، إذاً؟» قال الآخر.

«بما لا تجد فيه حيلةً إلى قَتْلي» ردّ الأول.

ـ وما هو الذي لا أجد فيه حيلةً إلى قتلك؟

ـ الأمنيةُ.

تمنيتُ عليك، إذاً، أن تموت.

ضحك المارد الأول، وهمس: «أراك مُتَّ قبلي. ومن مات قبلي لا يقتلني».

هنا يستطرد «أخماليذس» نفسُه، مستدركاً: «فإذا سألني سائل لِمَ أَوردتُ مَثَلي هذا في سياقٍ لا يعرضُ له كتابي، قلتُ: هي حمَّى القوس، أو نجمٌ في القوس أَضَلَّني». وللماردينيّ تعقيب على ذلك، في سخرية: «قوسٌ ضالٌ؛ لا عُذتَ ولا عادَ القوس». ويقفل خاتمةَ

صفحاته السبع ـ دليلهِ المختزل إلى بناء المدن، بجملةٍ توجزُ رأيَه في «القوسيِّيْنَ» (مَناطِقَةٌ يتخذون القوسَ باطناً في مجادلاتهم): «كلُّهم طَرْمَذارٌ» (أيْ المُتَكَثِّر بما لم يفعل؛ يقولُ الشُّرَّاحُ)، والطَّرْمَذَارُ كلمة تعادلُ، في اللّغات المُحْدثَة، شقيقَتَها من غير أبيها: «المُنَظِّر».

تلي الصفحاتِ السبع ورقةٌ ممهورة، في وسطها، بمخلب حيوان غُمِّس في حبرٍ شفيف، وعلى جانبيه جناحا زيزٍ حقيقيان أُلصقا لَصْقاً، ودُوِّنَ تحت الشّكلِ عنوانُ الجزء الثاني من الكتاب على صورة حرف النون: «القبر: فراغُ المستقيم والبناءُ فيه». وأوّلُ بَدْءٍ في هذا الجزء خبر عن قبر الاسكندر ذي القَرنين، الذي يُقال إن القبور اجتمعتْ، وتشاورت في أحوالها، ثم اشتكى بعضُها إلى بعضٍ انها لا تريد استضافةَ الاسكندر إذا مات.

تجادلت شقوقُ الأرض من مغيب الشمس إلى مشرقها. تجادلتِ الحجارةُ، واحتدمتْ، من سفوحِ «هكّار» إلى مساكب النيل التائهة في حواري البحر. وانتحبتِ الظلالُ وشقَّقت أثوابها من هياجِ المُناظرات. ولم تبقَ نبتةٌ، أو شجرة، أو أخدود، أو وادٍ، أو بطحاءٍ، أو ريح، إلاّ تخاصمت في الذي هي فيه من أمر الإسكندر إذا مات: لا مكانَ يريد استضافةَ جثمانه. ولمّا مات ـ يقول المارديني ـ سُجِّي جسدُهُ على هواء ثقيل كالفِراش حُمِّل مع جيشه في قِرَب من جلد الفيل، وهو هواء ارتدَّ، في زمن ما، عن جبل «الجودي» إلى الشعاب في مقدونية، فحُبِسَ ـ بعد انحسار الطوفان، باهتداءِ كهنة الوادي الأزرق إليه ـ في قِرَبٍ كثيرة، وقوارير، وفي قرونِ الحيوان المختومة بالشمع كسدّاداتٍ. ومن خواصّ الهواء هذا أنه إنْ أُطْلِق من محبَسِه لم يمتزج بهواءٍ آخر، ولم ينتقِلْ. ومن ثِقَله أنَّ في مستطاع المرء ارتقاءَه، والجلوسَ عليه، والاستلقاءَ، فيبدو للناظر معلَّقاً على بُعْدٍ من الأرض كالطائر وما هو بطائر.

لم يُقْبَر الاسكندرُ ـ يقول «المارديني»، مخالفاً كلَّ رأيٍ من قبلُ، ومن بعدُ، بل دُفِنَ في الهواء الثقيل. والدَّفْنُ بما يدلُّ على «التَّواري» هو من خاصية الكنز، أيضاً. وما يتوارى، أو يُدْفَنُ، ليس له، بالجَزْم

القاطع لغوياً، معنى حجبِ الشيءِ في قبر. وهذا التوضيحُ يمهّد به «الماردينيّ» مَنطقه في أن الدَّفن مرادفٌ للجوهر، والتَّقْبِيْرَ مرادفٌ للعَرَض. فالاسكندر المقدوني، إذاً، مَبْحَثٌ للعَالِمَ النّهم إلى علوم الجوهر، فيما سوادُ العامَّة من نافل البحث في علوم العَرَض.

لا تتساوى عوالم القبر، في عرف «الماردينيّ» بين دفْنٍ في الأرض ظاهرٍ، ودفْنٍ مُختَجِبٍ. لذلك يُصَدِّر صفحاتِه الأولى في القسم الثاني من «التأسيس الكبير» بحبرٍ ثخينٍ أحمر: «صيروراتُ الخُدْعةِ: القبرُ والمنطق». ويمهّد لديباجته بعبارة صريحة: «ليس كلّ قبر قبراً»، مختومة بفاصلة منقوطة، ثم ينتقل إلى سطر جديد لا علاقة له بعبارته، كأنّما دوَّنها في شكلٍ عارضٍ وأهمَلَها.

يوطِّد «الماردينيّ» سطرَهُ التالي بمَسْرَدٍ في معنى «النَّعْش»، أيْ المحفَّة التي يُحْمَل عليها المريض، أو الميت. ومرادفُها اللفظيُّ هو «البقاء»، عن تصوُّرٍ للخلود الذي يلي الحياة الفانية. منتقلاً، بسرعة، الى ضربته التي يريدها: «المتصوِّفةُ غائبون. والغائب مُدْفَنٌ. إنهم لا يسمّون شيئاً لأنهم يجتهدون في تضليل الشيء عن فكرته».

هي حَزْبُهُ من أوّل السطور على المتصوِّفة أجمعين، مستعيناً بالفَلَك المنقسم حول «بناتَ نَعْشٍ» الكبرى، والصغرى: «كُنَّ على نَعْشٍ فأُنْعِشْنَ فَرُفِعْنَ إلى مراتب البقاء. ما تحتهنّ هو القبر، وما فوقهنَّ هو الموت. وهُنَّ فُسحةُ الجسد وموازينُ طبائعه، يستولِدْنَ للعقل «شهوةَ الرُّخِّ»، إذا لامسَ شعاعٌ من أقمار زُحل نظائرَهُ في الزُّهَرَة. ومن هذه الشهوة تتزيَّنُ الحربُ للنَّفْسِ كأملٍ». ويكرِّر عبارته «الحربُ أملٌ»، بخط واضح، إلى فراغ على شمال السَّطر، من أعلى إلى أسفل، بشكلٍ مخروطيٍّ. فيما توازيها، في البياض الأيمن لمتنِ الصفحة، عبارةُ «القبرُ صناعةُ الحياةِ لا صناعةَ الموت» متدرِّجة، بدورها، على شكلٍ مخروطيّ.

أكان «الماردينيّ» يصف قبرَهُ في زعمه أن الدَّفن ليس فعلاً مقتصراً على إخفاء الشيء تحت قشرة الأرض؟ لم يقل لي أحد إنّه اهتدى إلى

قبر «الماردينـي»، أو روى ـ تَلْفيقاً ـ ما يشير إلى مكانٍ فيه قبرُ الماردينـي. وما من تصنيفٍ ذَكَر الرجلَ أو كتابَه، فبأيِّ أستنْجِدُ دليلاً إلى ميقاتِ لأجَلِهِ، وأنَّى صارَ قبرُهُ؟. لقد تهيَّأ لي، في انشغالاتي بقراءة «التأسيس الكبير» أنني لا أقرأه فحسب، بل يصدمني منه هواءٌ ثقيل يكاد يرفعني. ولطالما أغلقت دَفتيّ الكتاب لأنجو من تحليقٍ لا أريده، خشية أن أجد نفسي في فراغ مع الرجل، وجهاً لوجه، جالسَيْنِ على حافة الحِيْلَةِ. و«الحيلةُ» هي الموت في تصنيف الماردينـي. وله مذهبٌ في هذا، بإصراره على أن الموت أُسِرَ، فيمن أُسِرَ، حين تمرَّد إبليس. ولمّا وقف بين يديّ الله رأى أن يفتدي نَفْسَهُ؛ قال: «اجْعلني مُهلَةً ـ وساطةً بين خَلْقِكَ والحساب، آخذهم إليك راضياً من مغيبٍ إلى مغيب، وأمتدحك بصبري على جَزَعهم، ثم لا أسألك على ذلك أجراً»، فأمهله الله إلى يوم الحساب. وها هو عجولٌ ـ يقول الماردينـي. الموت عجولٌ لتكون له الشفاعةُ في آخر عمله، حين ينتهي من كل شيء، ولتكون وساطته بين الإنسان وقيامته هي التشارك في الفردوس غير المأمول.

هنا يضع الماردينـي ستَّ نقاط متتالية في آخر السطر، لينتقل، عجولاً، إلى سطر جديد، لاهثاً في سماء عبارته: «مذاهبُ الإنسان غير مأمولة، يَنْحى باللاّئمة على المنطق، ثم يمضي إلى فردوسه غير المأمول، بعذاب ثِقَتِه بالموت».

يستعين «الماردينـي» بكناية غريبة يُكنّي بها القبر: «قمر الرّاعي». فإذا وقعتِ الكلمةُ في سياقٍ كاد المعنى كلُّه أنْ يُشْكِلَ، ولا يكلِّف نَفْسه في ذلكِ شرحاً. ويعرضُ، في بعض سطوره، للشمس كأنما لا يقصد الشمسَ. غير أنه لا يعني بها العقلَ على أية حال. وإذا جزَم الرجلُ أن الإفصاحَ توريةٌ من توريات اللسان لم يقصد الذهاب إلى «مجازفات النَّفْس في مراقي المعنى»، وهي عبارة يتَّهم بها المتصوِّفةَ «متسوِّليْ الريحَ من الجهة المُغْلَقة». ثم يعرِّف الريحَ: «يُقالُ الوقتُ صَنْعَةٌ، ومثْلُه الريح»، «والصناعةُ ضجرٌ من ضجرِ الحقيقةِ ترهنُ بها أهواءَ فائضةً على ما يحتمل اليقين».

«الوقتُ ريحٌ» في عُرْفه. «الوقتُ نقلةٌ من الريح ـ في رقعة البيدق الصغير ـ إلى فراغ الجوهر». وتتكاثف هفواتُه الشاردةُ عن سياق مقالته، كأنْ يمعنَ في التقطيع، والإخلال بالفقرات، مدوِّناً بينها جُمَلاً مثل: «الغبار أثر الريح. الغبارُ ما تقولُه الريحُ شِفاهاً للمكان. وما لا تكلِّمهُ الريحُ شِفَاهاً هو أثرُ المكانِ في ظنون المعنى».

«الموتُ مؤتمنٌ على تدابير الحياة، والحياة مؤتمنةٌ على ما يتدبَّره الموتُ لنفسه».

«الحياةُ خَيَارٌ».

«الموت حيلةٌ تنطلي على الخَيار».

«البعثُ هو القوسُ المجتزَأُ من دائرة الحيرة».

ثم يعمدُ، بعد مجتزآتِ معانيهِ، إلى تخصيص المتصوِّفة بإشفاقِهِ الساخر: «معذَّبونَ بمراتب اللَّفظ لأنهم منكوبون بضآلة اللفظ». ويدوِّن في أسفل الصفحة صارخاً: «هُمْ زلَّةُ لسانٍ»، قبل أن يرفع حصواتِ خمس عالياً، ملقياً بها من راحة يده اليمنى، ثم يتلقَّفها بظاهر يده، ثم يقذفها عالياً، من جديد، ويتلقَّفها براحة يده، ملتفتاً إليَّ في نشيجٍ لا يسمعه غيري:

ـ اللونُ قيأُ الألم.

هكذا تهيَّأَ لي أنه يلتفت إليَّ في جملته هذه. أما لعبة الحصوات الخمس فهي لعبة الصِّبْيَة يتبارون بها في بلداتنا، تقتضي مهارة في التلقُّفِ بظاهر اليد. ولطالما تنتهي الخساراتُ فيها بالضرب بالحصوات ذاتها على الوجوه. وبالرغم من أن تصوير «المارديني» على هذا النحو لا يقاربُ صرامةَ مقالاته في «التأسيس الكبير»، فقد عنَّ لخيالي ظاهراً بين سطوره، يرمي الحصى عالياً في مَرَحٍ، ويومىء إليَّ أن أتلقَّفَها بظاهر يدي.

كل مرَّة فتحتُ «التأسيس الكبير» وجدت نفسي في الجهة الأخرى

من سطوره المدوَّرة، جالساً في شفقٍ فيروزيٍّ بين منازل من رخام فيروزيٍّ، وقد مَدَدْتُ أمامي، على سِعَةِ تسع خطوات دائرياً، المُدىَ المزخرفةَ بطَرَقَاتِ الأزاميل على حديدها اللامع كالمرايا، والخناجر ذات المقابض النحاس، والحرابَ القصيرة في أغمادها العظمية، كلُّها تسوَّقتُها من باكو ـ أذربيجان ـ، بعَهْدٍ من الباعة أنها تخصُّ خانات المغول؛ وبينها نِصالٌ لا مقابض لها، بعضها منشاريّ دقيق، وبعضها مثلوم من الجهتين، وبعضها مزدوج الرأس كلسان الأفعى، وبعضها مجوَّفٌ تجاويف طولية، أو ذو عروق نافرة قصدَ بها الصانعون أن تُحْدِثَ جروحاً لا تلتئم.

تكلَّفتُ الكثير في نَقْلها معي حين غادرت موسكو. وفي كل أرض دخلتُها تذرَّعتُ للسلطات أنَّها مُجَسَّماتٌ من روحِ المُعْتَقَد، وإرثٌ قدسيٌّ، فأطلقوها معي محتارين في شؤون العالَم القادم من ذهبٍ غامض. وقد تعلَّمت التذرّع بأمور تخص الدِّيْنَ، في التحايل على قوانين لا تخصُّ آبائي، من محترفي البقاء في غابات الأرض الجديدة غربَ العالم: لا يدخلون المحاكم أيام الجمعة لأن الجمعة أرض الله لا تجوز فيها مقاضاةٌ مِنْ غيره. ولا يدخلون المَحَاكم بأربطة عُنُقٍ، لأنها تأكيد مسبق على الذَّنب، لأن المُذْنبَ يُؤخذ إلى الله بحبل في رقبته. لا يقبلون السكنى في عمارات لا تطل منافذ شبابيكها على القبلة. ويطالبون بلديات المدنُ التي يدخلونها لاجئين، بإعفائهم من دفع فواتير الكهرباء في شهر الصيام، حيث السَّهر على أشدِّه حتى الفجر طلباً لمغفرةٍ تشمل تماثيلَ الساحات، وشجرَ الحدائق، وحافلاتِ النَّقل، والقطاراتِ، والجسورَ الكبيرة، ودخانَ المصانعَ المُعَذَّبةِ أيضاً.

ذَبْحُ الخراف، حتّى، على عتبات العمارات العالية كأرَقِ الأرض، يغدو مسموحاً به، إذا تذرّعت بأنك ستهَبُ نصفَ لحم الذبيحة لجيرانك، تطهيراً للهواء أمام العمارات من كلام لا أثر لله فيه.

يكرهونك أحياناً، أولئك المتفحّصون لعوالمك المشغولة على نَوْل النسَّاج. لكن القانون هو القانون، بحذافيره أو بخروقٍ هنا وهناك فيه من

المُرتابين. فيذعن الشرطي، والقاضي، ورجل دائرة الهجرة، لأهوائك المذهبية والعرقية، عن قناعة أو على مضض؛ هذا ما قاله لي الغاضبون على مفترَقات العالم.

وسكاكيني، وحرابي، وخناجري، ونصالي التي يمكن تثبيتها على مقابض حديد، أو خشب، أو عاج، أو عظم، هي فُسحةٌ مما تعلَّمته من فنِّ مجابهة القانون الواضح بقانونٍ مُحيِّرٍ. وهي معي، هنا، في مسكني بين مساكن المهندسين. لكن «التأسيس الكبير» بقي في بيت أهلي في «عين ديوار». قلتُ لنفسي، حين مضيت طالباً علومَ «الزوايا القوسية» في بلاد ألكسندر نيڤسكي، إنني سأعود لاصطحابه فيما بعد.

لم أرجع إلى «عين ديوار». ختمتُ علومي الناقصةَ واتجهت غَرْباً، بحثاً عمّا يسعفني في العثور عل شطر تائهٍ من شِعْر «ميلان» لم يضمِّنْهُ أشعارَه الفارهةَ بأملها المنهوب. وعدتُ لأستقرّ، بعد نصف دائرة في مياه المتوسط، بين فصيل من المهندسين لم يستيقظ أحد منهم ليلةَ أطلقتُ النارَ، من بندقية «جانو» على الفراغ الفيروزي، فتهشمتِ المجرّاتُ السبعةُ الحصينة، وتبادلتِ البروجُ المتناظرةُ في مستعمرةِ أيلول شهواتِها الدائرية.

يتهيأُ لي، بعد تسع سنوات من إعدام الغريب في قبو منزلي، أن الموتَ لا يقفل البابَ ذا الرِّتاجات الحجرية على سيرةِ حيٍّ ما، بل يعينها على بلوغ مُتَّسَعٍ أشمل، مفتوحٍ كمشهد في مرآة. فالرواة الذين يتعاقبون على سيرة شخص راحل يمحضونها تعدُّداً هو من خصائص الاختلاف في العلاقات، فكأنما يصيرُ ذلك الشخص، سَرْداً بعد آخر، حيواتٍ لم تكن له، لكنها، قطعاً، ليست إلاَّ لَهُ. لأنه مكَّنَ الآخرين من بعثه على فروقٍ هي احتمالُ ما كانت عليه حقيقتُه الخافيةُ، أو ظاهرُهُ المُعْلَنُ، أو مُشْكِلُ جوهره، أو صداهُ لأنَّ المرء صدى فكرةٍ يتمِّمها الآخرُ أو ينقص منها أو يزيد ما ليس فيها؛ وقد يتملَّكُها فيتماهى بها مع النقصان الذي في كمالها.

هكذا يغدو واضحاً أن للموت ضربة واحدة، وللحياة ضربات لا تحصى. ويبدو الموت متقطعاً في سياقه، فيما الحياة متجانسة إلى ما وراء كينونتها. وإذ يكون للموت رهانُه الذي لا يخطىء، يكون للحياة ـ من سَرْدٍ إلى آخر ـ رهانُها الذي لا يخطىء. أمّا الزَّمن، بين الاثنين، فهو حِسَابٌ أعمى. وأنا، كشخص يتهيّأ له أن الموت هو المشهدُ متأمّلاً صيروراتِهِ، أحْيَيْتُ ذلك الغريبَ، الذي لا سيرةَ له، يوماً بعد يوم، تسع سنين. أعدْتُ غناءَهُ على مسمعي. أعدتُ صورتَه، جالساً في القبو، على خيالي من جهاتٍ لم يُحِطْ بها بصري نفْسُه. تأمّلتُه ـ أنا الذي لم يرَ ملامحه تماماً ـ على نحوٍ خارق، ذرَّةً ذرَّةً، في الظلِّ الكثيفِ المعلّق بسلْكٍ من سقف القبو. بل هممتُ، بيني وبين نفسي، أن أخترع سيرةً له؛ أن أَلِدَهُ من ضلعيَ الثاني عشرَ الغامض؛ أن أضع بندقية «جانو» المُرَخَّصَة في يديه المطويتين على حِجْرِه، صارخاً به: «أطلقِ النارَ عليَّ، أيها الضَّيفُ اللامُحْتمل».

أخالُ، أحياناً، أن فقرةً شاحبةً، تعبر ذاكرتي خَطْفاً، من متن «التأسيس الكبير»، تحمل شيئاً يشبه الومضَ الذي فتَّتَ الشفقَ الفيروزيَّ يومَ أطلقتُ النارَ على الشاب الغريب. لا أتذكر سياقَها. لكنها في الصفحة الثامنة والسبعين، أو السابعة والثمانين. لستُ متأكداً. يسبقها كلام للماردينيِّ عن كون القوسِ من خصائص الشكِّ. ويزعم أن كل عمارة تقوم في أساسها الهندسيِّ على جزءٍ من القوس إنما تقوم على الشكِّ، وتعلو به، وترتكز. وما من شكٍّ إلاّ وينتهي إلى تآمُرٍ، في بيوت النافذين، والحاكمين، وذوي المراتب المبذولة من السُلْطان. وكذلك في منازل العامَّة والدَّهماء ـ يضيف الماردينيّ، ثم يستدرك فيُبدي بعض الظنِّ في قولَتِهِ: «منازلُ العامة والدهماء لا تصلحُ فيها الأقواسُ، إلاّ قليلُها». ويُتمُّ فكرتَهُ على أنَّ من خصائص بناء المدن كثرةُ المؤامرة وتدوينُها في صحائفَ لينتفع بها الآمرون المُحْدَثُون، فيتفادوا المكروهَ من الأقربين. ولربَّما انتفَعَ الأقربون، أيضاً، من تلك المُدَوَّنات، فبدَّلوا خُطَطَهم خُطَطاً أخرى لم يَجْرِ تدوينُها، لتتساقط الرؤوسُ، وتتساقط الصحائفُ المُحَبَّرةُ، وينسخ الكَتَبَةُ في أمور الحِيَل ما نسخهُ السابقون في

أُمور الحِيَل والدَّهاء وسَلْبِ الحُكْمِ المسلوبِ من حُكْمِ مسلوبٍ، من سَلَفٍ في الغدر إلى خَلَفٍ في الغدرِ؛ من قويٍّ إلى وضيعٍ، ووضيعٍ إلى قويٍّ وضيعٍ.

كلُّهم ينتفع بالسِّجلِّ الذي تُنَضِّدُ الحِيَلُ فيه تبويباً، بحسب مراتب المؤامرة، وتسارُرِ الضليعين في حَبْكها، ومقادير الغُنْم، ونزوع الطامعين في السلطان إلى عون الغرباء على الأقرباء، وما يتّصلُ بذلك من تصنيف القرابة، أيضاً. فكلَّما بَعُدَ نَسَب الدَّم بَعُدَتِ الثقة، مع وجوب الحَذَرِ من النَّسب الأقرب إذا ظهرتْ فيه علائمُ الشهوة، أو الطموح.

على أية حال، يستوجبُ الحُكْمُ الشَّكَّ أبديّاً، بوجود تصانيف للتحذير، أو من دونها. وللحُكْم ميثاقُ القتل، بغيره لا تقوم المدنيةُ ـ يقول الماردينيّ. أمّا دوام الحُكْم بالعدل، وأَخْذِ الظاهر على مَحْمَله، ومَحْضِ الدَّم ثِقَةَ الرأفة، فتلك من مجازات الصُّوفية، بحسب الماردينيّ، الذين هم «زلَّةُ المجازِ نَفْسِهِ، وذهولُهُ المُطْرِب». هكذا. يرى في ذهولهم مَذْهَباً من تَكَلُّفِ الطَّرب، أيضاً.

بعد هذا المدخل، من «الماردينيّ»، تأتي فقرةٌ تحملُ شيئاً من وَمْضٍ، إذا استغرقتُ في استذكاره وجدتُ شبهاً منه في أمر إطلاق النار من البندقية على الغريب، الجالس في قبّة الأفق الفيروزيّ؛ أعني: الذي كان جالساً في أفق فيروزيٍّ تهشَّمَ، فانغلقَتْ عليه الفسحةُ الظاهرةُ من الأرض بين مسكني ومسكن «جانو».

يسردُ «الماردينيّ»، في مقامٍ شاحبٍ من ذاكرتي، أن وميضاً هائلاً غطّى الأفقيْنِ بين دجلة والفرات، دام لياليَ. فلمَّا استُطْلِعَ عادتِ الأخبارُ بأنَّ أسراباً من زيزان اللهب تحوِّم في الإقليم. وهي طيورٌ كرأس الإصبع، تطير طيراناً دائرياً، وتتقدَّم حلقاتٍ حلقاتٍ. لريشها ذَرُوْرٌ من فضَّة الزئبق ـ كالذي في أحشاء الحَباحِب وأذيالها ـ يتناثر مضيئاً في الظلام بانعكاس خيالِ النهار عليه بعد انقضائه: «لا يظهر الألقُ على ريشها نهاراً، لأنَّ النهارَ لا خيالَ له إذا كان ماثلاً. فإذا غاب ضياؤه، وأَفَلَتْ بناتُ أحشائه، وختم الأفقُ عليه بصخر المؤابيِّيْن، تألقتْ أجنحةُ

زيزان اللهب بانعكاسٍ من خيال النهار على ذَرُوْرِها المتطاير كدقيق الطحَّان»، يقول «المارديني».

فماذا من أمر الليل، إذا كانت للنهار حَظْوةُ الخيالِ هذا؟ أسأل نفسي، وأردُّ عليها بزعم من «المارديني» نفسه: «لخيال النهار ما يماثله، ويوازنُه، من خيال الليل، الذي مظهرُهُ أن للأشياء ظلالاً في ضياء النهار ذاته». ولعلَّ اختلاطَ الدَّويِّ بالضياء، وانبثاقَ قَبَسٍ من حُمَّى الباطن في الخواصِّ المُسْتَتِرةِ لِلَّطائفِ الحيَّة، هما مسرى أيٍّ ومضٍ إلى بزوغه عياناً. لكنَّ أحد الأتابكة، في سطورٍ مُدَوَّرةٍ من «التأسيس الكبير»، يصف ضربةً على خوذته، أوردتْهُ الفالجَ في شِقِّهِ الأيسر، كما هبوطِ ملاكٍ عليه.

الوميضُ ملاكٌ. نزلَ الدَّبّوسُ على خوذته فأغمض عينيه، بدافع خفيٍّ من تمكين الضربة أن تفتح للملاك بوّابة النُّور إلى أعماق الرَّجل، الذي زعم للماردينيِّ، أن زيزان اللهب غطَّت كلَّ فضاء، من أعلى ومن أسفل، على قَدْرٍ لا يسع لِخَيالٍ أن يترامى في أنحائه.

هو الذي مَكَّنَ الضربةَ من نَفْسِه، إذاً. مَهَّد لها أعماقَه حتى صارت الضربةُ صناعةً من خياله، بحسب وصف الماردينيّ لحالِ الرَّجل، فكأنما قَصَد إليها، دونما دفاعٍ، ليحظى بالوميض، الذي حكى له مفلوجون أُخَرُ ـ من طحْنِ الحروب ـ عذوبةَ تحصيله في برهةٍ لا جَزَعَ فيها.

يقول: «أصغيت للدَّويِّ تحت خوذتي، المُنْفَلِعَة بضربة الدَّبّوس، كأنه مشادةٌ بين الشيطان والحقيقة، وغشاني ضوءٌ كأنه فرارُ حجارة الجحيم المُسَجَّرةِ مِمَّا هُيِّئَتْ له إذْ أرْعَدَها عذابُ الإنسان قبل بلوغ الجحيم. كلُّ ذلك في نَزْرٍ من النَّفسِ، فكانَ لي ما تهيَّأتُ له مُذْ خرجتُ أوَّل مرةٍ إلى حرب». وأكاد، أنا، أن أسمع رنيناً في صوت الرجل لا أهتدي أهوَ ألمٌ أم عذوبةٌ، في السّطر الذي يختتم الماردينيُّ به ما وصف الرَّجلُ من حاله. فقد أشار الأتابكيُّ إلى جَنْبِهِ المختوم بالفالج قائلاً: «لقد استقرَّ هنا بعد الضربة. ذلك الملاكُ استقرَّ هنا بعد الضربة».

ملاكُهُ مستقِرٌ، إذاً، في جانبه المفلوج. وكلُّ فالجٍ، في اعتقادي، ليس بمرضٍ، بل نَفَقٌ تسلُكُهُ الأعضاءُ الآدميةُ إلى حاسَّتها التاسعة، أعني الحَذَرَ الذي هو من رياح الفردوس.

بعد كل نَفَق ثمَّتَ حَذَرٌ يتحصَّنُ به المشهدُ الظاهرُ أو الباطن. والأنفاقُ التي هي من خواصّ المدن في تصريف احتقانها، كما يقول الماردينيُّ، لها صلة بالحُكْم، أيّاً كان. ويروي أن الحاكمين لا يردمونها حتى في انقلاباتهم بعضهم على بعض، كأنما يحفظ واحدهُم لنفسه، بتوارث الخصومات، ملاذاً إلى النجاة في دهاليز يصيرُ بها إلى هَرَبٍ. والحاكمون لا يسدُّون مخارج الأنفاق في ما وراء أسوار المدن، باتّفاقٍ مُحَيِّرٍ ليس في عقود الأخلاق، كي يتركوا للخصوم فرصةَ العبور إلى حياةٍ يأكل الحقد فيها أكبادَهم، ويؤرِّقُهم شبحُ الثأر وهو يقرعُ دفوفَ عظامهم، تحت اللحم، وذلك أقسى عذاب يصيب منْ سُلِبَ الحُكْمَ وأُطْلِقَ يرعى، حيّاً، رمادَ نعيمه الآفل.

لا أحدٌ خَلَع سلطانَه لآخرَ عنوةً، ونجا هارباً، إلا تفجّرت مرارته، أو أخذه النُّقرسُ، أو أقعَدَهُ الفالجُ، أو نادمَه وسواسُ الريبة يحدِّث نَفْسه بصوتٍ عالٍ كلامَ الهاذي، ليموِّه على كلام العقل، حتى تصير الخَبَالةُ طبيعةً فيه فلا يفهمه إلاّ الحيوان.

لا أعرف في اي جزء من الحقّ يتقاطع ما يذهب اليه «الماردينى» في أمر الأنْفَاق، وما حدَّثني فيه «جانو» حين جاءني بخبر اقدام السلطات على بناء متحف له شكل سفينة. وقد تفحَّصتُهُ أوّل الأمر لأرى مبلغ الجدّ في صوته الفَكِهِ، فدعم ما يقول بصورة منسوخة تمثّل شبكةً من التصاميم المتداخلة مدَّها أمامي، على منضدة المقهى: «هذه هضبة مكدونيْتِسَا؛ سيستقرّ الهيكلُ بين مستديرة المطار شرقاً، وأحراش الزيتون على تخوم انغومي. نصف الهيكل معلّق في الهواء، على امتداد أفق الهضبة الشرقي. سفينة. متحفٌ سفينة. سنشارك، أنا وأنت، في التنفيذ، يا رجل. أمرٌ شيقٌ. ها!؟. أمرٌ شيق كفرْجٍ في نفقٍ، ها؟ أنا من فصيل تصميم الأنفاق التي ستخترق الهضبة من الجهات كلّها يا

رجل. إحليلٌ متشعِّب، بألف رأس، سيشقُ مغاليقَ الهضبة، يا رجل. تصوَّرِ المتعةَ في ذلك: ألف دفْقٍ للمنيٌ دفعةً واحدة»، وتشمَّم الهواء من حوله في حركة لولبية من رأسه: «حفَّارات من أحدثِ طراز في تصرُّفي، لها مثاقب من حديد كجذوع النخل. وهاتِ يا فحلُ دَكّاً دَكاً حتى سور الصين». ثم تمهَّل، فحدَّق فيَّ واقفاً: «ستكون الأنفاق على شكل متاهة. لا أعرف من أين أبدأ. رأسي ليس معي. قلبي ليس معي. أعضائي حفَّاراتٌ»، ولمس يدي براحته، مقترباً برأسه مني كأنما يُصغي: «أتسمع الحفَّارات؟».

أنفاقٌ متاهيَّةٌ تحت أساسات المتحف؟ لا بد أن تكون مزحةً من «جانو». لكننا عرفنا، فيما بعد، أن المسألةَ في تصاميم البناء تحمل أبعاداً من ذلك. وإذ سألتُ «جانو» عن الحكمة في أمرِ أنفاق من هذا النوع، ردَّ: «ألن يكون في المتحف تماثيل؟»، فأجبته: «بالطبع..»، فغمزني: «التماثيلُ تفضِّل التنزُّه في المتاهات، يا رجل».

II ـ الأيقونات



١ ـــ الحيوان في استراحته الثانية

يستطيع ملاكٌ تائه، في أبعد نقطة من تجويف القوسِ الفراغيّ، أن يشمَّ الرائحةَ الصاعدة من مساكن المهندسين، التي أقطنُ أحدها. ليس لأن للقرميد الشهوانيّ على الأسطحة إشاراتِه الجسورةَ، وليس بسبب كثافة هوائيات التلفاز المحلِّقة كصورٍ في أخيلة المغول، أو ما يختمر في أحشاء الحديقة العذراء ووسط المساكن، وهي تتشبث بشجر الصنوبر العابس، المُقْتصد في نسْلِه. لا.

رائحةُ الحيوانات هي صورة المشهد، التي يستطيع ملاكٌ، في تجويفِ من القوسِ الفراغيّ، أن يرى فيه العالمَ مُمْكِنَ الحدوث.

أنا، مثلاً، ما زلت مصرّاً أنْ لا تجانس بين مساكنِ المهندسين وبين المكان، بالرغم من ذهاب «جانو» إلى تشبيهها بفخٍّ رائع سقطَ المكانُ فيه: «في البدء كانت هذه المساكن، يا رجل»، يقول بعبارة توراتية، فأحدِّجه بنظرةٍ مرتابة: «كم بَدْءاً اخترعت للعالم، يا جانو؟ في البدء كانت حدائق المتاهات. في البدء كانت الجرَّافةُ. في البدء كانت كأسُ العَرَق. في البدء كان السجن. في البدء كانت المرأة البريطانية... احسمْ أمرَكَ، واسْتَقِرَّ على بَدْءٍ». فيمسّد «جانو» شاربيه كقطّة، مقلّصاً بين أجفانه في البحث عن سخرية هي مِنَّةُ الألم: «ولماذا لا تكون هذه الأشياء، والحيواتُ، كلُّها، بَدْءاً أوَّلَ، يا رجل؟»، مضيفاً: «ولا تنسَ هذا» مشيراً إلى ما تحت سُرَّته.

مساكنُ المهندسين فخٌّ، على الأرجح. أظنني أتبنّى فكاهةَ «جانو». لكنها، بالتأكيد، فخٌّ غير مؤلم، سواء أَسَقطتِ الحديقةُ العذراءُ فيه، أم سماءُ الحديقة، أم شعاعاتُ الصباح المبعثرة كقطنٍ طاهر تقذف به شجرات الصنوبر من اسوارها على القرميد، الذي يتنفَّس عالياً. والأرجح أن الحيوانات الجاثمة في ممالكها الملحقة بكل مسكن هي أبعد ما تكون عن التفكير في ما تحظى به مخيّلتي من شتاتها. إنها مُمْتَدَحةٌ، على رَحْبِ

لا يحلم به حيوانٌ في مسكن، مُطْلَقَةُ الخيالِ من التَّرفِ الذي لا يُقْلقُهُ دخول المهندسين عليها، شِبْهَ معتذرِيْنَ عن انتهاك خلْواتها الحيوانية العابقة بتأمُّلٍ في أصل النَّشْأةِ، وافتراقِ الأفلاك، وأسباب اختزال الحياة إلى زوايا معلومةٍ يدرِّبُ الكائنُ قياساتِها على الموت.

«جانو»، نَفْسُه، متعلِّقٌ بحكمةٍ من هذا النحو: «لم يمُرَّ بي يوم لم أتدرَّب فيه على الموت، يا رجل. حياتي تمرينٌ من تمارين الموت. لا أخاف. صدّقني. لكن الموت سِمْسَارٌ، يا رجل، يُفْتِننا بلباقته، ودماثته، وإطراءاته التي لا توصف، وعطر حلاقته، وطريقة لِبْس خاتمه الكبير في السَّبابة، فنستأجر منه غُرفةً اسمُها الحياة، يا رجل». ويفتح راحتيه مُتَلقِّفاً من السماء رسالةَ شكرٍ على براعته، ثم يهمس: «أظنني أسعى إلى صداقة هذا السّمسار، ليَخفِّفَ عليَّ دَفْع الأجرة».

لـ «جانو» حيوانان بدوره، إسوة بالآخرين الذين يسري عليهم قانون السُّكنى في تلك المنازل. وهو قانون لم أجدْ لَهُ تفسيراً قط، إلاّ اختلاقَ سبب للبقاء، فالتعلُّق الذي ينمو يوماً بعد يوم بالحيوان المُقْتَنى سياسةٌ من سياسات الغيب، ومدعاةٌ للتفكُّر الإنسي. فأنا، حين فاتحني «جانو» بوجوب أن أقتدي بسُنَّةِ المكان، بعد أيام من انتقالي إلى مساكن المهندسين، فأعثرَ لنفسي على حيوانين يقاسمانني الحدودَ المنذورة لهما من مُلْحقِ المنزل، سألتُه الحكمةَ في الأمر، فردّ «لتكتملَ يا رجل» على عادته من المماحكات الصِّرفة. ثم أخذني إلى المُلْحَق الفارِهِ لصقَ مسكنه، حيث مدَّ زرابيّاتٍ على الأرض، وأحاطَ نافورةً صغيرة وسط المكان بأباريق من النحاس الأصفر، وعلَّق على الجدران صوراً كبيرة لغاباتٍ على خلفية من دهانٍ أصفر فاتح يقارب البياضَ نصاعةً. وإذْ عقدتُ مقارنةً بين مُلْحَق المسكنِ والمسكن ذاته، في داخلي، وجدتُ الحيِّزَ المخصصَ لاقتناء الحيوانات أكثر تَرَفاً، يليق بأن يقطنه المرءُ. ولم يخِبْ زُعمي هذا، فأنا نفسي، بعد اقتناء حيوانين، صرتُ ألازم فضاءَهما المغلق بجدرانٍ ما تركتُ زُخرفاً إلاّ طعَّمتُها به.

زوجا حَجَلٍ كانا ضيفَيْ مسكن «جانو» (أو مُلْحَقِه)، أوْ كان

«جانو» ضيفَهما. لا فرق. مدَّ شبكاً رقيقَ المساماتِ، ذهبياً، على عرض الغرفة، من ثلث مساحتها الخلفيّ، ووضعَ زوجَيْ الحجلِ خلف ذلك الشَّبك، ذي الباب الضيق الذي يسمح بالعبور إلى الداخل لتنظيف الأرض، وإدخال الحبوب والماء.

كانا سمينين، مستديرين تماماً بسبب ذيليهما القصيرين جداً. ولا استطالة في تينك الكُرتين إلاّ عنقاهما يتمطّيان ويتقلّصان كنابضين من معدنٍ، فلا تعرفُ أيختفي الحَبُّ في منقاريهما أم تمتصُّه الأرضُ ذاتها.

لعيون الحجلين رموش خفيفة، مكحّلة، أو هكذا توهَّمتُ. عيونٌ أزلية في أغشية من زجاج صَقَلَها البرقُ الأولُ لانشطار الكينونة إلى مَرْتبتين: الخَلْقِ المُحْدَثِ من جهة، والذّاتِ المأهولة باللاّ متخيَّل من جهة ثانية. ولاحمرار منقاريهما عذوبة، ولريشهما النَّفّاج استدراكاتٌ تُفصِحُ عن اللون مرَّةً، وتحجبُ معناهُ مرَّةً. كمالٌ يمسِّدُ صدرَيهما برماديٍّ مُلَبَّدٍ، ولهما حديثٌ على لسانيهما الأعجميَّيْن لا ينتهي.

يحكي «جانو» عن اختياره الطائرَيْن، في كل مرَّة أُلقي إليهما حفنةً من القمح، أن للحجل صفاتِ الكرديّ، «حَذِرٌ جداً، لكنه سهل الاستدراج». ولربّما أمعنَ في إلقاء الكلمات، كعادته، على محمل كبير من شرورِ معانيها الفَكِهَةِ: «الحَجلُ كلماتُ الكرديّ، يا رجل. إشاراته الجبليّة. والحجل الواحدُ لا يحطّ في مكان إلاّ اجتمع إليه سربٌ بعد ذلك. ليست رائحته هي الجاذب. ليس صوتُه كما يدّعي الصّيادون، بل طباعُ الألم». ويصعّدُ من أعماقِ خبرته غير المدروسة حكمةً كطيش رقيقٍ: «للحجل وحده طباعُ الألم، ومالك الحزين مُقَلِّدٌ عابث». فإنْ سألتُه، ساخراً، عن سلفٍ فطينٍ أورثَهُ سحرَ التورية، ولِبْسَ الكلام على مقاسٍ غامضٍ كأسرار المعماريِّيْنَ، ردَّ: «جدَّتي»، مضيفاً: «ماتتْ وهي تخبّىءُ القيامَةَ في كيس من القُنَّب (هكذا زعمتْ وهي في الخمسين) حتى لا يهتدي جَدّي إلى سبيلٍ للاستيقاظ من الموت». وقد تمكّن «جانو»، بعد شهر، أو أقلّ، من تعرُّفنا إلى «جيْن» البريطانية، أن يستدرجها إلى النَّفخ في بوقِ اللون داخل «مَسْكَن» الطيرين، ليعجّل في

قيامة الصورة: «هذا يوم الحَشْرِ، جِيْنْ. ارسمي الحجلَيْن قبل أن تحجبهما أدغالُ الجنَّة».

ابتلعت «جين» الطُّعْمَ منذ البرهة الأولى لشرح «جانو» أمر طائريه على مسمعها المنجذب إلى لهاث شجرة الخرّوب الضخمة. نظرت إليه جانبياً وهي ترفع ستارةَ شعرها الفاحم عن شفقٍ أحمر في وجهها: «ألديك طائرا حَجَلٍ؟ أووه» همست في نعومة تلألأتْ على شفة الأنثى، حتى أن «جانو» ارتفع عن الأرض شبرين، في ارتداد جسده إلى الخلف، هارباً من رغبة عارمة اجتاحت عينيه: «أمسِكْ بي يا رجل وإلاّ أكلْتُها» قال لي بالروسية فضحكتُ، وضحكتْ «جين» بدورها من ضحكتي.

باتت «جين» تحمل محفظتين كبيرتين من الورق المقوّى، مشدودتين بسيور قصيرة الى كتفيها. إحداهما خاصة برسوم تخطيطية لا تنتهي لشجرة الخروب، والثانية لحفظ رسوم الحجلين. فإذا فرغت فترة ما قبل الظهر من رَغْيِ ألوانها المشتبكة كالجِدَاءِ في ظل الشجرة، انتقلت بعد الظهر إلى مسكن الطيرين، فتسند أوراقَها العريضةَ، القوية، إلى لوح ذي ركائز قصيرة، أمام السياج الذهبي الذي يختال خلفه الحجلان، وتغطي الأرض من حولها بعلب الألوان المائية، والأقلام التي يسرقُ بعضها من البعض الآخر غوايات المشهد. فيما تجلس هي على وسادة، متربّعة، أو تُبعُد الوسادةَ فتجثو على ركبتيها إذا كشفَ اللونُ لها ثغرةً في قلق الورقة البيضاء إلى طمأنينة الطائرين. ولربّما احمرَّت أكثر مما يحتمل احمرارُ بشرتها، في انفعالها بالعثور على تخطيطٍ مُستَسْلم، فيبين حزامُ اللحم المنفلت من جهَتَيْ خاصرتيها، حيث طوقُ البنطال، نارياً يتدفَّأ عليه «جانو» بقلبه، وهو يجلس وراء ظهرها، على بعد مترين، متمدّداً على زرابيَّة شهوانية من نَسْج عذارى القوزاق، ويرتشف كؤوساً من الأوزو القبرصي على مازة من فولٍ أخضر صيفاً، أو من لحم قديدٍ، وسمك مدخّنٍ بقيةَ الفصول المتداخلة بعضها في أقاليم بعض، كأنما هي غزواتُ الطقس ونهبُهُ.

أنا أكون هناك، بالطبع. لي رُكْني قرب «جانو». لكنني أقضي

الوقت متنقلاً بين مسكني ومسكنه. فلديَّ حيوانان جعلتْ ركنَهما على قَدْرٍ من الجاذبية لا أُقاومه. وقد هممت بعض الأحيان أن أدعو «جين» إلى رَسْمِهما، كما تفعل مع حَجَلَيْ «جانو»، ومن ثم انكفأتُ عن ذلك خشيةَ إثارة نعرةٍ ذكُوريَّة في خَلَد جاري. خلا هذا أظنُّ أن ما منعني من مفاتحتها بالدعوة لزيارة ركْن حيوانيَّ أنهما قد يُنَفِّرانها، ويُنَفِّران ألوانَها المائيةَ غير الملجومة قطّ، التي تحوجُها قسوةٌ لا تتمكَّنُ يدُ «جين» من تدبيرها.

الألوان المائيةُ حيواناتٌ متنافرة، لا تقدر إلاّ روح هائلة على ترويض المشهد من أجلها، كي تعبره باندفاع غير مُزاحم، ليعلو غُبارُ أقدامها أَنيساً في حلم الورقة. و«جين»، نَفْسُهَا، ليست إلاّ ورقةً آدميةً، منكوبةً بسحر اللون، يريد «جانو» أن يرسمها على شهوته، طالما لا تقدرُ هي، بِرِقَّتها المُجْحفة، على معابثةِ شجرةِ خرُّوبٍ، أو حجَلَيْنِ، في حقل اللونِ ـ ذلك الحقل الضَّاري الذي تنفخ عليه الريح بأفواه كأفواه البوَّاقيْنَ. غير ان «جين» تستطيع، بصرامةِ أمَلها، أن تتشبث بمرساةِ المشهد، مُعَلَّقةً بين سطحه وقاعه، تتأرجح بالحركة الكبيرة لاندفاع الرغبة إلى حصارها. وهي، في الحصار الصاخب لمراوغات اللون وبطش الورقة، تستدير، أبداً، إلى «جانو»، وإليَّ، معتذرة عن المشهد الذي يخونُه ظاهرُه، وباطنُه معاً، فلا تتمكَّن من إحاطته بدَلالٍ يليقُ بأنثى أن تُهْرِقَهُ على الشَّكْل ليصيرَ، بحقٍّ، شَكْلاً.

أحارُ في تصنيف مقدرة «جين» على الرسم: أهي التي تخونُ اللونَ، أم يخونُها اللونُ وظلالُه؟ الأشكالُ من حول أقلام «جين» مفرطةٌ في بساطتها. مكعَّباتُ الألوان المائية النبيلة تقف على الحياد. شجرة الخرّوب الضخمة متبرِّجة في تمائم ظلالها، ومُقْتَصِدةٌ في الغموض الذي هو من طَبْع الشجر. الحَجلان ليسا مراوغيْنِ: إنّهما رئتان من الريش خلف الشَّبَك الذهبيّ.

الأشكالُ مستسلمة في المشهديْن، لكنَّ تمرُّداً ما يعتمل في السطح الشفيف، الأبيض الساكن، لأوراق «جين».

يد «جين» مُدرَّبةٌ حتى أننا نلمح الثِّقةَ أليفةً كهرّة في عبورها بين أنامل المرأة والألوان. عينا «جين» مدرَّبتان، بذلك النَّهب الهائل من الزُّرقة فيهما، وبما تختطفانه من الفراغ اذا التفتتا لا مباليتَيْنِ. أنفاسُ «جين» مدرَّبةٌ على إبقاء ثدييها ملجومَيْن في سُهْبِ قميصها المتواطىء مع الحرية. شعرُها مُدرَّب على اختطاف الظلال تتّخذُها رهائنَ على شَفَق بشرتها المتمرّدة. جسدها مُدرَّب على التكوُّرِ فوق ورقة الرَّسم، كريح رُخاءٍ، لتلِدَ «جينُ» المشهدَ من جرحها الأزليِّ الذي ينزف منه «جانوَ» دمَهُ الساهرَ.

كل شيء فيها مُدرَّب على الحصار الخالدِ للأمل. ولهذا، ربّما، تُسَلِّمها كلُّ ورقةٍ، في دفاترها الكبيرة، إلى انتظار جديدٍ تخرجُ فيه الألوان على صرامة رغبتها لاهيةً كأطفالٍ: هكذا لا تعود شجرةُ الخرّوب هي شجرة الخروّب، ولا حَجَلا «جانو» هما حَجَلاه. فيتحتَّم على ذي عقلٍ ناقصٍ أن يَصِمَها بقِلَّةِ الدُّرْبةِ، وفَقْرِ الموهبة. وهو أمرٌ لم أُبِحْ لنفسي، ولَم يُبِحْ «جانو» لنفسه، التفكيرَ فيه، على الإطلاق.

«جين» هي «جين». لا يهمّ كمالُ المشهد أو نقصانُه، صحَّتُه أو سقَمهُ، تحت مطارق اللون وسطوة آلاته، داخل قلاع اوراقها. بل الذي يهمُّ أن «جين» وأوراقَها، وعلبَ ألوانها، هي صميمُ المشهد المفتوح على وسْعِهِ. وهذا التفكير، الذي أتداولُه و«جانو»، هو أيضاً من أسباب عزوفي عن دعوتها إلى رسْمِ حيوانيٍّ.

وما الذي تستطيع «جين» أن ترسمه، على أية حال، من وَثْباتِ قِرْدَيْ البابون، اللَّذين أمتلكهُما؟. لا أحبُّ القِرَدة بعامَّة. ثمَّت غشاء لا اريد رَفْعَه بيني وبين هذا الحيوان؛ غشاءُ المَسْخِ القديم الذي ترويه الأسطورة، أمَّا ما هو من أمرِ شَبَهِ أناملِه بأنامل الإنسان فلم أعره، يوماً، رغبةَ المقارنة في مَنْشأِ نوعينا، على مذاهب علوم المشّائين المُحْدَثين، وأسرارِهم الخاصّة بالخمائر، في الشروق الأول للأرض على مغيبها الأخير.

أقرب الحيوانات شَبَهاً بالإنسان هو أبعدها عن خصائصِ شهوةِ

المحنةِ التي فيه. والقردُ، كمقلِّد للشّكل وللحركة الأنسيين، يستفردُ بين الحيوان بإغراق الصورة الأزلية في زُلال المشيمة. فالمقارنات المتسلسلة، التي يمكن الركون إليها ـ بإحالة كلِّ عضو فيه إلى نظيره في الإنسان، وكذلك مدارِكِه الصقيلةِ ـ لا تقرِّبه من الآدميّ، ولا تقرِّبه من الحيوان، في الوقت ذاته، حتى لكأنّه منزِلةٌ من التيه في الخَلْق. وذلك ما نفّرني، أبداً، منه. لكنني اقتنيت بابونَيْن مُرْغماً، بإشارة مهذّبة من إدارة مساكن المهندسين. ومُذ اقتنيتهما جُذِبتُ إليهما، لا بسحرٍ فيهما، بل بما صار يتكشفّ لي، كلّ ساعة من مراقبتهما في الركن الذي قسَّمْتُهُ بيني وبينها بشبكٍ حديد، قاس، من أنهما إفراط في الشَّكل وهُذَاءٌ في المعنى.

لقد اشتريتهما من «سوق السبت». واسم السوقِ يكشف مغاليقَ موقعه في عقد الأيام. فالساحة الكبيرة، المخصَّصة لوقوف الباصات العاملة على خطوط القُرى، تفرغ يوم السبت من الهياكل الضخمة ليتزاحم البائعون على كل شبر فيها، آتين من الضواحي والبلدات القريبة، ببضائع شتّى من الخضروات، والفاكهة، والحَلوى، والمجَفَّفات، والبيض، والأحذية المرتَّقَة، وبكرات الخيطان، والقطانيات، والسكاكين التي بَرَدَتْها المبارِدُ حزُوْزَاً وأثلاماً، ومناكش الحدائق، والعصافير.

فوضى ناعمة تدحرجُ حبّاتِ البندورة من صناديقِ جارٍ الى صناديق جاره. البَقْلةُ الخضراء تتناثر مطحونةً كسهام تدلُّ الخطوات على غير مواضعها، فتختفي الحدود بين خيمة وأختها. فيما تنفلتُ بطاقاتُ الأسعار، المرمية فوق الصناديق، من مجالسها، فتنتقل ـ بأيّما حركةٍ من يد شارٍ ـ لتستقر في مكان ليس لها: بطاقة الإعلان عن سعرِ الموز تتراقص فوق كيس العدس، وبطاقة سِعر التين المجفَّف تثبت قويّةً فوق البرتقال. ويستعير البرسيمُ الرخيصُ ورقةَ سعر التفاح الملتهب، والملفوفُ ورقةَ سعر الكُرّاث. أما الخيار فيتبادل موقعه مع الكوسا، أو يختلطان.

قد تسمع في هذا الحضورِ الرِّواقيِّ لثمرات الأرض خشخشةَ المفاتيح المتدلية من حزام جالينوسَ الطبيبِ، وطقطقةَ آلات قياس النجوم في يد ارسططاليس: كل شيء واضح قرب ساحة المسجد الذي يبعد أمتاراً عن «سوق السبت»، حيث تصطفُّ المركبات متجاورةً، مدمْدِمةً، لاهثةً من امتحان زيوتها المعدنية، كأنها في حَشْرِ رَفَعَ الموازينَ أعلى من رؤوس شجرات الزنزلخت وضجيج آلات النَّجارينَ في البيوت القديمة من قلب المدينة القديم. وعليك، في التفاتةٍ من الجنوب الى الشمال؛ من بوّابة المسجد إلى حاجزِ الجيش اليوناني في الممرّات المسدودة بين الأبنية، أن تهمس: «أَرِسْطُوس»، تلك الكلمة التي تعني «رائع». إنها مِنَّةُ المجاملةِ الناعمةِ حين تشير إلى فخذ ضأنٍ مذبوح، معلَّق بخُطَّاف من النَّوم، أو إلى الرغيف المحشوِّ برقائق لحم الدجاج تتناوله من يد المرأة المبتسمة في كشكها الدائريِّ.

في ما وراء حاجز الجيش ترتفع المتاريس منذ تسع عشرة سنة. وفي ما وراء المتاريس، من الجهة الأخرى، جيوش الأمم المتحدة، المشرفة على تقسيم الله بين شعب من جاليتين، نزح بعضه شمالاً، وبعضه جنوباً، ثم انبثقت من الأرض، بينهما، خنادقُ خفيَّة في الهواء، وأُغلِقَ الفاصلُ المهجورُ بخَتْم العشب البرّيِّ وأوكار اليمام المطمئن إلى الهدنة المتجدّدة سنة بعد أخرَى. والمسجدُ، الذي لم يستطع النزوح مع الجالية التركية، بقي في موقعه قرب «سوق السبت»، مَعْلَماً من معالم التاريخ المسماريِّ الحديث، يؤمُّه وافدون عرب، وباكستانيون، وهنود مسلمون، طَلَبةٌ في معظمهم، يجلسون في ساحته المحاطة بسياج واطىء من الحجر، والنبات المعرِّش المستوحد، الذي تكثر في جيوبه الظليلة موائلُ القطط.

على بُعد أمتار من الجدار الشمالي للمسجد عثرت على قِردَيْ البابون. كانا وحيدين، أغبرين، مربوطين إلى سلسلة من حديد جرى تثبيتها في حلقةٍ ناتئة من مكعَّب إسمنتي ضخم، يجلس إلى جوارها رجل عجوز، في ثياب سوداء تعود إلى عشرينات القرن الإغريقي

الراهن، وعلى رأسه حطّة سوداء، يلف بها نصف وجهه، مما تحت الأنف تماماً، مثل أهالي الصحارى، فيبرز أنفه الكبير ـ بشُعيراته الشُعْثِ، القاسية من الجانبين ـ ثقيلاً في الوجه المتغضّن المُختَجِب.

كان نشازاً موقع الرجل في جوار السوق. يجتمع إليه فضوليون عابرون، ثم ينفضّون من حوله وهم يومئون بحركاتٍ تستثير البابونين فيكشفان عن أنيابهما النَّصلية، ويرتجفان هياجاً قبل أن يُسْكِتهما الرجل الأسود بدمدمة من تحت بَرْقَعِه، كأنما يردِّد اسمين، في وعيدٍ عميقٍ، من كهف صدره.

لم يكن إلى جواره، أو إلى جوار السوق، شخص آخر يبيع القردة. حرَّضت «جانو» أن يسأله من أين جاء بهما، باللغة اليونانية التي فهمتُ طنينَها في السنة الأولى، لكنني لم أتمكن من تنضيد حروف كلماتها على لوح خَيَاليَ. وقد خاب «جانو» في استنطاق الرجل الصامت، الذي رمقني بعينيه الغائرتين في شحم جفنيه العلويين، منذ اللحظة الأولى لوقوفي مع الواقفين أمام القردين.

كان إذا حدَّثه «جانو» حوَّلَ الرجلُ عينيه عن «جانو» إليَّ، فيصفِّقُ الأخير في حركة تهريجية للبابونين، ويرسم بأصابعه إشارات فاحشة، ثم يهرول إلى سوق آخر يجاور «سوق السبت» تماماً، مسقوفٍ بالإسمنت، ليعابث البائعات الفلبينيات في دكاكينهن المتصلة. وهنّ، على الأرجح، أو الأكيد، من المتزوّجات من رجال قبارصة، لأن ليس في وسع امرأة آسيوية أن تتخذ عملاً في دكان بقّال، أو جزّار، أو مَسْمَكةٍ. إنما تستوفدهن الوكالاتُ للعمل ساقيات في ملاهي الليل، أو راقصات، لا غير. وقد ينفذ بعضهن من شِباك الأجْرِ العاري فيتزوَّجن. واللواتي في حوانيت بيع الأجبان، واللحوم المجفَّفة، في السوق المسقوفة بالإسمنت، هن من هؤلاء. لكنَّ لهنَّ طباعاً ممّا تأسَّسن عليه في أخذِ الحياة نَهباً، ما دُمْنَ منهوباتٍ، فيتحايلن بحِيَلٍ لا تتكرَّر مع الشخص ذاته إلاّ مرة واحدة.

إنهنَّ، إذا دخلْتَ حوانيتَ أزواجهنّ الغائبين، بلغةٍ غير يونانية،

سايرْنَكَ في أدبٍ جمٍّ، لكنهنّ يعتذرن إليك من أنهنّ يجهلن أسعارَ اللّبنِ، أو أضاميم الخبز، أو الجبنة. ثم يهرشْنَ أصداغهنّ بأناملهنّ متفكِّراتٍ، متذكّرات. ويقلّصن بين أجفانهن، ويعضُضن شفاهَهنَّ، ثم ينطقن: «أظنُّه خمسين سنتاً.. أظنّ..»، هكذا يجعلن الأسعارَ تقريبية. فإذا رجَّحْتَ، أنتَ، أن السِّعرَ أقلّ من ذلك بخمسة وعشرين سنتاً فإنهن سيوافقنك على الفور، معتذراتٍ: «أووه. خلطنا بين سعر اللبن وزجاجة الماء»، أمّا إذا انطلتْ عليكَ الحيلةُ، ودفعتَ الثمن مضاعفاً، فإنهنّ يتيقنّ أنك غريبٌ عابر، لن تمرَّ من هناك ثانية. فإن حَصَل مرورُك ثانيةً من هناك، وذكَّرتَهُنَّ بما ضاعفْنَ لك من السِّعر قُلْنَ لك إن أزواجهن سيرجعون بعد ساعة، مثلاً، وسيردّون إليك السنتاتِ الناتجة عن «سوء تقديرهنّ». وأنتَ لن تمكثَ، بالطبع، ساعاتٍ في انتظار مجيء ازواجهن، بل ستمضي متأفّفاً، متوعِّداً أنك لن تشتري منهنَّ ما دام ذلك السوقُ قائماً على أعمدة من سُعال الشيطان.

«جانو» يسألهنّ، كلما مررنا بالسّوق المسقوف، عن جدول الأسعار الخفيّ، المكتوب على الهواء: «لو كنتُ يابانياً، بِكَمْ تَبِعْنَني البطاطا؟ ها؟»، يقول ضاحكاً فيضحكن. «وماذا لو كنتُ فلبّينياً مثلكنَّ؟» ويمدُّ يديه متوسلاً: «لن يشتبه زوجُك، يا قبعة رأس ايميلدا ماركوس، باختفاء قطعة خنزير مدخّن»، يقول مقترباً من إحداهن، فتفكّ حزامها العريض عن خصرها، متوعِّدةً في مَرَحٍ: «سأجلدك».

كلهن يعرفن «جانو». ويعرفن وجهي، بالطبع؛ أن الذي لا أعابثهن كصاحبي. بل أقف متبلِّداً حتى ينتهي من غَزَله المقذوف من منجنيقاتِ لغاتٍ أربع: الكردية، واليونانية، والانكليزية، والروسية. وقد صرن ينطقن بكلماتٍ منها، تلك المتكرّرة في غلالاتها الفاحشة، ويبدين لـ «جانو» استياءً خفيفاً من وُجُومي: «من أين جئت بهذا المستحيي؟. خُذْهُ إلى ملهى ليتعرَّف على فَرْج ضاحكٍ»، فيأمرهن «جانو» بالسكوت: «إنّه يفكِّر»، فيسألنه مستخفّات: «كلنا نفكّر»، وتنظر إحداهُنّ الى الأخرى: «ألا تفكرين، سوزي، بما ستطبخينه؟»، فتردّ «سوزي»: «نعم. بالطبخ، وبالجنّة».

«أعني أنه يفكّر، حقاً، في فضيحةٍ» يقول «جانو».

«وهل هنالك من فضيحة، بعد، في هذا العالم؟» تردُّ إحداهن مقهقهةً.

«نعم» يتمتم «جانو»، مضيفاً: «ينوي العمل راقصاً في الفلبين».

أغمي عليهن من الضحك يوم قال «جانو» لهنَّ كلمتَه السحرية عن الفضيحة المزعومة. وكلّما صرنا في السوق، نادينني: «كيف حال الرَّقص في الفلبين؟» حتى أنهنّ سمينني «الراقص الفلبيني»، اما «جانو» فدرَجْنَ على مناداته باسم «كورذوس»، أي الكردي، مذ شرح لهن، على دفعات من زياراته للسوق، أن ثمتَ شعباً اسمه الكردُ، قوياً في اليأس، وفي «النكاح» ـ تلك الكلمة التي لقَّنها إياهنَّ بالكردية، عاريةً كعانةٍ. ولو سمعه والده «رسول إينين»، باصغاءةٍ خفيفة من سهول «أضنة»، لهمس في أذني «جانو» همسةً رطبةً كهواء السوق موبّخاً: «صحِّحْ لهن قليلاً، وقلْ إن الكُردَ لا يتشكّون كثيراً حتى لا يزعجوا الله».

قلت إنني عثرت على قردي البابون في خلاء صغير يجاور المسجد الهَرِمَ. وكان عليّ شراؤهما كيفما اتّفق، لأنني نُذِرت من بين المهندسين أن أُعنى بهذا الصِّنف من الحيوان. وكانت إدارة المساكن على عجلة من أمرها في ذلك، كأنني آخرُ من تبقّى غير مستوفٍ شرطَ سكنه، وكأن اقتناءَ قردين هو، بدوره، آخرُ حلقة في استكمال اللائحة الحيوانية. ثم قيل لي بالسَّعي إلى «سوق السبت»، إذ ليس في هذه الجزيرة الطافية على فوَّهة من النحاس العريق مكان آخر تُعرض فيه قِرَدة. بل لم تُعْرَض قِرَدةٌ في أي مكان منها، حتى في ذلك السوق، قبل ذلك. ولم تكن الحكاية تحتاج شرحاً لأفهم أنني على موعدٍ محبوكٍ كالمصادفة مع قَدَر الحيوانيْن.

حين كان اسم هذه الجزيرة، في شَفَق الكتابة المسمارية، «آلاسيا»، وكانت هي منذورةً لهبوب النحاس في باطن صخرها، وفي

الصدوع الظاهرة لمنحدرات جبالها، عبرتْها سفنٌ كثيرة محمَّلة بشجر الأرز، وصباغ الأرجوان، والحجر البازلتيّ، والصمغ، والجاموس، والفيل، والببغاء، وقرد واحد من البابون. وُجد رسمُه محفوراً على لوح حجري في «كريت»، تحته سطر مبعثر من الحروف قَدَّرَ المدقّقون في مغاليقِ العوالم أنه يشير الى تحية يبعث بها نحّات قبرصيّ إلى والٍ في «كريت»، حُمِّل إليه اللوحُ والقردُ معاً: اللوح إعجابٌ بالحيوان الذي عَبَرَ «قبرص» آتياً من مساكب الغبار الأفريقي.

ربما كان القرد العاديُّ، الشبيه في ملمح وجهه المستدير بالغوريلا، والشمبانزي ، والهبّار، والشُّقُ (أيْ: الواسع المنخرين)، مألوفاً في تلك الأصقاع، ينقله الولاةُ من الثغور الافريقية إلى بلاطات الملوك للترفيه، كحيوان مقلِّد لحركة الإنسان على نحوٍ ساخر. لكنَّ البابونَ صنفٌ آخر بوجهه الذئبي المستطيل، وعينيه الآدميتين المسعورتين، وأنيابه الخنزيرية. يُؤتى به مكمَّمَ الشّدقين. وهكذا كان حال البابونين اللذين امتلَكْتُهما.

قلت لـ «جانو» أنّ ما من قرود غير هذين، فلماذا نلفُّ وندور، يوماً بعد آخر، على صاحبهما، ونحن نؤجّل الصّفقة؟ «أره نقوداً وسيَفْهم، ما دامت لغتُك لا تستدرُ من الرجل إلاّ نظرتَهُ الكِهانيَّةَ إليّ». ففعل «جانو» بالذي أشرت عليه، أخيراً، فأرى الرجل نقوداً مفرودةً، ورقةً ورقةً، كمروحة تايلاندية، وهَمْهَم بالروسية: «صاحبي يريد بَرَكَتَك ليتزوَّج هذين الملاكيْنِ». فتطلَّع العجوز ذو البرقع إليَّ كعادته، في جلسته متَّكئاً على المكعَّب الإسمنتيّ المسكون، فتقدمتُ بنفسي منه، ناظراً إلى عينيه استنطقُهما بتحديقٍ فظّ. إذْ ذاك نهض الرجل، مُذرِكاً نفاد فضولي، ومدَّ إليَّ بالرَّسنين الجلديين، اللذين ينتهيان إلى طوقيْنِ في عنقَيْ حيوانَيْه، فأخذتهما بحركة لا تفكير فيها، بينما انحنى العجوز المتلفّع بسحابة ثيابه السوداء على السلسلة الحديدية يحرِّرها من الحلقة النافرة في مكعّب الإسمنت، فتحرَّر البابونان المكمَّمان بقُمْعَيْن من الجلد ذي الخروم.

طوى الرجلُ السلسلةَ الحديدية على ذراعه، وفي بساطة صَعَقتني، وصعقتْ «جانو» نفسَه، استدار متجهاً صوب المتراس غير البعيد، الذي تهرّأتْ أكياسُ الرمل فيه، وغاب في زقاق يفضي آخرُهُ إلى برج استطلاع من أبراج قوات الأمم المتحدة.

حين انمحى الشَّكلُ الأسود، الذي تتبَّعْتُه برؤيا غامضةٍ صَعَّدَتْ قلبي إلى حدقَتَي عيني، جذبني واقعُ الحيوانين إلى حالي: كانا يقعيان قرب ساقيَّ هادئين، مطمئنين إلى رفقتي، دون نأمة تدلّ على افتقادهما صاحبهما الذي تولى، فأخذتني الحيرة من فجاءةِ ما حصل. وقد توسَّلتُ بعينيَّ، وحَرَجي أمام المارّة، إلى «جانو»، فرأيته على حَرَج بدوره. لكنه تدارَكَ نفسه فأومأ إليّ: «لا تضطربْ. سأستوقف سيارةَ أجرة» واستدار عائداً إلى الشارع الموازي لبّوابة المسجد كي ينصب كميناً لسيارةٍ ما تنقذنا من المشهد الذي يذوِّبنا في بلّوره الشفيف كفضيحة من سُكّرٍ وملحٍ، بينما ظللتُ، أنا، على حالي من الامتثال لحيرةٍ جعلتني أتطلّع إلى الحيوانين فحسب، متفادياً نظرات المارَّة الذين تصدمني ظلالُهم في اقترابها وابتعادها.

بُرْهاتٌ ثقيلةٌ كمَّمتني كما الجلد الذي كمَّم البابونين، حتى أنني فكرت في إلقاءِ رَسَنيهما من يدي، والعودة إلى إدارة مساكن المهندسين صارخاً في وجه «ميكاليدس» ذي الجمجمة الحمراء: «أنا راحل». لكنْ لَجَمني ما تفكّرتُ فيه: أرحلُ إلى أين؟. وتحسَّست جبيني فإذا به مبتلٌ بارد. ثم أيقظني من حَرَجي صوت «جانو» هاتفاً من نافذة سيارة أُجرة: «هيه.. أسرعْ». وما كدتُ أحزم أمري لعبور الشارع، حتى علا صياحٌ بين «جانو» والسائق. وكاد الصياحُ ينمو إلى شجارٍ قبل أن ينزل «جانو» من العربة مُصَفِّقاً بابَها من خلفه، وهو يمسك بخصيتيه تدليلاً على الحَنَق الذي هو فيه.

فهمتُ من حركته أن سوء تفاهم صاخباً خيَّم على الهيكل الحديديّ للسيارة، فبقيتُ متجمداً في الجهة الأخرى من الرصيف، ناقلاً الرَّسَنَيْن الجلديين من راحة يدي اليمنى الرطبة إلى يدي اليسرى، فيما

أشار إليَّ «جانو»، من مكانه: «سأجدُ سائقاً آخر»، ولم ينتظر ردّاً مني، بل مضى في خطواتٍ غاضبةٍ إلى الشارع الموازي لواجهة المسجد يقتنصُ، من جديد، عربةً تنفثُ أحشاءَها على شكْلِ دخانٍ وأنينٍ.

تكّررتْ محاولاتُ «جانو» أربعاً، ثم تهدَّل ظلُّه في الجهة الأخرى المواجهة لي من الشارع. رفع ذراعيه كمن يصلّي، وتشهَّد بصوتٍ عاصفٍ: «لا إله إلاّ الله..»، حتى أنّ بعض المارَّة التفتَ إليه مبتسماً من يأسِه المُضحك. ثم ابتسمتُ، بدوري، من شدَّة وقع خبر «جانو» عليَّ: «ما من سائق يقبلُ نَقْلَ قردين، يا رجل»، قال وهو يمسّد على شاربيه، ثم أشعل لفافة تبغ ونفخ دخانها على وجهَيْ البابونين: «دَخِّنا معي يا ملاكيَّ. هذه لفافة ذات فِلْتر لم يشهد مثلها أبواكما»، ومطّ شفته: «منذ متى تنتقلِ القردة في سيارات؟. تعال» قالها لي ممسكاً بكمِّ قميصي من العَضُدِ: «فَلْنُرَفِّهْ عن هذا العالَم، يا رجل».

مشى «جانو» أمامي بخطوتين، ومشيت من خلفه يتهادى إلى جِواري الأيسر البابونان، متلفتين إلى المارَّة في خُيلاء فتحت أحجارَ المدينة أمامنا ممرَّاتٍ لا إشاراتٍ ضوئية للسّير فيها، ولا مُنْعَطَفاتٍ، بل رَمْلٌ وهبوبٌ لغبار خفيفٍ يتخذ شكل أشجار، وبوّاباتٍ، وبشر شاحبين كالتماثيل، ذوي أعضاء ضائعة.

كنت مُطْرقاً لا أنظر إلاّ إلى قدميَّ، وأقيسُ الجهاتِ خلسةً من وقت إلى آخر لأتَّخذ، من خلف «جانو» وجهةَ مساكن المهندسين. ولمرّة واحدة عاينتُ صاحبي الذي استدار إليَّ، كأنّما أحسَّ بإسراف أعماقي في حَرَجها، فإذا بقميصه مبتل بالعَرَق في خط مستقيم على طول عموده الفقريّ. تمتمَ: «تلزمنا كمّامتان ككمّامَتَيْ هذين الملاكين» مشيراً إلى الحيوانين، ورمى بعقب لفافة التبغ عالياً، فانحدَر بعضُ رمادها من الأعلى على شعري.

الشوارع تميع، والمحلاّت المختلفة تتداخل كألوان «جينْز». الثيابُ المعروضة تخرج من الواجهات الزجاجية طائرةً أَعْلاماً. اللحوم، والأشربةُ، وساعاتُ اليد، والمحافظُ الجلدُ، والأحذيةُ شَتَّى، والمغاسِلُ

الكهربيَّة، والدُّمى، وعرباتُ الأطفال، وثياب النساء الدَّاخلية، كلُّها تصير غيمةً بعلوِّ أمتار قليلة فوق سماء الممرّات التي نعبرها. فيما يتوافد من المنعطفات الجانبية رجال يحملون أبواقاً طويلة من المعدن. يتحلّقون من حولنا في فوضى، ثم يفتحون الحلقات مُهَمْهمِيْنَ كي نَمُرَّ. طفل في ثياب غبراء يجتاز حلقةَ الرجال إلينا، ثم يرمي إلى «جانو» بمثلثٍ خشبيّ مُرَقَّم، ملتصق بقرص دائريّ من التوتياء يتوسّطه سهمٌ من حديد أسود، وكلاهما أشبه بآلة استخدمها الأقدمون لقياس منازل الأبراج، ومكامن المجرّات، ومواقع أبواب الدَّهر في الفراغ الكرويِّ لفلسفة الرَّقم الضائع (وهو عِلْمٌ مُسْتَنْبَط من تأويل الدَّهريِّيْنَ للحروف).

قادني «جانو» كي يختصر مسافة الكابوس، إلى حديقة المدينة المتصلة، جنوباً، بمجرى نهريٍّ غائرٍ في ظلال شجر الكينا، يمكن اتخاذُه دَرْباً يخفى على أعين الفضوليين. ولمّا دخلنا الحديقة، من الممشى الحجريّ وسط صفَّيْن نخيلٍ وسروٍ، راعنا الصراخ المختلط لببغاءات ذوات أذيال طويلة، تتطاير طيراناً ثقيلاً، قصيراً، ثم تتخبط بالغصون، مصفِّرة بألسنتها الملتوية في مناقيرها، كأنما أُفلتتْ من أقفاصها الكبيرة بعد جوعٍ، فاهتاج البابونان، وصارا يضربان الطيور بأيديهما فتنبعث مع كل ضَرْبة شراراتٌ من لهب الريش، وصيحاتٌ باردةٌ يتلاطم فيها كلامٌ مُهَشَّمٌ، مبتور الحروف عشواءً، كالعَجْمَةِ في فم آدميٍّ أبكم.

لزمني جهدٌ كي ألجم البابونين، بشَدِّ رَسَنَيْهما وبالصياح معاً، حتى اجتزنا ممرَّ النخيل والسرو، فإذا مَخْرَجُ الحديقة الجنوبيُّ الواسعُ مقفلٌ، يسدُّه جواد هائل من النّحاس، ذو عرْفٍ إغريقي مقصوص، وملء هيكله نوافذ ضيقة، متوازية على طوله كنوافذ قطارٍ بأربع طبقات، تتأجَّج في صفَّيه العلويين نيرانٌ من ذهب، لا دخان لها، فيما يدخل الحَمامُ الصفَّيْن السفليين من النوافذ، دون فزع قط، في حركة عادية كأنه في برجٍ آمن من أبراج الطين أو جحور القرميد الكثيرة بين المنازل. غير أن شخصاً رثَّ الثياب، طليق اللحية كمشرّد، قفز من فوق السور إلينا

راكضاً في لهاثٍ، ثم فتح لفافةً ورقية عريضة، وواجه بها عيون البابونين، مثقلاً بتوسُّلٍ حزين طَفَر مع العَرَق على جبينه المثلوم.

أجفلني أنه يشبه «ميلان»، شاعر الكلمات الزاحفة على جليد موسكو في اتجاه الإنسانية المعذَّبة من ثِقْل إرثها، فكدتُ أهتف باسمه، لولا ردَّني ان المصادفات ليست صفيقة إلى هذا الحدّ، وأن الجزيرة، التي هي قياسُ البحر في توازنه ـ جزيرتي هذه، صغيرة على إحتمال اقدارٍ مذعورة أكثر مما في جيب بنطالي وبنطال «جانو»، إضافة إلى الصَّدْع الأزرق في صفحة نحاسها منذ تسعة عشر عاماً. لا. هو يشبه «ميلان». مهموم مثل «ميلان». نسيَ، مثل «ميلان»، متى تناول آخر وجبة في بحثه عن الكلمات لا عن الحساء. عيناه شهوانيتان على ضَرْبٍ من اليأس مثل «ميلان». ساخرُ الأخاديد في وجهه مثل «ميلان». ملقى على غفلةٍ من الحياة إلى فراغ المشهد مثل «ميلان».

«جانو»: هتفتُ، دون أن أرفع بصري عن الرجلِ المُمْعن في عَرْض ورقته الكبيرة أمام أعين البابونين، الغائمةِ بشَكٍّ قَدَريٍّ. لكن «جانو» كان، بدوره، يتأمّل الثياب الرَّثة للهيكل الذي اعترضنا طائراً من فوق السور إلى الممشى، وهمهَمَ بكلمةٍ أظنني تلقَّفْتُ من حروفها رنينَ اسم «ميلان».

لا. لم يكن الرجلُ شاعرَنا المنطلق إلى فجر الإنسان الجديد بمنطاده المثقوب، وهو يرمي شَعْرَ عانات نسائه على أقواس قزح تُجَلِّلُ الفتوحَ الكبيرة لآمال المدحورِيْنَ. بكلماتٍ قليلة بدَّد الإشكالَ: «خُذْ كُرَةَ النحاس» تمتم متوجهاً بألفاظه اليونانية إليَّ، فلم استوعب غير «خُذْ كُرَةَ..»، أما الكلمة الثالثة فضاع عليَّ معناها، فاستنجدتُ بـ «جانو» الذي فسَّرها كاملةً: «يقول لك: خُذْ كُرَةَ النحاس».

«أية كُرَة؟» تساءلتُ متلفّتاً حولي.

«لا تنظرْ إليه» هتفَ بي «جانو».

«ماذا تعني؟»، قلتُ مرتبكاً من إشارته.

«لا تنظرْ إليّ، أيضاً»، قال «جانو».

قبضتي باردة على الرَّسن الجلديّ. قلبي بارد. لماذا يريد مني «جانو» ألاَّ أنظر إليهما؟. لن أنظر إليهما، بل الى البابونينْ ذَوَي العيون الغائمةِ بشَكٍّ قَدَريّ. ولكي أتفادى وقفةً باردةً في مهبّ أسئلتي التي لم أنطق بها، عمدتُ إلى السور الحجريّ الذي يبلغ صدري فارتقَيْتُه وارتقاه معي البابونان، ثم نزلنا في خفَّة إلى الشارع المجاور، ليتبعنا «جانو» بدوره. لقد سمعت سعالَهُ بعد القفزة، وشتيمةً رطْبَةً كلسان الخنزير.

ثمت هضبة صغيرة صعدناها بانحرافنا غرباً عن الشارع. وبعد تسعة صفوف من شجر الصنوبر الأسود، انحدرنا، جنوباً، في اتجاه سور مساكن المهندسين، التي دخلناها من البوابة القوسية، سالكين الممشى الرمليّ الذي يعترضه مكتبُ الإدارة الطولانيُّ البناء. وقد كان «ميكاليدس» الأحمر الجمجمة جالساً، كعادته، خارج المكتب، على كرسي قصير القوائم، أمامه منضدة نتسع «لطاولة زهر» مرصَّعة بمثلثات من العاج، ينظر إلى النَّرْدَيْنِ الأبيضين في استغراق، كأنما يلاعبُ شَبَحاً ذا حظٍّ ساخر. ولما بَلَغْنا جهتَهُ انعطَفْنا نستدير يميناً إلى حيث ينعرجُ الممشى ليتَّخِذَ خطَّه المستقيمَ في اتجاه الساحة، فنادانا الرجل: «هيْنِهْ..». التفتُ و«جانو» إليه، متوقّفيْنِ، فاسترسل ذو الجمجمة الحمراء بلغته الانكليزية الممسوحة الحروف: «ليسا كما توقَّعْتُهُما»، ومسح براحة يده على عينيه المستغرقتين في الحظوظ الماجنة لأرقام نَرْدَيْهِ.

قلتُ بصوت فيه إهمالٌ متعَمَّد: «وماذا توقَّعْتَ أن يكون عليه قردان؟».

هَرَش «ميكاليدس» جمجمتَه: «إنهما جادَّانِ، لا يلقيانِ النّكات»، وابتسم، ملتقطاً نردَيْه من الصفحة الخشبية لـ «طاولة الزهر»، ثم كوَّر قبضته عليهما ونفخ عليها مِلْءَ فمه: «أليس لديكم شجر ناطق؟».

كان يعنيني بمزاحه. بيد أن «جانو» دخل على الخطّ بيننا، متوجهاً

إلى «ميكاليدس» بكلمات روسية: «لدينا صُفُنٌ ناطقة»، وكوَّر راحةَ يده نافخاً عليها كما فعل «ميكاليدس»، مضيفاً باليونانية: «إنها بحجم الكفّ، وتتحدَّث بسبع لغات»، ثم قهقه، فلم أتمالك نفسي من الضحك بدوري. أما «ميكاليدس» فأشار علينا أن ننصرف، بحركة مرحة من يده وملامح وجهه، ليعود إلى استغراقه في الهاوية المطعَّمة بالعاج وبالصَّدَف البرَّاق.

أسْكَنْتُ البابونيْنِ رُكْنَهما الجاهز لصق مسكني. ثم قسّمت الركنَ بفاصلٍ من سياجٍ شبكيٍّ: نصفُه لخلوتي ونصفٌ لخلوتهما. مددتُ على الأرضِ حصيراً دائرياً من صناعةِ «معهد العميان»، ذا مربعاتٍ زرقاء في سطح أصفر. ووضعتُ في الزاوية اليمنى للرُّكن، من جهة المدخل، مخدَّتين اسطوانيتين كحشايا مجالس المماليك في صور الرَّحَّالة. ومن الزاوية تلك تعاقبتْ أعماقي على استطلاع أعماق البابونين، مدى سنواتي التسع في مساكن المهندسين، دون أن يبدُرَ منهما نزوعٌ إلى إنجابٍ، أو أسأل نفسي لماذا هُما عفيفان إلى ذلك الحدِّ الغامض: يأكلان، فحسبُ، ويتشاجران أحياناً في غضبٍ فظٍّ، ثم يجلسان قبالي، وراء الشَّبك الفاصل، يتأمَّلان الحقيقةَ الجالسةَ إلى جواري منحنية على ورقٍ خشنٍ ترسم عليه هُذَاءَ المعنى الذي في شكليهما.

علَّقتُ خناجري، ومُداي، إلى الحائط في صفوف منتظمة، داخل الرُّكن، مثبَّتَةً إلى ألواح طولانية، رقيقة، من خشب الزَّان. كما علَّقتُ جِراباً من القماش، فارغاً، عليه نقوش إغريقية، عَلَّني أتمكَّن ذات يوم من وضع كتاب «التأسيس الكبير» فيه، إذا تسنّى لي تهريبه من تخوم دجلة. وزيّنتُ المساحاتِ البيضاءَ المتبقيةَ، في الحائطين المتقابلين، بصور تمثِّلُ مشاهدَ ثلجيةً شتّى: ثلج مستقرٌّ على أفقٍ سهليٍّ، وديعٌ، يغري بالركض فيه حتى النوم؛ ثلجٌ يهطلُ على غابة ساكنة؛ ثلجٌ يدفِّىءُ قمم جبال ناتئة، جرداء، موحشة؛ ثلج كصفحة لم يَخُطَّ عليها أثرٌ بحبرهِ؛ ثلجٌ مطحونٌ، ممزَّق، في أروقة قرى تتطاير فيها البغالُ والعرباتُ الخشبية.

عَنَّ لي أن تلك الصوَر المُسَطَّرةَ باليقين البارد لثلج الله تريحُ أبصارَ البابونين، وتبعثُ رطوبةً في طباعهما الجافَّة. كما أن الثلج، كتأسيسٌ أوَّل للفراغ المستغرق في ذاته البيضاء، يجمعني - مهما كنتُ مُشَتَّتاً - في ثِقَلِ نَفْسي، حيثُ الخيالُ يؤكِّدُ الإعجاز، ويستقرُّ بي واقعاً.

أنا واقعيٌّ في اطمئنان مخيّلتي وحدَها إلى فتنة الخيال، ودهاءِ رُسُله الميسورين. والثلج، على نحوٍ ما، يتمّم اليقينَ الدافىء في لُغْزِ أن تكون الجهاتُ مترامِيةً حتى أبعدَ كمالٍ مُحْتَملٍ للبُعْد. بل أظن أن الثلجَ هو المخيَّلةُ استقرَّتْ مَشْهداً. ولهذا، ربّما، أشركتُ البابونين معي في اقتسام أُفُقٍ ليس لي، ولكنه ليس لغيري أيضاً، حتى يغدوَ مجلسنا - في الرُّكنِ الخاص بهما لصقَ مسكني - على قَدْرٍ من الاحتمال: هما يقلِّدان رؤايَ وأنا أستعيرُها منهما.

إضافةً إلى هذا الترفيه أغدقتُ عليهما بالأطعمة ما فاقَ تكاليفَها المخصَّصة من إدارة مساكن المهندسين. كنتُ أنفق من دَخْلي أيضاً، ليكونا لائقين في أعين النحّاتين القادمين لتصوير الحيوانات جميعاً.

على كل مهندس أن يُبقي حيوانيه على أتمِّ عافية ليتمكَّن النحّاتون من التقاط الخَلَجَةِ الأبعد من الشكل: هذا ما نبَّهتنا إليه إدارة المساكن بإصرار، حتى أنني سمعتُ، في ما بعد، بطَرْدِ مهندس من جامايكا، وآخر من البنغال، وثالث من هندوراس، وامرأة من جزر موريشيوس، وراهبة صَهْبَاء، نمسوية، كانت تركتِ السِّلك الرُّهباني وخاضت في الهندسة حتى ثدييها الذائبين من وهج يقينها. وقيْلَ فيهم إنهم أهملوا، بتفاوتٍ، رعايةَ حيواناتهم، التي رفع النحّاتون تقاريرهم العنيفة فيها إلى الإدارة: «كيف يجري هذا تحت بَصَر إدارتكم؟ حيوانات قَلِقَةٌ في منازل هؤلاء، لا طاقةَ لحجارتنا باحتمال صُوَرِها».

منذ البداية تواترتِ التبليغاتُ، واحداً تلو الآخر، على أوراق رسمية ممهورة بخَتْم إهليلجيٌ يُمَثِّل مجازاتِ الكون الأربعة: الفراغَ، السكونَ، السديمَ والثِّقَلَ. كما وصلتنا التبليغات شِفَاهاً، أيضاً، وفي

كلّها تنبيه صارم إلى أن النحّاتين مخوّلون ـ بالثقة التي محّضَتْها إياهم هيئةُ مجلس العمارة ـ أن يرفعوا تقاريرَ لا تُدْحضُ مضامينُها. والصّرامةُ التي أُسْبِغَتْ على الموضوع، برمَّته، مُحّصَتْ على أوجُهها، لأن المنحوتات ستُرْفع ـ في أقصى كمالٍ يقدرُ الحجرُ على استنطاقه من الروح الحيوانية ـ إلى فضاءِ المتحفِ ذي الجلالِ المحبوكِ على هيئة سفينة. وأيُّ تقصيرٍ، إذاً، من لَدُن المهندسين في رعاية حيواناتهم، تجعل من المتعذّر على النحّاتين أن يتخذوا تلك الحيوانات مثالاً في عراقة الشكل ليستقصوه بأزاميلهم في الفراغ الصَّلب للمعنى.

النّحاتون ليسوا رسّامين. هذا ما استشرفْتُه في إطلالتهم الأولى على مساكن المهندسين. غير أنني أمضيتُ وقتاً هيَّجَ القلقَ فيَّ، فلم أثِقْ أقادرٌ أنا على عبور امتحاني في هذين البابونين، حتى قُيِّضَ لي أن يبتسم النحّاتُ البدينُ، الذي زار مسكني وعاينهما طويلاً بعينين برّاقتين، فأيقنتُ بالفرج متبوعاً برَخاءٍ في البال. إنَّما ظللتُ على تحفُّظٍ في دعوة «جين» إلى رسمهما على غرار ما تفعل بطائرَيْ «جانو»، الغوّاصيْنِ في موجِ ريشهما. لكنَّ «جين» اقتحمتْ، برجاءٍ خفيفٍ من قلبها وعينيها، رُكنَ البابونين، ذات يوم لم تجد فيه «جانو» ـ بالرغم من موعدٍ مدوَّن في مفكِّرةِ جيبها المُغلَّفَةِ بقماشٍ هنديٍّ ـ ينتظرها كعادته، فانساقت إلى مسكني متأبطة دفترها شراعاً يقودُ اللونَ إلى حروبه.

فتحت البابَ، حين قرعتْهُ «جين»، على شَفقٍ أحمر في وجهها، ورموزٍ زرقاء كوَّرتِ البحرَ حجريْنِ صغيرين أُلقيا في مدارَيْ عينيها الكوكبيين. ارتبكتُ قليلاً. دعوتها للدخول وأنا أفسح لها بقدميَّ ممرّاً بين كُراتٍ معدنية تمثّل مجرّة «الفَرَس الأعظم»، كنتُ حاولتُ توزيعها بحسب ما ستكون عليه في شهر آب، داخل قوس الفَلَك الأفعوانيّ التاسع. جَلْجَلَتِ الكراتُ في تناثرها كأطفالٍ بوغتوا. قلت: «اجلسي» وأشرتُ إلى كرسيٍّ وراء منضدة عَمَلي في الغرفة. اعتذرَتْ «جين»، وهي تلقي نظرةً على مُجَسَّماتٍ من ورقٍ مُقَوّى لها أشكال جُسُورٍ، وقبابٍ مائلة: «أأستطيع رؤية البابونين، إذا لم يكن في الأمر إزعاج..»،

فقاطَعْتُها: «خذيهما إنْ أردتِ»، وضحكتُ من مبادرتي، بينما اكتفتْ بابتسامة مهذَّبة.

قُدْتُها من باب مسكني مسافة ستة أمتار لنصير أمام باب رُكْنَيْ البابونين الخشبي العريض. فتحتُه على مصراعيه ليندلق النُّورُ عاصفاً إلى الداخل المعتم. رائحة شجيرة الحبق طغت على رائحة الفستق الإفريقي. شعاعٌ خفيف كَنَفَسِ الضَّبِّ بلَّلَ معادنَ الخناجر والمُدى المعلَّقة إلى الحائط. استيقظ الثلجُ في الصّور فائتَلَق السكونُ ببياضه. هَمْهَم البابونان بلغتهما السديمية، فيما جثتْ «جين» على المخدَّة الاسطوانية، ووضعت دفترها الكبير، في هدوء، على الأرض، كسجّادة. استدارت إليَّ بعينين معتذرتين، من جديد، لكنهما تفصحان أن إغراءَ المشهد يشفعُ لها التصرُّفَ في بحبوحةٍ. قلتُ: «أتشربين شيئاً؟ شاياً، قوةً؟»، ردّت: «كأسَ عَرَقٍ. ألديك عَرَقٌ؟» وزمَّتْ شفتيها لا تريد إحراجي. قلت: «أحتفظُ بقليل منه، دائماً، لجانو». وعدت أدراجي إلى مسكني أُهيّىء لها الروحَ البيضاءَ أسيرةَ رائحة اليانسون.

حين عدتُ إلى رُكنَيْ البابونين كانت «جين» منتصبةَ الجذع وهي ما تزال جاثية على ركبتيها. في يدها اليسرى أقلام ملوَّنة أربعة، وفي اليمنى قلمُ رصاص رفعته عن الورقة بعدما دوَّنت تخطيطاتٍ ناقصة. وقد تهيَّأ لي، في هيأتها الفضولية المستوفَزَة، أنها تشبه أنثى البَشْرُوْش قبل طيرانها الثقيل.

لا يملُّ «جانو» من تشبيه الكائنات بطائر البَشْرُوْش ـ ذلك الفصيلِ الرَّزِيْنِ من نوع اللقالق، والنَّحام، والكراكيِّ، والرَّهْوِ، وما دخلَ في فَلَكها من مجرَّاتِ الطير ذي الأعناق الطويلة، والسيقان السُّنبيَّلة: «البَشْرُوْش لا يأكل إلا بعد عبور ثلاثة جبال في طيرانٍ متَّصل. يحطُّ في سهل، بعد ذلك، يومين. يتصيد الحنكليسَ من أيّما نهرٍ، أو بِرْكة، أو بحيرة. وجبةٌ واحدة. حنكليسٌ واحد لا غير، ثم يطير من جديد، عابراً ثلاثة جبال»، يقول «جانو».

حكاية عادية عن عادات طائرٍ، لكن «جانو» يختلقُ حكمةً من لُغزِ

تشبيهه الكائناتِ بالبشروش: «إنّه لا يموتُ. يَنحُلُ في طيرانه ـ إذا كانت الجبال اكثر اتساعاً من صبره على الجوع ـ حتى يتلاشى»، ويعمّقُ تخطيطه المُبْهَم عن السيرة السريَّة لطائرِهِ: «ما من أحد عثر على عظام البشروش، قط. حتى متاحف الحيوان هذه..» مشيراً بحركة من رأسه لا تدلُّ على اتجاه: «ليس في حدائق العظام، التي تتوسَّع في استيرادها من أقاليم الأرض، ساقٌ واحدة لبشروش، أو منقار، أو فقرةُ عُنُقٍ، يا رجل».

لا أعرف ما الذي أوحى إليَّ أن هيئةَ «جين»، في جُثوُّهاالمستوفَز، لها صلة بهيئة أنثى البشروش قبل طيرانها. ربّما هي المطابقةُ الناقصةُ لخيالٍ مثل خياليَ، تَنسَحِلُ الموصوفَ إلى ما ليس فيه. لا أعرف. كلّ ما هنالك أن «جين» كانت هائمةَ العينين في مواجهة الشَّبَك المعدني، ولمّا انزلقتُ ببصري عنها الى البابونين أدركتُ إغراءَ المشهد الطاغي: أنثى البابون منهمكةٌ في تخطيطاتٍ عشواءَ على ورقة بيضاء، بقلم أخضر، فيما الذَّكَرُ ينقُل نظَرَهُ، بتواتُرٍ منتظم، بين ما ترسمه أنثاهُ ووجه المرأة البريطانية، التي لا بُدَّ مَرَّرتِ الورقةَ والقلمَ إليهما من ثغرات الشَّبَك الواسعة قليلاً.

كانت أنثى البابون تعمد، في حركاتها، الى تقليد «جين» على الأرجح، حتى بعدما توقفت «جين» عن تدوين تخطيطاتها. لكن حركةَ الذَّكَر كانت ذات سطوةٍ على المشهد، بتلك الجسارة الغامضة في انتقال بصره الزُّجاجي من الورقة إلى «جين»، ومن «جين» الى الورقة.

تقدَّمتُ من الشَّبك أستطلع، عن قرب أكثر، ما تفعله أنثى البابون، محاولاً تخفيف الجاذب الثقيل في الموقف الذي يُبَلْبِل الدَّم والتفكير معاً على نحوٍ لا يصدُم، لكنَّه يُجَفِّل ويُرِيب: لا شيء لافِتٌ في التخطيطات العشواء للقلم الأخضر. صرير خافت يقطعُ الورقةَ الخشنة، الكبيرة، تحت أنامل القِرْدَة، وهي تسوق القلمَ، في تؤدة، من جهة إلى أخرى طولاً، ثم تكرِّر الخطّ نفسَه في توازٍ مضطربٌ، ثم ترسم دوائرَ تضيق وتتَّسع، دون تناغم في تجاورها، فوق الخطوط الطولانية. وتقف

يدُ القِرْدَة أحياناً، من غير أن ترفع القلم عن الورقة، متأمِّلة تأمُّلها الحيوانيَّ في نقطة الوَقْفِ، كأنما تسقطُ أناملُها في حيرة فلا تعرف أين تتّجه بعد ذلك.

لحظات خفيفةٌ مرَّتْ هادئةً مجوَّفةً تنتظرُ امتلاءً ما، قبل أن أرتدَّ عن الشَّبَك المعدني إلى الوراء، أربع خطوات، مقذوفاً من ضوء الدَّاخل إلى عتبة الباب على الأرجح. فيما التصق ظهر «جين» بالحائط، وهي جالسةٌ، خائرة الركبتين فلم تنهض: لقد زعزعَ قلبينا صراخُ البابون الذَّكَر، وهجومُهُ على السياجِ الفاصل أرضَ الرُّكن، متشبثاً به كأنما سيخلعهُ، وهو يعضُ على الأسلاك القوية حتى ظَنَنْتُهُ سيقطعُها.

إنَّه الهياجُ الأكثر ضراوةً: زَبَدٌ في الشّدْقين. لسانٌ كالشَّبَق. سُعارٌ يسيل مع اللُّعابِ لزجاً، والعينان الزُّجاجيتان تخرجان من محجريهما العميقين فتصيبان كبدي وكبد «جين».

لا هياجَ يُسمَّى بعد هياج البابون، الذي خطفَ اللون من كل شيء في الرُّكن الواسعِ: لم أرَ نَفْسي في مرآة، تلك اللحظة، بالطبع. غير أنني كنتُ مُهَلْهَلاً على الأرجح. شَعْرُ جسدي منتصب، ولحمي متشبّث بعظامي في التفافاتٍ أفعوانيّة. فكِّي الأسفل متهدِّلٌ، وعيناي مغشيَّتان عليهما. صُور الثلوج على الحائط أسقطتْ ثَلْجَها. الجدرانُ انحلَّتْ، وسالتْ «جينُ» على ورقها فضَّةً باردةً. تملْمَلَتِ الألوان في دفترها الكبير، ناهضةً كقطيع من جواميس رمادية، ثم ارتدَّتِ الجدرانُ نَفْسُها كلٌّ إلى بُعْدٍ عميقٍ، فكأنني كنتُ في خَلاَءٍ موحشٍ وحدي مع البابون. لولا أنْ تداركتُ خيالي وفَزَعي، فأشرتُ على «جين»: «اخْرُجي»، وكنتُ مزمعاً على إقفال بوَّابة الرُّكن إلى أن يهدأ سُعار الحيوان، لكنَّ «جين»، التي ظننتها متخاذية، خائرة الرّكبتين من ذُعرها، تقدَّمتْ زحفاً على ركبتيها صوب البابون، وانهمكتْ في تدوينِ تخطيطاتٍ محمومةٍ وهي على قُرْب أشبارٍ من الشّبك المعدنيِّ الفاصل.

حين أستعيدُ الصورةَ الآن، بعد سنين من ذلك الهياج، لا أفهم سِرَّ انكباب «جين» على ورقتها تلك اللحظة، منجذبةً إلى تخطيطِ

مُمَزَّقٍ، لكن حال البابون كانت أكثر وضوحاً، بالغُلْمَةِ العارمة التي أنبتَتْ ذكُورَتَه كفُطْرٍ طويلٍ أحمر بين ساقيه، كأنه في سِفادٍ فجَّرتْهُ «جين» قبل أوانه. وأتذكَّرُ، كتخطيط لونيٍّ غامضٍ، أن أنثى البابون كانت هادئة تماماً في مكمنها قربَ الورقة الكبيرة، تنظر بتواترٍ مُنتَظم إلى إحليل ذَكَرِها مرةً وإلى «جين» مرَّةً أخرى، وهي تمضغ القلمَ الأخضرَ من عَقْبهِ كساقِ نباتِ الحُمَّيض.

٢ ــــ قَنْصٌ في الغَسَق

ثمّت كوّة طولانية من الإسمنت في حائط المقهى، مثل قبرٍ إسلاميّ، يتمدّدُ فيه موقدُ الفحم الصّدىء. و«أبوستولي» مصمِّم على نحوٍ شيطانيّ ألاّ يستبدله بواحد جديد. وفي كل برهة تعلن فيه الشّرارات الجاهلية شِقاقَها يعلنُ الصّدأ نَفْسُه شِقاقاً على الموقد ذي القوائم القصيرة، فيتطايرُ متقشّراً عن أُمِّهِ المعدنِ ليلتصقَ بالشُّوَاء المُنَضَّد في قضبان السَّفُّود.

لكل شيء من حول موقد الشُّواء رائحةُ شحم الخنزير؛ حتى تلك اللوحة السياحية، التي ترفعُ حماراً ذا عينين مبتسمتين إلى زُقاقٍ ريفيٍّ، يكادُ الغبارُ الدَّسِمُ أن ينبت على زجاجها كوَبَرٍ خنُوصٍ. مطافىء التبغ الزجاجية، وقواريرُ الخلِّ الصغيرة الثابتة في أطواقها الخشبية، وأسفاط الملح والتوابل، كلها غائمةٌ في هالاتٍ شاحبة من أثير الشحم المرفرف على أجنحة الغبار الرقيقة. وحده الفحمُ شهوانيٌّ سليطٌ، مُبَشِّرٌ بحريّةِ الرمادِ الذي هو قلبُه الحيُّ.

الفحمُ ذاكرةُ الشجر السوداءُ التي فتنتِ اللونَ، وبلاغةُ النَّبات في جلالِ حذاقتها بعد موت النَّبات. ضريرٌ يرى بعينَي الماسِ خاصِّيَّتَهُ اللهبيَّة، ويترمَّد لينجوَ الشَّكلُ من الحصار. يدخلُ به اثنان على «ابوستولي»: الفحَّام ذو القميص المنحسر، أبداً عن كرشه، وزوجُه الخارجةُ توّاً من حريقٍ غامضٍ، بشعرها القصير الأكْرَتِ، وفمها الأدْرَدِ، وحركتها المتدافعة كأنها من سلالة إوزٍّ قَدَرُهُ السباحةُ في الطين.

يدخلان ويخرجان، بانتظام، كلما وضعا اربعة أكياس بلاستيكية زرقاء، ملأى بأملِ النار الأسود، في خزانة «أبوستولي» الخاصة بالفحم، تحت الكوّة الطولانية في الحائط الغربي: يرجعان أدراجهما إلى الـ «بيك أب» ذات الأحشاء الزرقاء، ثم يتناولان أربعة أكياس، كلٍّ كيسيْنِ، ويتبعان خيطَ الأثر اللامرئيِّ من الدقيق الأسود، الذي يرشح من ثقوب

أحمالِهما، إلى الخزانة التي يفتخر «أپوستولي» بنقوش بابها الخشبي.

يعلو هَرَمٌ بارتفاع متر، وعَرْض مترين، من الأكياس المنتفخة الزرقاء، قبل أن يدفع الفحّام مقبض الباب من الشمال الى اليمين، فيوصده بحركةٍ انزلاقيةٍ على كنز العالم القديم، غير آبه ببصماته التي يتركها على المقبض ومن حوله، لأنها تذكيرٌ منه إلى «أپوستولي» باكتمال الهِبَةِ حتى اليوم الرابع، حيث تبدأ دورة نقل الفحم من جديد إلى متاهات النار العابقة برائحة شحم الخنزير، ودخان الفَرْفَحِيْنَ الزكيّ، الذي يُستَعْمَلُ يابساً لتتبيل الشُواء، مخلوطاً مع أوراق الزعتر.

يبدو الفحّام الخمسينيّ أفتى من امرأته، حتى ليَخالُها المرءُ أُمَّه لولا أن يعرفَ الأمرَ كمثل ما عرفنا. وهما، إذ يدخلان، يختلسان على مرأى من عيني «أپوستولي» قِطَعاً من لحم الخنزير المُنَضَّد في السَّفُّود، أناضجاً كان فوق لهب الفحم أم ملفوحاً بالوهج نيئاً بَعْدُ، ثم يعيدان قضبان السَّفود الى صفوفها فوق الموقد، ويروحان يمضغان القِطَعَ الملوَّثةَ بهُباب الفحم العالق بأصابعهما. وكذلك يفعل السَّمَّاكُ في دخوله إلى المقهى، مُبَشِّراً «أپوستولي» بسلعته الطازجة: خمسة صناديق تستعرضُ نفسها في الهيكل الخلفيّ، المفتوح، لسيارته المسقوفة بغطاء من القماش السميك، الكاكي، وقد توزّعت عليه رسومٌ بدائية لأخطبوط ضاحك، وسلطعون يشبه القريدس، أو قريدس يشبه فراشةً على الأرجح، إضافة إلى ثماني سمكات حمراء، صغيرة، دون حراشف أو زعانف، تحيطُ بواحدةٍ كبيرة بُنِّيَّة، تهرَّأَ لونُها. أما الصناديق، المفروشة بأغطية من الجليد المطحون، فتتوزّع فيها أسماك صغيرة من نوع السردين الرخيص، والتُّونا والاخطبوط الصغير، وبعض الصَّبِّيْدَجَ، وقليل جداً من «سلطان ابراهيم» الأحمر الصغير الذي يسهل شراؤه بحسب حجمه. والسَّمَّاكُ يحلف لك، بوضع يده على قلبه، ورسْم شارة الصليب في الفراغ المقذوف من عينيه، أن سِلْعته طازجة، خرجَت من البحر توّاً، وهي تنبض: «مُسَّ هذه السمكةَ» يقول لك وهو يضعها بين أناملك رغماً عن يدك المنقبضة، مضيفاً: «قلبُها يخفقُ» فتومىءُ موافقاً

في حَرَج حتى لا تجرحَ طِيْبَتَهُ الجبليَّة: إنّه من قرى أعالي «بافوس» - الجبلِ المُحَلّقِ بمنطادٍ من شجر الأرزِ الكاهنِ، والصّنوبر الأصفر، الذي تعلوه قبابٌ من رادارات البريطانيين تلتقط صفيرَ سِهام الإغريق، ولهاثَ الحدّادين في شعوبٍ تجاور الإغريق، وترفعَ البحر المتوسط موجةً موجةً إلى دروع الفايكنغ في بحار الشمالِ الباردِ كتاجٍ.

والسَّمَّاكُ، نفسُه، لا يعرف ما الذي ألقى به إلى إغواء البحر يبيع غِلالَه المُعطَّرة باليود، فيما كان حرِيّاً به أن يكون بائعَ بلوط، وجوز، وبندق، ومشمش مُحَلًى، أو مُعَتَّقَ نبيذٍ لا ينجو، بعامَّةٍ، من تَخَلُّلٍ فيه. لكنه - على أية حال - سَمَّاكٌ ببنطال مرتخ على وسطه، ووجه بشوش غير حليق، يتجرَّع زجاجةَ الجعة واقفاً قُرب عناقيد سُجُقِ الخنزير، المتدلية على الحائط مكشوفةً لأنفاس الشيطان النحيل، الذي يطرد أرواح البقر من مقهى «أبوستولي»، ويتغاضى، قليلاً، عن أرواح الماعز.

عمَّالُ بناءٍ يدخلون المقهى، ويخرجون بلفائف الخبز المحشوِّ باللحم المفروم. لا يجلسون. عيونهم على الشّواء ودخانه المُحَلِّق طاهراً فوق السُّلَّم الخشبي الثابت، المُفضي إلى عُلِّيَّةٍ لها شرفة مسوَّرة بالحديد من أمام، فيما يدخل ضوء الشمس قوياً من شُبَّاكها الواسع غرباً لينيرَ طاولة القمار الخضراء، التي انفضَّ المقامرون عنها مُذ أصابت «أبوستولي» نوبته القلبية، فأخذتْ صَحْفَةٌ كبيرةٌ من خشب دائريّ موقعَها فوق تلك الطاولة. والصَّحْفَة بعمق خمس سنتيمترات، لها طوقٌ على استدارتها يُغطَّى بشبكٍ من أسلاك رفيعة تردُّ الذباب عن اللحم المملَّح، الذي سيُنضجُهُ ضوءُ الشمس بالنَّفْخ عليه، يوماً بعد آخر، فيغدو قديداً غالي الثمن، ينبغي مضْغُه في تؤدةٍ على الأضراس اليمنى، ثم اليسرى، قبل إطفاءِ وهج الملح في البلعوم برشفةٍ من الأرزو، أو الجعة الباردة.

أحياناً، في الصباحات تحديداً، حين تكون الشمس في شاغلٍ كبير عن نافذة العُلِّيَّة، يعمد «أبوستولي»، برغم قلبه المتعب، إلى إنزال صحفة اللحم المُمَلّح الكبيرة من مُسْتَقَرِّها فوق الطاولة المهجورة، إلى

الخلاءِ الصغير تحت شجرة الخرّوب، في الجهة المقابلة من الشارع. هناك يواجه اللحمُ الدّاكن مصائرَ النُور الكثيفةَ، ويتنفَّس ملء شَحْمِهِ الغبارَ الرحيمَ، الذي يمنحه نكهةً ليست في أيِّ قديدٍ آخر:

بعضُ غبارٍ من جهة شجرات الزيتون له نكهةُ الزيتون. بعضُ غبارٍ من جهة شجرة الخرّوب له نكهة قشر الخرّوب. بعضُ غبارٍ من جهة شجيرات الجيرانيوم في حدائق البيوت شمالاً. بعضُ غبارٍ من جهة شجر البوغانفيل. بعضُ غبار من جهة شجرة الميموزا الوحيدة في المُنْعَطَفِ الشرقي للشارع المواجه مقهى «أبوستولي»: ذلك هو الطَّلْعُ اللامُدرك، الذي يمسِّد اللحمَ في الصَّحْفَة الخشبية بريشِ الطاووس الكونيِّ. أما الهِباتُ الأشدُّ تنوعاً من مسحوق الغبار الفاتن فهي ما يجود بها الطريقُ الإسفلتُ من عبور المركبات الآلية عليه: غبار له طَعْم تويوتا؛ غبار له طعم مرسيدس؛ غبار له طعم ڤولڤو؛ غبار له طعم ميتسوبيشي؛ غبار له طعم هوندا الشبيه بطعم السُّمَّاق؛ غبار له طعمُ شاحناتِ الله البهيَّةِ لَيْلانْدْ؛ غبار له طعم سوزوكي؛ غبار له طعم أوسْتن؛ غبار له طعم الدراجة النارية الصغيرة، المقوَّسةِ الهيكلِ كتيسٍ هزيل من تيوس قارّات الجفاف الضائعة ـ أعني درّاجةَ صاحب دكان البقالة المجاورة للمقهى، التي ينقل عليها طلبات زبائنه الثقيلة إلى بيوتهم، في هالة من لونٍ فُستقيٍّ تحيط به وبدرّاجته النارية، المختنقة من قسوة الرسالة التي أُعِدَّتْ لها بين رسالاتِ إنقاذِ العالم الغريق، المُشتَّتِ، المتناثرِ على جبهاتٍ كثيرة يتضايقُ منها الغيبُ.

كلُّ ذلك الغبار، الثريُّ، المُخْصِبُ، يترك أنفاسَه على اللحم القديد خاصَّةِ «أبوستولي»، دون أن ننسى الغبارَ الخجولَ الذي يرتفع بوصةً واحدة عن الأرض، تحت عَجَلَتَيْ درّاجة «نيكوس» الهوائية، حين يشدُّ على دوّاستها بساقه السليمة، قبل انطلاقه غاضباً من المقهى.

«نيكوس» ذو ساق واحدة، استعاضَ عن النَّاقصة بقضيب معدنيٍّ دقيق يلتفُّ عليه بنطاله كالسَّاري الهندي. يمشي بتمايل كبير على حَقْوِهِ الأيسر. في الستين. له نابان وأربعة أضراس. أصلع. ضامر. يرتقي

السُلَّم إلى العُلِّيَّة قفزاً. ولا يمكث غير ساعة ينزلُ بعدها كأنَّهُ عَجَلةٌ مسنَّنةٌ من النار تَكْرُجُ على الدرجات الخشبية في صخب كالخُوَار، وهو يلقي الشتائمَ أكْمَلَ ما تكون، حتى لَيَغْدو الكونُ برمَّته بعضاً من فُساء العبثِ العظيم.

إنَّه يخسر في المقامرة، أبداً، أمام «أپوستولي»، الذي لا يُبدي أي اكتراث بالشتائم التي تسيل على شجرة سلالته، فينزل بعد دقائق من خروج «نيكوس» ضاحكاً، ثم يدير أصابعه كزوبعة في الهواء: «مجنون هذا اللُّوطيّ».

كان ذلك قبل أن يأتي طائرُ الموت فينقرَ قلب «أپوستولي» نقراتٍ ناقصة. وإذ لبثَ أسبوعين في المستشفى، يهذي من فقاعات توسيع الشرايين، وأنابيب المصْل، والعُري في المئزر الأبيض المفتوح من خلف، وطعام كَهَنَةِ النار الذي لا ملح ولا توابل فيه، عاد شاحباً قليلاً، لكنه لم يفقد الكثير من وزنه. وبات الشُواءُ من دجاج وسمكٍ يائسٍ سِمَةَ حياته الثانية، وكذلك الخضار المسلوقة، والقليل القليل من الويسكي الثمين. وقد اتَّسَع منخراه من شدَّة لهفته إلى لفافة تبغ، فصار يشمُّ الهواء من حول كلِّ زبونٍ مُدَخِّن: «هذا باب الجنة» يقول، فيوافقه «جانو» أبداً: «هذا التبغ هو الجنَّة، أپوستولي»، ويأخذ نَفَساً من اللِّفافة في تشَفٍّ يحرقُ عضعُصَ صاحبِ المقهى وطرفَ بنكرياسه.

بالطبع، لم ينقطع «أپوستولي» عن عادة الرّهان على الخيل، نهايةَ كلّ أسبوع، لكن باعتدالٍ واضحٍ: الأوراق تُمَدَّد أمامه على منضدته القريبة من التلفاز. شخص او شخصان يشاركانه، بين وقت وآخر، في الكِهانةِ الأبدية، فيستعرضون، معاً، الوثيقة الكبيرة الخاصّة بالخيول المتسابقة، وأسمائها. ووسط التأكيدات، والتخمينات بفوز هذا، أو ذاك، في الأشواط المائة، يرتفع جدال سياسيٌّ ايضاً، فتتداخل المقاديرُ، وتتكاثفُ الهالاتُ من حول الكواكب الرَّطبة، وهي زُحَلُ، والزُّهرة، والمريخُ، فيما تتراخى جاذبيَّةُ الوتَرِ الثالث في وشائج الفراغ بين المُشتري وأقماره الصغيرة.

«أبوستولي» شيوعي صرف كقانونٍ رياضيٍّ، والعالم من حوله اثنان، كخصيتين: يُمنى ويسرى. يتحدث إلى نفسه وإلى الآخر معاً. تزوغ عيناه في المجادلات، وتزوغ عيون مُجَالسيه الأضدادِ أيضاً. تظن لوهلة أن القطيعةَ ستصفعُ شَرَفَ المقهى بيدها أو بيد غيرها، لكن الأمور تتدرَّجُ إلى برودةٍ منعشةٍ بعد كلِّ مجادلةٍ. تتقارعُ الكؤوسُ بطنينٍ شاحبٍ في زجاجها الرخيص، وتعود العيون إلى أعمدة أسماء الخيل العربية في الوثيقة الممهورة بختمِ إدارة السِّباق: عُطاردُ يهيِّجُ السَّحَرةَ فينقلبون على ناموس الكثافات. الميزان والعقرب يتجاوران في الحضور الكُلِّيِّ للعقل. الملهاةُ ركضٌ، والجذيُ يمضغ، في فَلَكِ النار الهادئة، طرفَ عباءة العذراء. لهاثٌ مُعَذَّبٌ يُبلِّلُ حروفَ الإغريق، في الجداول العمودية لمواعيد الخسارات بين يدي «أبوستولي»، ولَهَبُ القضاء الأصلحِ يتمدَّدُ كزيت فوق الماء: تلك هي رؤيا أيامٍ ما بعد مجيء طائر الموتِ لينقر نَقْراً ناقصاً قلبَ مَلِك المقهى.

جئتُ، كعادتي، ذات ظُهرٍ، إلى المكان فظننتُ أنني أخطأتُه داخلاً حقلاً من السُّخَام الأسود. ولولا أنْ رأيت «أبوستولي» جالساً على كرسيٍّ، وسط بِرْكَةٍ من الزجاج والماء والرماد، لعدتُ أدراجي باحثاً عن المقهى في جهةٍ تموَّهَتْ عليَّ.

كان ثمَّتَ أطفال أيضاً في الداخل، مستندين بظهورهم إلى حائطٍ لم يستنشق الدخانَ. وكانت زوج «أبوستولي» ايضاً، وابنتهُ، وصديقتُها ـ أمُّ الأطفال. وجُوْمٌ تدلَّى كثريًا من السقف المُغْتَصب بألسنةٍ قويةٍ من سوادِ الشهوة. صمتٌ محترقٌ دلَّ فراغَ المقهى على شكله الجديد، والناجييْنِ كانا السُّلَّمُ الخشبي، الذي أولى به أن يحترق أوَّلاً، والبرّادُ الزجاجي في الواجهة.

صناديق زجاجات الجعة، والصودا، والكوكاكولا، ذائبة في أماكنها عناقيدَ من الشمع الأحمر الدَّاكن، تتخلَّلُ خيوطَها المنسابة على أرض المكان شُعيراتٌ طويلة من هُبَابٍ يُقْرَأُ من الجهات كلِّها. لوحتانِ من رَسْمِ شخص جائع ربَّما، أهداهما إلى المقهى مقابل إفطار، التصقتا

بالحائط مشوَّيتَيْنِ ينقصهُما بعضُ الملح والتوابل كي تؤكلا. التلفاز، المائل على زاوية من قاعدته الخشبية المتفحّمة، يبثُّ ألَقاً غريباً في انعكاسِ ضياءِ مدخلِ المقهى على زجاجه الدّاكن، المختنق، الذي رأيت صورتي عليه تفتح يديها في عياءٍ أخرس أمام وجه «أبوستولي»، كأنما تستنجد ببقية قلبه كي تفكَّ طِلَّسْمَ الحريق بكلمة واحدة.

رفع الرجل كتفيه قليلاً أمام تساؤلي غير المُعْلَن، حتى غاصت رقبته بينهما، ثم رفع إلى فمه لفافة التبغ التي مكّنتْهُ الكارثةُ من استعادتها، بعد انقطاعٍ، ونفخَ الدخانَ من تحت شاربيه الرقيقين طويلاً.

كان وجهه واجماً، غير كئيب، لكنَّ في عينيه امتناناً يتنفّس ملءَ بياضهما: أهو امتنانٌ للّذي أعاده إلى لِفافة التبغ؟ أم هو خلاصُه من الأثاث ذاته، والزينة الخفيفة ذاتها، التي أسبغت على المقهى، خمس عشرة سنة، رِفْعَةً ممرَّغةً في شحم الخنزير وسخام الزيت المقلي؟ سيُعيدُ ترتيبَ الحقيقةِ. هذا ما رأيت في بياض عينيه ذلك اليوم، قبل أن يدخل - بعد لحظاتٍ من الغَرَق في الدَّلو الذي سَكَبهُ الليلُ الفائتُ على المقهى - الأربعةُ ذوو الحناجر المثقوبة، متثاقلين، واحداً تلو الآخر.

فوجئوا كما فوجئتُ بلهاث الحريق الخامد. رفعوا العُصاباتِ البُنّية عن عيونهم اليمنى ليتأمّلوا المشهدَ المتكوِّم كمطعون في أحشائه بمنجلٍ من فحم ودخان. قرأوا، همساً، سطراً من سطور الحقيقة التائهة داخل شفق العقل. لم ينظروا إلى «أبوستولي» بل إلى درجات السُّلّم الناجي، وارتقوه بأعينهم درجةً درجةً إلى العُلّيّة ذات الفَرْج المُسْوَدّ، ثم التفت أحدهم إلى الآخر، وأشاروا بسبّاباتهم إلى الفراغِ المتفحّم، المسكونِ، فيما وراء نهاية السُّلّم.

رفعت عينيَّ إلى حيث أشاروا. رفع «أبوستولي» الجالس عينيه، وكذلك زوجه، وابنته، وصديقتها، والأطفال الثلاثة المبعثرون بين الصناديق الذائبة: لا شيء هناك. نهايةُ السُّلّم، وأرضية العُلّية، ثم السّقف المُنْتَهك، لا أكثر. أما الأربعة، الذين أعادوا عُصاباتهم الجلدية إلى مواقعها فوق عيونهم اليمنى، فقد تقدَّموا قليلاً في اتجاه قاعدةِ السُّلّم

المُثَبَّتَةِ بأغلال من الفولاذ إلى الأرضية الحجرية، وصاروا يدقُّون على المَسْنَد الخشبيِّ للدَّرَجات براحاتهم، كأنّما يحثّون كائناً ما أن ينزلَ. بعد ذلك دسّوا أيديهم في جيوبهم، مستخرجيْنَ كلٌ واحدٍ حفنةً من صَعْتر يابس، ثم نثروه فوق البِرْكَةِ السوداء، الموحلة، أمام «أپوستولي»، حيث الطين المائع الذي خلَّفه رجال الإطفاء وراءهم، في ليلة الحريق المدوَّن على أنه حاصلُ تماسٍّ كهربيٍّ تفلَّتَ من قدْحِهِ شَرَرٌ كمنيِّ الأفعى، فأُصيبَ كيسُ الفستق، ومن ثم تسللت النارُ إلى صناديق الجعة فثملتْ، فانبرتْ صاعدةً المنضدة الطويلة، ذات الجوارير التي يُحفظ فيها النُّقْلُ، وتفصل المطبخَ عن بهو المقهى، بعلو نصف متر عن الطاولات. ومن هناك سدَّدتِ النارُ رجومَها إلى سورِ السنواتِ الخمس عشرة من تاريخ «أپوستولي»، فاستسلم الحديد إلى قَدَرِ الخشب، والخشبُ إلى قَدَرِ الحديد، والزجاجُ إلى قَدَرِ المطّاطِ، والمطّاطُ إلى قَدَرِ القماشِ، والنباتاتُ المُعَرَّشه، الهزيلةُ، إلى قَدَرِ الرّماد.

نجا السُلَّمُ، كأنّما ارتقتْهُ روحُ الحريق إلى العُلِّيَّة فتغاضَتْ عنه لتواطُئِهِ معها. ونجا البرّاد العريضُ، الزجاجي، الذي يستعرضُ أحشاءَه على العابرين أمام المقهى؛ أحشاءَه التي من براندي، وجعة، وعصيرٍ معلَّب، وصودا، وڤودكا، وبندورة مرتجفة، وحبات من الفاكهة بقيت في أكياسها الشفيفة، ودجاجةٍ واحدة (هي، أبداً، واحدة)، على صحن أصفرَ، ساجدةٍ لروح الطَّير التي غادرتها.

لست أدري، تحديداً، لِمَ تغاضتِ النارُ عن البرّاد. ربّما هي الهدنةُ بين الأهواء المتعارضة في كيانِ الكتلةِ الواحدة. على أن ذلك لا يعني، بأية حال، أن نجاة السُلَّم والبرّاد تمنحهما قُدْسيَّةَ المتاع الحصين بشفاعةِ الوليِّ الغامض لشوارع «آيوس ديمتيوس». ففناءُ الأشكال ـ كالذي حدث للطاولات، والكراسي، وصناديق الجعة، وكيس الفستق، وأشرطة الموسيقى اللَّزجة من تكاثف أبخرةِ الشّواءِ عليها، وجهاز الهاتف، ومَرْقدِ كانون الفحم، وأُصص النباتات البلاستيكية ـ جوازٌ إلى اقتدارها الكُلِّيِّ الذي هو الحَلَقةُ الكبرى في الهندسة، أيْ ما يلي القوسَ

وشقاءَه. حتى ليزعم البعضُ، ممن أوتوا جهالةَ القراءات الثلاث للوجود المُحْتَجِبِ، أن بقاءَ أثرٍ من الشيء هو محنةٌ بذاته، لأن الأثرَ روحٌ مغلولةٌ بسلاسل الظاهر. وقراءاتُ الجهالةِ الثلاثُ هذه لها الشفاعةُ التي لِلبَذْئيِّ، وذلك ما لا يتوافر للمعرفة. وخصيْصَةُ الذين يتقنونها، بحدْسِهم الجِزْمِيِّ، أنهم لا يتركون خلفهم آثاراً قطّ، لا من عُمرانٍ ولا صناعاتٍ أو تصانيفَ مكتوبةٍ، ولا نَسْلٍ أيضاً. يظهرون في السنين الكبيسة إذا زامنت شهر آذار، وقتَ تتراصَفُ البروجُ على خطٍّ واحد بين زُحل وعُطارد، ويترك الحلزون مَنِيّاً كثيراً على ورق الجرجير. وهم لا يطيلون المكوثَ في صعيدٍ؛ قَلِقونَ في طبائعهم التي ينسبون إليها معاييرَ السَّكينة، لأنَّ السكينةَ ذاتَها قَلَقُ كلِّ أصْلٍ.

حيثُ لا أثرَ، إذاً، يكونُ الكُلِّيُّ: تلك حكمةٌ لم يفطن إليها السُّلَّمُ والبرّادُ الناجيان، فقُيِّضَ لهما أَسْرٌ جديد بين يدي «أپوستولي»، الذي رَمَّمَ جسورَهُ المنهدمةَ إلى الحياةِ بطاولاتٍ صقيلة من خشب الجوز، وخزانة للفحم، وعوارضَ حديدٍ في واجهة المقهى أشدَّ ألقاً من خاتمه الذهبيّ، ورفوف من الخشب الرَّزين على الحائط ترتفعُ هَرَمياً، نضَّدَ عليها زُجاجاتٍ هي عيِّناتُ ما يقدِّمه المقهى لروّاده، بينها ثلاث من الويسكي الثمين لا يُقْدِم أحدٌ على شراء كأس منه.

عشرة أيام استغرقتها رحلة العودة إلى الكيمياء ذاتها في روح «أپوستولي» المبتهجة بما نالته من شركة التأمين على الحريق. ثم تنوَّعتِ البهجةُ وتأصَّلَتْ مع الدَّفق الكاسح للنساء الرومانيات الى جزيرة النحاس، فتخسَّفَ رِزقٌ كثير كانت نساء الفلبِّيْن يحْظَيْنَ به، لأنَّ الوافداتِ الجديدات، الخارجات من القُمْقُم إلى إمارات العالم المُدَشَّن بحرِّيَّة الجوع، يقبَلْنَ بأيِّ شيءٍ كمُسْتَخْدَماتٍ في أعمال لا تُجاوزُ الحانات، والملاهي الليلية التي تلتمع شعورُهن الشقراء في مقابرها المضيئة كأقواس قُزَح.

سارعتْ وكالاتُ القنصِ الترفيهيِّ إلى استقدام العِرْق المُحَطَّم، بعد سماع خُرَافاتٍ عن بيع الأطفال الرومانيين بدولارين، لكنها خُرافات

كانت على قَذرٍ من جنون الحقيقة: ذلك ما أكدتْهُ النساءُ الرومانيات، الناضجات كعنب شاحب تحت شمس شاحبة، في قدومهنَّ إلى جزيرة النحاس، عبر طُرُق تاهت معابرُها عن الغرب الأوروبي. ولِفَرْطِ انكسار خيالهنَّ وجَدْنَ كلَّ شيء ساحراً، من حبَّة الزيتون المشوية إلى أحذية جلد الماعز، ومن درّاجة «ياماها» النارية إلى سيارة «ميتسوبيشي» - رمزِ مثلثات اليابان المنقوعة في خَلٍّ امبراطوريٍّ.

غير أنهنَّ تمتعْنَ بحَظْوةٍ خاصَّة في جزيرة مفتونة بالشُّقْرَةِ، تولدُ الإناثُ فيها بشعورٍ سوداء، أو بنّية، فما أن يبلغن ثلاثينات أعمارهن حتى تنقشع غيومُ ذانك اللونين عن رؤوسهنَّ وينتفضَ الذهبُ، بغتةً، كالكمأ الذي يُنْضِجُهُ البرقُ بوميضٍ واحد.

الرُّومانيات شقراوات أوّلاً، بغيوم في سماء أعمارهن أو من دونه. وهنَّ - بالبشارة التي يسيل لها لعابُ الضجرانين من الشمس الكثيرة وبرونزِها، وقِشدَتها السمراء - أوروبيّاتُ الدمِ واللحم والعظام.

لم يحلم «أبوستولي» من قبل، قَطْعاً، بقطعةِ جليدٍ دافئة من بلاط أوروبا المديد. الآسيويّات - فُطْر الشّعاعات الحمراء في ملاهي المدينة - وحدهنَّ، كنَّ يحتكرنَ زَبَدَ اللّهو، ومجازفاتِ الثَّمِليْنَ أواخر الليالي. البريطانيات، والسويديات، العابرات شواطىءَ الجزيرة بعد مواسم عبور النّحام، مُكْلِفاتٌ في القنص: أن يكون لشريك المتعة الطاهر مسكنٌ صيفيٌّ قرب البحر، أو يختٌ، أو درّاجة نارية كبيرة للانتقال السريع من خليج إلى خليج، أو «جِيْب» مكشوف يسنَحُ بفرصةٍ أكبر لترويض الشمس المشرقية بميثاق أجسادهن الغازيَة. وهي أمور لا تتوافر إلاّ في ميسورِيْنَ هاربين من زوجاتهم، أو شُبّان يُخفِّفون بخيامهم على الشواطىء من تكاليف السياحة على السائحات، اللواتي يؤكد «أبوستولي» أنهنَّ لا ينفقن إلاّ ثمن الكوكاكولا، بل يرجعن إلى بلادهنَّ بنقودهن التي لم ينقص منها سِنْتٌ واحد.

الآن يدُ «أبوستولي» طويلة؛ يدُ القادر، بسيف الشُّوَاء، أنْ يَسْبيَ في رِفقِ أخرسَ امرأتين رومانيتين معاً، تقصدانه في الليل للعشاء، حيث

يكون وحده. والأمر لا يخفى على أحد: واجهةُ المقهى الزجاجية تقدِّمُ أسرارَه إلى العابرين مقليَّةً في زيت الحوت. وهو، نفسه، غير حريص على إخفاء لؤلؤتيه اللتين انفتحتْ عنهما صَدَفتان من ساقيةٍ تفرَّعت عن الدّانوب، حتى بات «نيكوس» ذو الساق الواحدة يهتف بنا، من سارية درّاجته الهوائية حين يعبر ظُهْراً، أن لا نَقْرَبَ اللحمَ القديدَ: «أپوستولي ينكح الرومانيات فوق صَحْفَة اللحم. ألا تشمّون رائحة المنيِّ من العُلّيَّة؟». زوج «أپوستولي» اقتحمتْ، كزوبعة يائسة، مربض زوجها في المطبخ، تسعين مرة وهي تعتصر قاموسَ الإغريق في أشدّ ألفاظه عُرْياً وتجريحاً واحتقاراً، فلم يرفع عينيه إليها، ماضياً في فَرْم البصل والبقدونس، هادئاً يستذكر نصائحَ طبيبه، حتى صرنا على يقين من أن المرأة ستنفجر بسنين قبل أن يتنهَّد «أپوستولي» من شَكَّةٍ طارئة في أبْهَرِ قلبه.

عشرةُ أيام، لا أكثر، قضاها «أپوستولي» في تجريد الحريق من دروعه، وباروده، وسخامه، وشهواته الدُّخانية، ونَسَبه، ثم أعاد ترتيبَ المملكة بتوزيع جديد للسُّلْطَةِ، بحسب ألَقِ طاولاته، وسُموق كراسيِّها ذات المساند المنجورة كصولجاناتٍ. ثم أغدق عليَّ، وعلى «جانو»، في اليوم الأول لتدشين العُمْر الثاني من أعمار المقهى، بصحنٍ من الصَّبِّيدَج المشوي مجاناً، وأربع حبَّاتٍ من ثمرة الكيوي المُقْشَعِرَّة.

كنا جالسيْنِ ـ أنا و«جانو» ـ داخل المقهى، الذي بدا بارداً، منعشاً، على غير عادته في ذلك الوقت من الصيف. ربّما هو لهاثُ الطاولات الجديدة يحرِّك مراوح الريش الخفيَّة، أو الدِّهانُ الأبيض، المؤْتَلِقُ، يستعرضُ خصائصَه غير المُعْلَنَة إلى جانب لونه المُعْلَن. كان الدَّاخل منعِشاً، على أية حال، أَضْفتْ عليه ستارتان ـ واحدة على جزءٍ من الواجهة، والأخرى على النافذة الغربية المُسْتَحدثة بعد الحريق ـ حناناً رَطْباً من أمومةِ زهرِهما الأرجوانيّ.

كنا أوّل مرتادِي المقهى ذلك اليوم، في الأرجح. بعدنا، بقليل، حضر السَّمَّاكُ مبدياً ذهوله من روعة المملكة، فلم يقاوم «أپوستولي»

المديحَ، واشترى كيساً من سمك السردين الصغير. بعدَ السَّمَّاكِ مرَّ «نيكوس» ذو الساق الواحدة. أسند درّاجته إلى عمود ستارة الظّل الخارجية، وتقدم حتى وقف في الباب لا يجاوزه. نظر إلى العُلّيَّة بفم مفتوح مبتسماً. هزَّ لنا برأسه. قال لأبوستولي: «أنتَ حيٌّ يا فَرَجُ...»، وأقفل راجعاً إلى دراجته، بينما هتف «أبوستولي» من موقعه قرب المطبخ: «يا عصفورَ الرَّوث...»، وهزَّ بيده دائرياً، ضاحكاً: «خَرِفتَ يا عصفورَ الرّوث».

بعد نصف ساعة حَضَرت «جينْ» ماشيةً، حمراءَ، تخفق أوراقُها الكبيرةُ تحت إبطها. «سينتحرُ النهارُ، هذا اليوم» تمتم «جانو»، وهو يلتهم بعينيه قميصَها القُطْنيَّ الضيق، المنحسرَ عن شبر من استدارة وَسَطِها، ممّا تحت الثديين إلى مشارف السُّرَّةِ. لكن النهارَ كان أكثر انشغالاً بجبَّالةِ الإسمنت الآلية من أن ينتحرَ فداءً لقميص «جينْ» المُعَربد على شفق لحمها. وقد جاوزتُ بعينيَّ المرأةَ الواقفةَ في باب المقهى، محدِّقاً في الجَبَّالة قبال شجرة الخرّوب، تهيّيءُ في أحشائها الكهفية وَجْبةً صاخبةً من الإسمنت الذي سيندفقُ - بعد رجفة عارمةٍ يختضُّ لها هيكلُها التَّيسيُّ - من مهبلها الطويل العُنُقِ، في قنواتِ الخشب التي تحدِّدُ منابتَ أساساتِ المبنى الدائري، وسط شجرات الزيتون.

«أنظرْ، جانو، إلى الجبَّالةِ» قلتُ للجالس إلى جواري.

«ما بها؟» سألني «جانو».

«ليس لها ظلٌّ» قلت شبهَ هامسٍ.

مطَّ «جانو» عنقَهُ، ناظراً في خطّ مستقيم يلامسُ خاصرةَ «جين» ثم يقطع الشارعَ ليصيبَ جبَّالةَ الإسمنت الآلية. حدَّق مليّاً. ألوى رأسه يستقصي الأرضَ تحت الجبَّالة. انحنى على المنضدة بصدره وأشار إلى «جين» أن تتنحّى قليلاً عن مسار المشهد، فالتفتتِ المرأةُ، بدورها، إلى الجبَّالة تستجلي الذي يُلفتُ نظرَ «جانو»، وهي تتنحّى من مجرى الرؤية. نهض «جانو» واقفاً. رفع حاجبيه عن عينيه الغائرتين، فيما

راحت يده اليسرى تمسّد على شاربه في حركة تلقائية. فتح فمه برهةً، وعاد فأغلقه على كلام ابتلعه مع ريقه. تقدّم صوب باب المقهى ذاهلاً عن «جين». تمتم: «ليس للجبّالة ظلٌّ، يا رجل!». وأصدر من حنجرته صفيراً بارداً: «تعالَ» قال لي دون أن يلتفت. نهضتُ ماشياً خطوتين أو ثلاثاً واسعاتٍ فجاورتُهُ على عتبة الباب: «ماذا؟» همستُ، فأشار بيده الى ظلّ شجرة الخرّوب الشعثاء:

«كَذِّب ما أراه، يا رجل» قال «جانو» بصوتٍ مرتبك.

تأمّلتُ ظلَّ الشجرة المنكسبَ على الإسفلتِ مهشّماً، رقيقاً، تتقاربُ شظاياه وتتباعدُ بفعل الهواء. ثم التفتُّ إلى «جانو»:

ـ ما بهِ ظلُّها؟

«حدِّق في ظلّ العصافير، يا رجل»، قال «جانو» في صبرٍ نافد.

كان عليَّ أن أركِّز تحديقي على الخطوط الشعثاء لظلّ الشجرة حتى أميِّزَ ظلالَ العصافير من ظلال الأوراق العريضة. وفي برهةٍ ثقيلة أدركتُ الذي خضّ أحشاءَ «جانو» وفضولَهُ المرتَعِدَ: كانت ظلالُ العصافير تنقر الإسفلتَ نقراً خافتاً، لكنه يُسْمَع؛ وتلتقطُ من الأرض الترابية المجاورة للإسفلت، تحت ساق الشجرة تماماً، الهوامَ والدُّويباتِ فتتبدَّدُ كأنّما ابتُلِعَتْ حقاً.

كانت العصافير جاثمة بين الأوراق، من فوق، وظلالُها تؤدي، في الأسفل، مهمَّةَ نَكْتِ الرِّزْق من التراب. وقد أمسكتُ كتفَ «جانو»، وأنا أجاوره، متمتماً كلماتٍ لم أسمعها تخرج من بين شفتيَّ: «أهذا حقيقيٌّ؟!»، لكن «جانو» ظلَّ على انخطافه لا يجيب. ثم انفَلَتَ، بعد برهةٍ، من تحت يدي، وهرولَ في اتجاه الشجرة، ثم ركضَ مقتحماً ظلَّها وهو يلوِّح بذراعيه ليمتَحِنَ المشهد، فانطلق من الأرض سربٌ شفيف من ظلال العصافير، في اتجاهاتٍ شتّى، بينما بقيتِ العصافيرُ الجاثمةُ بين أوراق شجرة الخرّوب في أمكنتها، غير عابئة، في علائِها، بذراعي الشاب النحيل ترسمان دوائرَ في الفراغ.

تمتمتْ «جين»: «ما به، جانو؟». وتقدَّم «أپوستولي» بدوره من الباب سائلاً باليونانية: «ماذا يفعل صديقك؟»، وابتسم في استغراب. رفعت حاجبيَّ، وزمَمْتُ شفتيَّ على نشافٍ فيهما، لا أدري بمَ أنطقُ. لكنني آثرتُ الصمتَ لمَّا رأيت «جانو» عائداً أدراجه صوبنا وهو يهذرُ: «ما بها بنتُ القحبة ـ هذه الشجرة؟ أتتسلَّى؟».

لربّما، بحقٍّ، كانت شجرة الخرّوب تتسلّى بإحداثِ شِقاقٍ في المشهد الذي ظلَّ على حاله لسنين؛ حتى أنه، لصلابته، استغلَقَ على رفاهيةِ ألوانِ «جينْ» المائية. لكن تسلية الشجرة تضافرت، ذلك اليوم، مع العبث الذي ابتكرتْهُ جبَّالةُ الإسمنت الآليّة بإخفاءِ ظِلِّها عن الرؤية، على مرأى من شمسٍ كُلِّيَّةٍ كَيَدِ المتصوِّف تنقبضُ على اسطرلاب الجوهر: لقد نقضَ المكانُ تدبيرَهُ الأوفى، وانغَلَقَ الظاهرُ.

ليس من حقّي تأكيد الأمور على هذا النحو. بَيْدَ أنني مِلْتُ إلى تأويلٍ يستعيرُ عِرْفانَهُ من «التأسيس الكبير». أيْ كنتُ أصنِّفُ التأويلَ قياساً إلى ما أظنُّه من تخطيطات «التأسيس الكبير»، الذي يتساوى فيه المكانُ مع البِدعة: «المكانُ خَيَالٌ»، والرّكونُ إلى الخيال في محاججات العقل يُضعِفها. هذا ما أظنُّني استقرأته من الكتاب الذي طوله ثلاثة وأربعون سنتيمتراً، وعَرضه اثنان وعشرون. لكنني، إذا تمعنتُ في أسطرٍ أخرى فيه وجدتُ إحالاتٍ إلى معانٍ تنقُضُ أن العقلَ يَضْعَفُ في اتخاذ الخيالِ سَنَداً: «البرهانُ، نَفْسُه، قناعُ الضرورةِ اللامُحْتَمَلَة»، وما هو خارج البرهان يُصَنَّف في مراتب الجَدَل الذي يؤكِّدُ الأبديَّ وضروراتِهِ.

عليَّ واجبُ الاعتراف أنني أميل إلى تصديق القول إن «المكان خيالٌ»، حتى يتسنى لي، ولـ«جانو» تأويل اختفاء ظلّ جبَّالة الإسمنت الضخمة، وانشقاق ظلال العصافير عن جسومها، حُرَّةً، كأنها توائمُ مفصولةُ الكيان. فإذا أَضَفْتُ إلى مَيْلِيَ هذا جملةً أستذكرها من أعماقي التائهة، هي «الظاهرُ كمالٌ»، وجدتُني مطمئناً إلى أنّ كل شيء يجري وَفْقَ يقينٍ غير مُعَذِّبٍ.

أقول: «اجلسْ» فيجلس «جانو» وعيناه على المشهد. أقول:

«نُخبكَ يا دبُورَ هكَّار»، وأرفع كأسي مومئاً إلى «جين» بعينيْ أنْ تنضمَّ إلينا، فتأتي المرأة محمولةً على أوراقها العريضة كبساطٍ طائر، ثم تحطُّ على كرسيٍّ لصق «جانو» مبتسمة ابتسامةَ وفاءٍ غير مطلوبة. يقدِّمُ لها كأسَه بشراب الأوزو فتعتذر. يطلب منها أن تشرب شيئاً، أيَّ شيء، فتعتذر. يرنو «أپوستولي» إليها بحقدٍ ترقِّقُه الشهوةُ، وهو يسند أنفَه المعقوفَ ببنْصَرِه ذي الخاتم الكبير. يرفع «جانو» أوراقها ـ المطوَّقة بشريط حتى لا تتساقط كنوزُ اللون ـ من جوار فخذها إليه. يُهَمْهِم: «أتسمحين؟»، ويفكُّ الشريطَ القطنيَّ قبل وصول إيماءةِ رأسها موافقةً. يقلِّب الصفحات الشراعية مُختجباً خلفها لطولها. يقرِّب رأسَه من رأس المرأة يوشوِشُها كلماتٍ لم أسمعها، لكن «جين» تنفجر ضاحكةً وهي تُكَمِّمُ فمَها براحة يدها حياءً.

تباعاً، وسط الضحكة المُسْبَلةِ الأهدابِ، دخل الأربعةُ ذوو الحناجر المثقوبة في ثيابٍ رمادية كشعورهم، مبتلِّيْنَ بعرق كثير تحت آباطهم، وعلى الياقات، والصدور تحت الأثداء، ثم رموا أحمالهم على أرض المقهى الصقيلة دون استئذانٍ، غير مبالين بالقشعريرة التي اختطفتْ لونَ «أپوستولي» من جبينه حتى بريق خاتمه الذي انطفأ. وهُمْ لو استأذنوا، على أية حال، لما أذِنَ لهم أحدٌ بإلقاء كلِّ تلك الطيور المقتولة إلى أرضية المقهى الخارجة، توّاً، من عملية جَلْخٍ كهربيٍّ، أعاد إلى بلاطاتها المحترقة عُذْريَّةَ الجماد.

على مقربة من طاولتنا تكوَّمتْ تلك القنائص الساخنة، فيما اتّخذ الأربعة مقاعدَ لهم حول طاولة لصقَ الجدار الشرقي، بملامحَ خاليةٍ من أيِّ تقدير لردّ فعل «أپوستولي»، الذي أدهشنا بضمورِ الحيلة فيه، وانحباس حركته، حتى كدنا ـ أنا و«جانو» ـ بتوافق في نظراتنا المُسْتهجِنَة، أن نُبدي احتجاجاً، وقد رأينا الدَّمَ يبقِّعُ الصفحةَ الطاهرةَ لروح المقهى، التي من حصى أملسَ شفيفٍ في اسمنتٍ شفيفٍ، رَقَقَتْهُ المبارِدُ وصقَّلَتْهُ فغدا أَلَقاً من فَرَح «أپوستولي» بميلادِ قلبه ومقهاه معاً.

غير أن حركةً خفيفة، بين كومة الطيور المقتولة، صرفتْنا عن

الحدوث الوشيك لاحتجاجنا علانيةً، فمالت رقابُنا صوبَ مرآة الدَّم في بلاط المقهى، حيث تبادَل الحَمامُ، والحجلُ، ودجاجُ الأرض، والفواختُ ـ كلٌّ بادلَ الآخرَ سكينَتَهُ وخُذْلانَ ريشهِ، ولوعةَ أعشاشٍ مُنْتَهَكةٍ في غيابها الطليق.

ثمت حيوان ينهضُ من تحت القبة الخفيضة، بين الريش الأمين، فتنزلق أجساد الطيور عن هيكله. كان مغمى عليه من جرحه الظاهر في صدغه الأيمن، وقد أفاق مُنْهَكاً، يستند على قائمتيه الأماميتين، فيما لا تقدر قائمتاه الخلفيتان على الحركة، فتبقيان غائصتين في كومة البهائم القتلى. يفتح شدقيه في اختناق. لا صراخَ. لا عَنْعَنَة. لا أنين. عينان متوسِّلتان في وجه مستدير يبعث رهبةً خفيفة في القلب، كأنما ينقصه شيء ما ليكون حيوانياً. جلدٌ مدبوغ بالغار وقشور الرمَّان. نَعَم. في جلده أَلَقُ الغار وقشر الرمان الذي في جلود حوانيت الدَّبَّاغين. ولا وبرَ عليه. يبدو رَخْصاً أملسَ. أضلاعه أضلاع طفل وليد. أصابعه المرئية فوق الريش لا تنتهي بمخالب، بل بأظفار مستديرة، قصيرة.

نهض أحدُ الأربعة ذوي الحناجر المثقوبة في هدوء. لمسَ جرحَ الحيوان، على الصّدغ، بباهمه، ثم اتجه إليَّ ومَهَرَ جبيني بالدم اللزج، ثم عاد إلى كرسيّه.

كانت حركةُ الرَّجل مباغِتَةً إلى درجة لم تستغرق ثانيتين، أفقتُ على انتهائها بعد جلوسه. «جانو» صُعِقَ بدوره، ثم استرخى يتأملُ اللَّطْعَةَ على جبيني. رفعت يدي إلى جبيني، تلقائياً، لأتقرّى موضع الدَّم، فأمسكتْ بها «جين» تصُدُّني عن مَسْحِها. قالتْ: «دعني أرسمك». صوتُها طنينٌ في أذنيْ، مع صعود الغضب بمبارده الحجرية إلى صدغيَّ. أدرتُ الكرسيَّ من تحتي في صرير متشقِّقٍ من تماسِّ أرْجُله بالأرضية الصقيلة، مواجهاً الأربعة، فنهض «جانو» كأنّما ليمنع شجاراً وشيكاً. ابتسم الأربعة. رفعوا العُصاباتِ الجلدَ عن عيونهم مومئين إيماءاتٍ لطَّفتْ قليلاً من لسعة الرُّتيلاء تحت جلدي، ولَجَمَتِ العقاربَ في ألياف العضل. فتح أحدهم كيساً من الجلد كان يحمله. استخرجَ فخّاً حديداً

مربَّع الفكَّين، وله سلسلة تنتهي بكُرة من النحاس، ووتدٍ أسود صلبٍ ارتطم بالطاولة ارتطاماً لا بدَّ أن أغمي، في وَقْعِهِ، على عضلةٍ من قلب «أپوستولي». دار من وراء ظهري وظهر «جانو»، والتفَّ من خلف «جين» مشرفاً على كومة الطيور القتيلة. نظر الى الحيوان الجريح ووضع إصبعاً على فمه يطلبُ سكوتَهُ فيما الحيوان ساكتٌ في اختناق. خرج من باب المقهى الى رصيفه الذي انحسر ظلُّ سقيفةِ القماش عن نصفه. جاوزَ الظلَّ بشبرين، وفتح الفخَّ بعونٍ من قدمه، ثم ثبَّتَ النابضَ تحت المغلاق فغدا جاهزاً. تركه في الشمس يتغذّى حديدُهُ من سُعار خيالها، وأقفلَ راجعاً ليجلس في موضعه من الطاولة.

تقدَّم «أپوستولي» من باب مقهاه يكاد صباغُ شعره أن يسبقه في الفضول. تطلَّع إلى الفخ من بُعْدِ خطواتٍ، واستدار إلينا ماطّاً شفته السفلى، حيران من الحكمة الحيرى في نَصْبِ فخٍّ على رصيف مكشوف، قبل أن تنتقل عيناه إلى الأربعة ذوي الحناجر المثقوبة، متوسِّلاً منهم ما يجلو غمَّ ظنونه المُسَرَّحةِ بمشطٍ من رائحة الشواء، لكنهم كانوا في جدالٍ خفيضٍ يتشابكُ في دائرةِ رؤوسهم المتقاربة، فاستقرَّ على أهدابه رمادٌ لا مرئيٌّ ظلَّلها بيأسٍ خفيفٍ، قبل أن يغدوَ حالاً من لا مبالاةٍ صَرَفَتْهُ في اتجاه المطبخ، وهو يتفادى النظر إلى بيدر الريش فوق البلاط المخضَّب، كما لم يلتفت إلى الشهقة التي أطلقها الحيوان قبل سقوطه ميتاً فوق كومة الطيور الميتة.

لبرهةٍ أحسَسْتُ أن جلد جبيني ينكمش بجفاف الدَّم عليه. ثم سهوتُ عن حالي بدخول بائع اليانصيب الأعمى، ناقراً بعصاه عارضةَ الباب الحديدية. وقف أمام كومة الطيور. لمسها بمقدَّم حذائه في حركة قوسية. عيناه بيضاوان؛ غشاءان من وميض جافٍّ كالذي فوق عيني الضَّبِّ، يرى من خلالهما كلَّ شيءٍ معتم، ويَغْفَل عن المضيء. عصاه ـ التي من غصن زيتون ملتوٍ لم يُنْزَع عنه لحاؤه ـ قلَّبَتْ طائرَيْنِ مستغرقين في موتهما ظَهْراً إلى بطن، ثم استقرَّتْ على هيكل الحيوان الذي لا لون لجلده.

تقرّى الأعمى، بعصاه، حدودَ الجثة، وهو يشد راحته على حزام كيسه الجلديّ المتدلي من كتفه، مُطْبِقاً على أرقام الأوراق المنذورة لقَدَرِها الجاهل. تمتم: «هذا هو» باليونانية، وألْحَقَ كلمتيه بمقطع من النَّفْخ من فمه وأنفه، كأنما يتلمَّس رمادَ أغنية محترقة في شفق اللون الذي خَلْفَ رؤى أعماقه. وجَفَلْنا، بعدئذ، حين صرخ بصوت مبحوح: «أپوستولي»، فازفَضَّ عنُقُ «أپوستولي» متطاولاً من فوق الخزانة الطويلة التي تُخفي بابَ المطبخ، أو تكاد.

«ما بكَ؟ أستطيع أن أسمعك بصخبٍ أقلّ»، قال «أپوستولي» المستوفَزُ من المشهد كلِّه. فاستمرّ الأعمى ملقياً كُرات صوته الباردة على البلاط، غير آبهٍ بملاحظة صاحب المقهى المُحْتَجَّة: «أريد قلبَ هذا» ووضع طرفَ عصاه على أضلاع الحيوان.

«ماذا تريد؟» قال «أپوستولي» في محاولة لتبديد الكلمات الواضحة على لسان الأعمى. عيناه رَنَتا، برغم تساؤله، إلى العصا الناخزةِ أضلاعَ الحيوان. دار من حول الخزانة المستطيلة ليصير الى ردهة المقهى، مكرِّراً: «ماذا تريد؟» باستغرابٍ. لكن الأعمى دار على عقبيه خارجاً من الباب، ينفخ من فمه وأنفه رسائل الهواء المختنق في بريد رئتيه. عَبَرَ الظلُّ المُجَسَّم بستة أضلاعٍ وأربعين قاعدة تحت سقيفة القماش، ثم انعطف شرقاً فارتفعَتْ قرقعةُ حديدٍ جوفاء ذاتُ صدى.

انغَلَقَ فكّا الفخّ على فراغ. رأيتُ من موقعي، وأنا أتتبّع خطواتِ الأعمى، أنه حادَ عن الشَّرَكِ المُغلَن، لكنْ ما أنْ مَسَّ ظِلُّهُ الحديدَ المتهيِّىءَ حتى انفَكَّ المِغلاَقُ فَأَرْعَدَ المعدنُ، مرتفعاً شبرين عن الأرض برغم ثِقْلِهِ البيِّن، كأنَّما يتلقَّفُ هباتٍ تتدلّى من خطاطيف الظهيرة.

توقف الأعمى، ثم استدار نحو الفخّ بعينيه اللتين تحاصران أفق المتاهات، وألوى فمه في سخرية واضحة، ملقياً كلماتٍ جافّة كبزر الدُّرّاق ارتطمت برصيف المقهى، وعاد فأكمل عبورَه شرقاً ليختفي عن ناظري.

لم أفهم ما قاله. ترجمَ لي «جانو»: «أَعَادوا يتصيَّدون؟». تلك هي الكلمات التي عَبَثَ الأعمى بمخارجها على لسانه اليوناني، وهو يعني الأربعة ذوي الحناجر المثقوبة، الذين قام أحدهم، بعد سماع الصدى الأجوف للمعدن، فأعاد الفخَّ إلى حاله من التهيُّؤ على الرصيف، بعد ما فتح فكَّيه بمعونة من قدمه، وثَبَّتَ النابضَ.

إحدى عشرة مرَّة أطبقَ الفخُّ على ظلالِ العابرين كلَّما مَسَّتْهُ في عبورهم الرَّصيفَ إلى دكّان البَقَالة وعودتهم منه. كانوا يجفلون من مباغتات الحديد الفَكِهَةِ فيتمتمون ما يتراوح بين الشتيمة والتعوُّذِ. وفي كل مرَّةٍ ينهض أحد الأربعة، بالتناوب، ليُعيد نَصْبَ الفخِّ على الرصيف المغمور بنعاسٍ صُلْبٍ.

لمْ نَسألهم لِمَ يفعلون ذلك ويكرِّرون الواقعة، على نحو ينتظرون معه نتيجةً تحسمُ اللعبة. كما أن إصرارهم على معاودة الأمر، بحركاتٍ رصينةٍ ووجوه خالية من شرارات العبث، جعلنا في تحفُّزٍ، من «جين» إلى «أپوستولي»، ومِنِّي إلى «جانو»، ومن الفحم الذي تتناهشُه أسنانُ الرماد إلى العُلْبة القابضة على قَبَسٍ من ذكرى مقامرين لن يعودوا.

بغتةً نهضت «جين». ألقتْ عن كتفيها أقواس قزح التقطَها «جانو» بأناملِ قلبه، قبل أن تذوب. كان شيء ما، كالمَرَح، يفيضُ بهالاته من وجهها، ويشدُّها الى باب المقهى. ازداد شفقُ لحمها، الذي تقاصَرَ عنه القميصُ القطنيُّ، حُمْرَةً، وتململ اللونُ الفاحمُ في شعرها المصبوغ منقلباً إلى نيليٍّ داكن. عبرتِ الظلَّ حتى صارت إلى الضياء المُقَشَّر كالفستق في الأسْرِ الذَّهبيِّ للشمس. دارت من حول الفخِّ نصف دورةٍ تتأمَّل عَصَبَه وشرايينَه، مصغيةً إلى الدَّفقِ السرّيِّ للدَّم في الحديد، وهي تحاذر أن يسقط ظلُّ شخصها عليه. توقفتْ، ثم رفعت ذراعَها اليسرى، العارية، ومرَّرَتْها فوق سَمْتِ الفخّ، من علياء قامتها، فما أن لامسَ الظلُّ المعدنَ حتى شَهَقَ شهقتَهُ المُغْتَلِمةَ، وأطبقَ فكَّيه على الفضاء المحموم.

ابتعدت «جين» عن الفخ تلقائياً، فيما لم يفارق المرحُ وجهها. غير أنها، في لحظاتٍ تاليةٍ، اعترتْها غمامةٌ من التوجُّس ما لبثت أن

أمطرتْ في أعماق عينيها ما يشبه الدَّهَش. تراجعت صوب باب المقهى ووجهها منصرفٌ إلى الفخ في ترقُّبٍ وحذرٍ دائخيْن. قام «جانو» يُنْجِدُ انسحابَها القَلِقَ، ثم توقّف ملجوماً. أشار إليَّ بيده، دون التفاتٍ: «تعال، يا رجل».

كان الفخُّ ساكناً سكونَ القَلَقِ الذي في حديده. هذا ما رأيته. لكنني أدركتُ أن بصري خانَهُ التحديدُ حين تململ شيءٌ - لم أتبيّن شكله أوّلَ وهلةٍ - بين الفكّين المسنَّنين للمعدن الثقيل: إنه ظلُّ يد «جين» يرتعش بينهما كسمكةٍ في آخر اختناقها.

أقفلَ المشهدَ أحدُ الأربعة ذوي الحناجر المثقوبة. حَمَلَ الفخَّ عن الرصيف وأعاده إلى الكيس الجلديِّ الذي أخرجه منه أول الأمر، عائداً في هدوء إلى جُلَسَائه، فعدنا، نحن، بدورنا، إلى الطاولة، نصفَ خاشعيْنَ، لكن «جين» خالفت جلوسنا فقامت بأوراقها إلى ظلِّ شجرة الخرّوب. جَثَتْ هناك على ركبتيها في صلاةٍ مُغْلَنةٍ لأقْفَال اللون. رنَّ الهواءُ في المدى، بيننا وبينها، كمفاتيح خزائن الصيّاغين، ثم اشتعلتْ أوراقُها بنارٍ تُغوي الشَّكْلَ الموثَّقَ في سِرِّه اللاَّمُكتمَل.

ساعة. ساعتان: خرج الأربعة ذوو الحناجر المثقوبة من المقهى، مومئين إلى «أبوستولي»، في كَرَم لامسَ عضلةً من قلبه: «هذه الطيور لك»، فلمَّها بأسارير منفرجة في كيس، رائحاً بها إلى المطبخ. وبالطبع سارع فغسلَ البلاط بممسحة من قماش، على عجل، طالباً مني ومن «جانو» أن نرفع أقدامنا عن أرضية المقهى قليلاً حتى لا يمسّ رذاذُ ماءِ الممسحة حذاءينا. ولم ينس أن يعرض عَرْضَهُ السخيَّ: «أتريدان بعضاً من هذه الطيور؟»، فشكرناه، ونحن نتهامس: «وماذا سيفعل بذلك الحيوان؟»، الذي يُقدِّر «جانو» أن «أبوستولي» لن يتورع عن تقديمه لزبائنه مشوياً على أنه تيس في سنته الأولى، مشمول ببَركة «مِينلاؤُس» الذيْ أوصى بلحمه، بعد موته، للمصابين بالجُذام، وأن يُدْفن قلبه في مرعى لا يؤمّه إلا تيوسٌ في سنواتهم الأولى، ممتلئةُ الخُصى بمنيٍّ كضباب البحر المتوسط.

كلُّ هذا و«جين» عاكفةٌ على انتشال الكنوز الغارقة في مجاهل اللون: أساورُ ذات نقوش ترتفع، وتسقطُ صُلبةً في الفراغات. عقودُ خرزٍ، تيجان، دُرَرٌ وخواتم، مصكوكاتُ ذَهَبٌ، كؤوس بأعناقٍ كأعناق اللّوتس. أقراط طَرَقَتْها أزاميل النَّقش الأكبر. خلاخيل لها جلاجل أرقُّ من سُدْسِ الصوتِ الذي لمزامير المرجان ـ، كلُّها تعلو طافيةً على أفقٍ ضائعٍ فوق قرطاس «جين»، ولمَّا نتهيَّأ ـ أنا و«جانو» ـ لمغادرة المقهى، بعلاَماتٍ طائشة نسدِّدُها إلى بصر المرأة مودِّعيْن، تقوم عائدة إلينا فنتلاقى على الرصيف الظليل.

«نراكِ فيما بعد» يقول لها «جانو» وهو يميل بعنقه على ورقتها الكبيرة التي حملتها بين يديها كَحَمْلِها صحيفةً يومية. ثم يُحني جذعَهُ متمعِّناً كأنَّما فاته تحديدُ الرسوم ببصره. ثم يسحب الورقةَ الكبيرةَ من يديها، هامساً: «أين نحن؟».

تطلَّعتُ من فوق كتف «جانو» إلى الورقة، بدوري، في فضول، فرأيتُ رَسْماً على كمالِهِ لم أعهد «جين» أمسكتْ بمثله في حذاقةِ المُختَرِف: واجهةُ المقهى، بتفاصيلها. سقيفةُ القماش، والظلُّ، والفخُّ في لحظة إطْبَاقه. الأربعة ذوو الحناجر المثقوبة خلف زجاج الواجهة. «أپوستولي» ظاهراً كشبحٍ من الأعماق البعيدة لجوف المطبخ. كومةُ الطيور، في رَصْدِ شفيفٍ لألوان الريش. الحيوانُ، معافى، مُقْعياً على الكرسيِّ الذي يشغله «جانو» عادةً. كرسيّان آخران شاغران من حول الطاولة التي يجلس إليها الحيوان جلسته الشامتة، بحسب لسانه الساخر المتدلي من شِدْقه. وقد تمتمتُ، كما تَمْتَمَةِ «جانو» نَفْسه: «أين نحن؟».

كنتُ و«جانو» ممحوَّيْنِ دون أثر. كأسا شرابنا ممحوَّتان. منفضةُ رماد التبغ، وصحنُ النُّقْل، ومحفظة يدي الصغيرة، ممحوَّة لم تُرْسَمْ. الطاولةُ مهجورة إلاّ من الحيوان.

أمسكتُ بالورقة الضخمة، المُقَوّاة، مُزاحماً يديَ «جانو» المطبقتين على حاشيتيها، وأنا أتوجّه إلى «جين» بسؤالي: «أين نحن؟»، فلم تردَّ

المرأة. تركتِ الرَّسمَ بين أيدينا، وعَبَرتْ إلى جوف المقهى. ناديتها دون جدوى. ناداها «جانو» بصوت فيه نحيب مكْتومٌ وعَتَبٌ: «جين» فلم تردّ. ظلَّتْ ماشية حتى أشرفت على الطاولة التي كنا نجلس إليها فجلَسَتْ، ناظرةً، في تحديق شهوانيّ، إلى شجرة الخرّوب الضخمة.

بصوتَيْنِ معاً، أنا و«جانو»، مفتولَيْن من قُنَّبِ الذُّكورةِ، نادينا «جين» لنستوضحها، فَبَدَتْ كَمَنْ لا يسمعنا ولا يرانا. رمى «جانو» الرَّسْمَ إلى أرضية المقهى، من الباب: «غطِّي فرجَكِ بها» قال مُدَمْدِماً وهو يشدني من ذراعي إلى الطريق الذي سنسلكه، مشيَ ساعةٍ، إلى مساكن المهندسين، مروراً بالأخدود الرَّمليّ الذي يشقُّ مُخَيِّلَتَهُ من أصقاع الجليد إلى جبال المغناطيس التي يحدِّثُ «يلماز مَلِّي»، سجينُ الألفي عام، نزلاء السجون عنها: «لا تعبروها وفي أفواهكم أسنان مُغَلَّفة بالمعدن. إنها ستنخلع من جذورها. يلزمكم بغال دون حدواتٍ. سروج دون أبازيم من حديد. لا تحملوا ساعاتٍ معكم. لا سكاكين. الطيور الحديدية تنجذب إلى حجارة الجبال مهشَّمَةَ الهياكل». ويسأله نزلاء السجون مستوضحيْن: «أيّ طيورِ حديدٍ تعني؟ وإن كان عبور هذه الجبال يقتضي الخروج أعزلَ، هكذا، من السكاكين، والأسنان، والأبازيم، والحدوات، فلماذا لا تسأل المرءَ أن يرمي نفسه في أقرب بحر مربوط القدمين واليدين بأحشاء أُمِّه، يا يلماز؟»، فيزيدهم «يلماز» شَرْحاً لا قرارةَ فيه: «كلّ صوتٍ تتنادون به، بين جبال المغناطيس، لا يتبدَّد حتى يوم القيامة. الكثيرون يرجعون إلى تلك الجبال، بعد سنين عديدة، ليسمعوا محادثاتهم، كمن يعود، في شيخوخته، إلى صورةٍ من صباه. أمر شيّق، يستأهل العبور أعزلَ حتى من خصيتيك» يقول «يلماز» للمستوضِحِ.

أُخدودٌ رمليٌّ يرمي الحواة فيه بقُفَفِ الثعابين الأزلية، وتتجاوزُ الألغازُ طريَّةً كأعراف الدِّيَكةِ من جهتيه. لا ظلالَ. أنا و«جانو»، وخشخشات خطى ثقيلة: «ألن تمسح لطخةَ الدَّم، هذه عن جبينك؟» يسألني، فأردُّ في جفاءٍ لا مبرِّرَ له: «ثم ماذا؟».

يتأمّلني «جانو»: «امسَحها، إذا أردتَ، ثمَّ.. لا شيء»، يقول مستغرباً ردِّيَ.

«فَلْتَبْقَ»، أتمتمُ.

«فَلْتبقَ، إذاً» يتمتمُ «جانو» بدوره.

حين افترقنا، أنا و«جانو»، كلٌّ إلى مسكنه في الساحة الدائرية للمُجمَّع السّكنيّ، توقفتُ قليلاً أمام حظيرة البابونين المرفَّهة. كانا يمضغان أليافاً لها رائحةُ زنجبيلٍ رطبٍ. غمزتُهما بعيني اليسرى، ثم عبرتُ إلى جوف البيت بعد دورتين للمفتاح في قفل الباب.

نمتُ نوماً ثقيلاً في تلك الظهيرة الموسومة بأقواس من الزّئبق. لم آكل شيئاً ممّا كنتُ طهوتُه البارحة؛ أعني الحَمَام بشرائح البرتقال غير المقشَّر. وحين أفقت عَصْراً كنت دائخاً، فتوجَّهتُ إلى البراد أطلبُ ماءً، ولمّا فتحت بابه انهمر عليَّ غيمٌ من الخُضار لا أتذكّر، قط، أنني حشوتُ به جوف الآلة ذات الحلم البارد.

أصناف لا تُحصى، من اللِّفْت إلى الباقلاء إلى الباذنجان إلى الخيار إلى الكَرَفس إلى الكُرّاث إلى الفُطْر إلى القُنَّبيط إلى الجرجير، إلى آخر ما يصلح أن يحتفظ المرءُ بقليل منه لأغراض طهوه أو اغتذائِهِ نيئاً. هكذا تجشّأ البرّادُ، فصرتُ أستخرجُ ما فيه طبقةً طبقةً، كأنني في جوف مخزنٍ هائل، ناثراً على أرض الغرفة أكواماً من نباتات الله، دون أن أعثر على جدار من جدران البراد الثلاثة. وكان، في مسعاي المحموم للعثور على زجاجة الماء، يتكشَّف لي صنفٌ تِلو صنفٍ مما في حواشي «التأسيس الكبير» من السِّحْرِ المُلْغِز الذي يتخذ أسماءَ النبات قِناعاً: هذا «شَعْرُ الجنّ»، ويسمّونه «لحية الحمار» أيضاً. تحته اضمومتان من «البقلة الحمقاء» ذات الرائحة التي يستعيرُ الفرفحيْن من حروفها فكرتَهُ المقروءة. يجاورهما ورقُ الماميران الصّينيّ، و«حشيشة العقرب»، التي يذهب البعض إلى رَفْع شأنها قليلاً من حال الأذى إلى حالِ أنيسةٍ فيدعوها «حشيشة الكلب»، وهو نبتٌ يتفتّق ورقُهُ في الطّور

السابع للقمر. أنزلتُهُ من البراد فإذا تحته كوم من «خُصى الثّعلب» الطريّ، ترك عُطاردُ عليه وشمَهُ كعروقٍ في باطن وَرَقِهِ. ومن خلف ذلك الكوم وقعت يدي على عروق كثيرة من «كُزبرة البئر»، التي اختلف الرُّعاة في ردِّ منشئها إلى الغمام الأبيض أو الرماديِّ. وإذ ذَرَرْتُهُ على الأرض خلفي، في نبشيَ المجاهلَ، أبصرتُ رِزْمة من «مِسْواك القرود»، الذي هو أُشْنَةٌ تبيض «طيور السلوى» فوقها بيضاً خفيّاً، قبل ان يقتلها صوتُ الرعد؛ وتحت الرِّزمة تلك مثيلتها من طُحْلب يشبهها اسمه «عَدَس الماء»، ما يزال نديّاً، فألقيتهما من وراء ظهري داخلاً بنصف جذعي إلى كهف البرّاد، ويداي تسحبان كلَّ ما يقعُ بينهما، أضاميمَ من هليون «أقلام الذئب» الخضراء، المُزْرقَّة في اختناق، و«وردِ الحمار» ذي الأصل الخِطْميِّ، الذي اتخذه المغيبُ بوقاً في نشأته الأولى كتأسيس زمنيٍّ لمراتب النهار. وكذلك اعترضني كومٌ من «بقلة عائشة» ـ شقيقةُ الجرجير، أو هي الجرجير. واعترضني من ثَمَّ «حبقُ الماء» عليه تُوبالُ حديدٍ هو سمادهُ. ومن تحته ظهر لي رِزَمٌ من «لسان الثور»، لم أفهم الحكمة في حَشْره، بزهره الأزرق، داخل الكهف البارد، وهو المفطوم على ترجمةِ مزاجِ زُحَل للحدائق. بعد ذلك كدتُ أغوص برأسي ومنكبيَّ في بِرْكة من «تفاح الأرض»، ـ صورة البابونج، ما تزال تعبث بين زهره الأصفر دعاسيقُ حيَّة، كأنما جيء بنبتِهِ توّاً من خلاءٍ قريب.

تنفَّستُ، عميقاً، خلائطَ من روائح الورق الطريِّ والزهر، وقد ازداد انخطافُ قلبي من البحث عن آخرٍ لهذا الأهراء النباتيِّ، فعنَّ لي أن أخرج من البراد، لأتحقّق من حجمه بعينيَّ، ما دام اتساعه، وأنا في جوفه، يغدو عصيّاً على القياس.

استدرتُ بجذعي المنحني نصف دورةٍ، فوقعتْ إحدى يدي على ورقٍ لزج. قبضتُ عليه وسحبته معي إلى ضياء الغرفة. استقمتُ أُريحُ فَقَارَ ظهري، متأمّلاً هيكلَ البراد الذي لا يزيد طوله على متر ونصف المتر، بعمق ثلاثة أرباع المتر، لا اكثر. لكن ذلك العمقَ الهيِّنَ ظلَّ مُعْتِماً كمشهد في الغسق. وإذْ رفعت يدي إلى وجهي، لأمسحَ عَرَقاً تهيّأ

لي أنه انحدرَ بارداً على أنفي، ألفيتُ ورقَ النباتِ اللزجَ ما يزال في راحتي، وقد نفثَ رائحةً مثل رصاص مطبوخ بصمغ الجوز الرومي، بحسب ما يذكره البيطريون. وهي رائحة لم اعرفها بالطبع، لكنني تصوَّرت أن لها هذه الصّفة تحديداً. وكان بين ورقه الكبير، الشبيه بورق الباذنجان، زهرٌ منمَّقٌ باللون البنفسجي، فأدركتُ أنني أحمل شتلاتٍ من «نِسيانِ الرَّعد».

لم يذكر أحدٌ، في التآليف الغابرة، نباتَ «نسيان الرَّعد» إلاَّ خصَّه بحواشيَ في أثر الأفلاك التي تهبه نِسغَهُ، وكذلك أثرِ الأجرامِ الرطبة واليابسة، حين دخولها مداراتِ الظاهرِ، في نَفْحِه ذلك الشوقَ الخفيَّ إلى النسيان.

نباتٌ أُوحيَ إليه أن يبتكرَ خيالاً في باطنه كالسلالم، حتى بات قادراً على قياس النِّسبِ المُختَجِبةِ بين أقمار كوكب المشتري التسعة، واستخراج الحصَصِ الزمانية من عِلْمِ الكُرَات، بتبديل الانحرافِ الدَّهريِّ. وذلك من الأمور التي لا تتجلى سوى للنسيان، فسمَّوه «نسيان الرَّعد»، ثم تولَّتْهُ مقاديرُ الأسماء فاستقرَّت به على واحدٍ تعرفه العامّة: «البَنْج»؛ أيْ ذلك المخدِّر المصطفى لجَعْلِ الألم سباحةً في العِرفان الأقصى، حيث المشمولاتُ الأنثويةُ بترفِ الله تتوازى في الأقواس التي هي «محنةُ الهندسة».

ينمو نبات البنج بين الزروع، وفوق الخرائب: هكذا يُصَنَّفُ كوجودٍ. وإذْ شممتُهُ في راحتي اكتملتْ بي دورةُ اليقظة بين النبات المرتفعِ هَرَماً مُبَعْثرَ الأضلاع في الغرفة، فجلست على الأرض ممسكاً بالألم بين أناملي كعينٍ زجاجية.

في راحتي اليمنى نبتةُ البنج، وبين أنامل راحتي اليسرى الألمُ رقيقاً، ناعماً، مخمليَّ الملمس، طرياً. وقد ساءلتُ نفسي، في تلك الآناء، لماذا استقرّ بي التقدير على أن ما أحمله في يسرايَ هو الألم، محسوساً على ذلك النّحو الطاهر؟ لماذا الألمُ تحديداً؟ لم تعبر ذاكرتي بارقةٌ من ألمِ ماضٍ حتى يتهيّأ لأناملي ما تهيَّأ لها. كما أنْ ليس في

جسدي المأمورِ بمناسك مداراته وأخلاطه ما يؤلم، فلماذا تصوَّرَ لي شكلُ الذاكرةِ المعفى من رسوم الظاهر ـ أعني الألمَ ـ رائقاً، ممتلئاً عافيةً كعافية المرئيِّ؟

قرّبتُ العينَ الزجاجية، الكروية، الطرية ايضاً، من وجهي أتأمّلُ إشراقةَ الفِلز الذي في جَزمها المائيِّ الكثيف: «إنها تشبه عين جانو»، هذا ما قلتُهُ لمخيّلتي، ثم ضحكتُ من فكاهةٍ سَرَدها لي ذات مرَّة، فحواها أن مدرّساً سأله: «ألا تشعر بإهانة من أن الأكراد يطالبون بمدرسة لهم؟»، فكان ردّه، كما أخبرني، استغراباً: «لم أفهم سيدي..»، فاحتدَّ المدرِّسُ: «أنتم عباقرة بجهلكم، فلماذا تُهينون هذه الهبةَ الإلهية؟».

«كان ابن القحبة، والله، على حقٍّ» قال لي «جانو» حين سرد النكتةَ التي تبدو غامضةً في حبكتها. لكنها تتألّق، حتى لو لم أفهمها، إذا كوَّرها بين راحتيه بألفاظ روسية، وتعابير كردية.

نكتةٌ مكوَّرةٌ كهذه العين التي أتحسَّسُها بأناملي. ويعاودني العطشُ فاقتحم البرّاد من جديد، بحثاً عن زجاجة الماء. وهكذا، ثانية، أنبش كالخُلْد في طبقات النبات داخل الكهف البارد، ملقياً إلى وراء كتفي بخشخاش كبيرٍ، وجُلُبّانٍ، وأغصانٍ من شجر البراغيث، وبخورِ مريم، وشتلاتٍ من زهر الحنّاء، وقِثاءِ الحمار، وورقِ ملوخيّة، وسماقٍ أخضر، وبرسيمٍ قد يغيظُ الشيطانَ وجودُه في براد البيت.

أخيراً وجدت نَفْسي أمام ثغرة. لم يكن للبرّاد جدار خلفيٌّ، بل ثغرة كبيرة. مددتُ عنقي أستجلي ما وراءها، فوجدتها تشرف على هوَّة. تمدّدتُ على بطني أتأمّل الهوَّة فإذا هي قبو مسكني ذاته، مضاءً بضوءٍ فيروزيٍّ شاحب، يغمر بقعة دائرية من أرضيته التي اقتعدها ثلاثة أشخاص متقابلين، رفع اثنان منهم وجهيهما إليَّ، في صمت موحش، فعرفتهما: جانو، وميلان، فيما بقي الثالث، الذي لم يكن إلاّ الشاب الغريب، على سكونه المُتْخَم بلألأةِ المعادنِ وسط دائرتهم.

٣ ــ النَّحَّاتــون

ذاتَ خميسٍ مسكوبٍ، من قُمْعِ برج الميزان، على فجرِ الله، أفقتُ على صوت طائر اقتحم غرفةَ نومي، من الشُّبَّاك المفتوح على مصراعيه. دار دورتين في أرجائها التي لا تشبه سماءَ اعتادَها، ثم خرج.

لم تستغْلِقْ عليَّ هويتُه برغم الزيارة الخاطفة: إنه هدهدٌ، ترك لي خَفْقَ جناحيه تحيةً تائهةً بادلتُها بشُكْرٍ للصباح الباكر على مَرَحه.

ليس من عادة الهدهد دخول البيوت، كما أعرف، وفاجأني أنَّ في تلك الأنحاء صنفاً منه، لم يُقدَّر لي رؤيتُه عشرَ سنينٍ، إلاّ اليوم. فيما كنتُ أرى في حواشي خرائط الصيد المُغْلَنَةِ من قِبَل الدولة، صورتَه بين صور طيور أخرى يطاول القانونُ من يتصيَّدها، فأكاد أزعمُ أن لا وجودَ له في جزيرة النحاس الأحمر. لكنني أدركتُ خطأي، في عقْرِ غرفة النوم، فجراً، وعلى علوّ متر واحد من السرير: يا للتَّحيَّة الصاخبة.

بعد نصف ساعة من تلك الزيارة ارتفعتْ تحيةٌ أكثر صخباً: لقد تهيَّجتِ الأبراجُ فلامسَ الجوزاءُ القوسَ، وانحشر السلطعونُ في ظل الميزان. وإذ تقاطع شعاعُ الشمس المستورة مع الخسوف الثالث لقمر أورانوس الدمويّ، تدلَّت من فوق سور مساكن المهندسين سلاسلُ الرافعات الآلية الضخمة، وقد تشبَّثَتْ خطاطيفُها الحديديةُ بقطعٍ هائلة من الصخور.

كانت الآلات تلك تسير دائرياً، من وراء المساكن المسيَّجة، فتضع أمام كلِّ مسكنٍ حجراً ضخماً، بأذرعٍ تمتد من فوق الأسطحة القرميد، بطريقة عَقْفِيَّة، لتصير في مواجهة الأجزاء المخصَّصة لإقامة الحيوانات تحديداً، حيث يتولّى رُسُلٌ، في معاطف زرقاء رقيقةٍ، معفَّرة بهباب الصخر، تثبيت تلك الكُتَل الصَّلدةِ، على الأرض، وتحريرَها من سلاسل الرافعات.

فوجئنا قليلاً ذلك الصباح، مع علمنا أن الحجارةَ قادمة عاجلاً أم آجلاً، بعدما اكتمل الحضورُ الحيوانيُّ، حتى التخمة في مساكن المهندسين، وبعدما اكتملت رفاهةُ ذلك الحضور فغدا تَرَفاً كجوهرٍ من أسرار الكَيْموسات. ومع ارتفاع الشمس، باتِّكاءٍ على مخيّلةِ السماء الضَّحلةِ، خرج المهندسون من مساكنهم بشوشيْنَ فضوليِّيْنَ، يدور كلّ واحد حول الصخرة التي تواجه مأوى حيوانيِهِ، مشدوداً ببصره إلى قياس أبعادها الصُّلبة طولاً وعرضاً، وتحسُّسِ مَلْمَسها في حياءٍ عائليٍّ.

بالطبع، نزلتُ بدوري إلى محيط حَجَرِيَ المنتصبِ حافيَ القدمين، ما أزال في منامتي المُخَطَّطةِ، فوجدت «جانو» في منامته المخطّطة، أيضاً، يتأمّل الحجر الذي تُسْمَع شهقَتُهُ العميقةُ في باطن الساحة الرملية، حتى أنها دغدغت قَدَميَّ، كما دغدغتْ قدميْ «جانو» الحافيتين، فلم يبخل بدعابةٍ راقصةٍ رماها إليَّ: «هذا حجرٌ يعبث بخصيتيْهِ، يا رجل».

باتِّفاقٍ غير مُعْلن، لم يغادر أحد من المهندسين ساحةَ المساكن الدائرية، ذلك اليوم الذي بسطَ الحجرُ فيه شهوةَ أبراجه الرطبة على فَلَك المكان وبوّاباته الزمنية: كل مهندس وضع منضدةً صغيرة في ظل حَجَرِهِ الضخم، وكرسياً، ثم عكفَ على القراءة، أو الكتابة، أو الشرب والأكل، كأنه في نزهة إلى دَغْلٍ، أو في مكتبٍ للعمل ينجز فيه ما ينبغي أن يُنْجَزَ، من الصباح حتى هزيع الليل الأول، بانتقالٍ دائريٍّ - كلُّهم - من حول تلك الأنصاب، مع كراسيّهم وطاولاتهم، بحسب معارجِ الشمس في القُبَّة الثامنة لسماء الجزيرة، وترحالِ الظلّ.

لم يخالط أحدٌ أحداً، ذلك اليوم. إيماءاتٌ من بعيد كانت تتردَّد بصداها المكتوم بين الوجوه، ولربما رفَعَ مهندسٌ كأسَ شرابه نَخبَ الآخر، أو ألقى جارٌ إلى جاره بحبَّةٍ من الفاكهة. غير أنني و«جانو» نصبنا مظلَّةً بَحْريَّةً في منتصف المسافة بين مسكنينا، وجلسنا إلى طاولة صغيرة تحتها، معاً، على كرسيَّيْن من فتائل القُنَّب، يلقي، هو، بنكاتِهِ، وأضحك أنا فوق صحون من الخضار الطازجة نضَّدناها أمامنا، تحفُّ

باخطبوطٍ مسلوق بالكَرَفْسِ يؤكل بارداً مع رشقات من الأوزو القبرصيّ، والفودكا.

«ميكاليدس»، المشرف على إدارة المساكن، وضع طاولةً صغيرة، بدوره، في الساحة، وجلس مكشوفاً للشمس دون مظلّة. لم يكن قربَهُ حجر يستظل به، لأنه ليس مهندساً من نزلاء تلك الحجرات المنفصلة الدائرية، ولا حيوان لديه يرعاه حتى يُخَصَّصَ بنُصْبٍ تحمله الرّافعاتُ إليه. وهو، على أية حال، يأتي صباحاً من بيته في المدينة، ثم يغادر مساءً. أما جلوسه هناك، ذلك اليوم، فلم يكن مفهوماً.

لا شيء على طاولته غير زهرة جيرانيوم موضوعة في كأس من الماء. حاول «جانو» مراراً، بتلويحة من يده، أن يدعوه لينضمَّ إلينا، فما بدرَ منه أنه يرى التلويحةَ وصاحبَها. بقي جامداً في مصبِّ الضياءِ اللافح، يذوبُ دون تذمُّرٍ في ملامحه أو حركاته، وقد توهَّجَ رأسه الأصلع، أو ما بقي من رأسه، وتماوجَ في هالة الحرِّ الصاعدةِ بدماغهِ بخاراً خارج قَحْفِه، فتلبَّسَ إكليلاً نورانياً كالقديسين في رسوم اليأسِ الإنسانيِّ من خلاص العالم.

في الظهيرة القاسية، المرتديةِ جلدَ الضَّبِّ، بدَرَتْ إشارةٌ سرّية من عيني «ميكاليدس» المتلاصقتيْ الجفون من العَرَق، فتكلَّم «جانو»: «إنه يستنجد، يا رجل». غير أنني لم أجد فيهما استنجاداً قط. ولماذا يستنجد؟ ممَّ؟ أحسَبُه كان يغمضهما من الوهج الضاري في فَلَكِ الساحة، ثم يفتحهما ليردَ عنهما العَرَق المتسلِّل من حاجبيه الكثين إلى محجريهما. قلتُ: «أنت تتوهَّم، جانو. إنه يطردُ النعاسَ».

«أيّ نعاسٍ، يا رجل» همس «جانو»، مُرْدِفاً: «لقد خُدِعَ».

«خُدِعَ؟!» قلتها متسائلاً، ثم مضغتُ ورقَةَ خَسٍّ: «مَنْ خَدَعه؟».

«لا أعرف» قال «جانو».

«لماذا يجلس الأحمق في الشمس، هكذا؟»، قلتُ لـ «جانو» متجاوزاً العبثَ في استنتاجاته.

«لأنَّه خُدِعَ»، ردَّ «جانو» بإصرار من تحت حاجبيه، وهو يحدِّق في «ميكاليدس» بدقَّةٍ، قبل أن نسمع الرَّجل البدين يشهق باكياً، وهو ثابت في مجلسه كالمُقيَّد.

«ألم أقُلْ لكَ. .» تمتم «جانو»، ونهض هامساً: «تعال».

ظننتُ جليسي سيبادر إلى الإقتراب من طاولة «ميكاليدس» لمواساته في محنته غير المفهومة، فنهضتُ، بدوري، ماشياً خطوتين في اتجاه عُمق الساحة، لكن «جانو» استوقفني: «أعني تعال نبحث عن خُطافيْن، أو كلاَّبتيْ حديدٍ»، فلم أفهمه قط، وفتحتُ ذراعيَّ مبدياً يأساً ممّا يقوله، فرجع إليَّ وشدّني من كتف قميصي في رفق: «أريد أية آلة معقوفة، يا رجل، تصلح لنهش هذه الساحة»، فأرخيتُ شراعيَ له، متجهاً مثله إلى مسكنه، الذي خرج منه بمِنْكاشٍ حديديٍّ، قصير المقبض، يُستخدم لتَفْلِيَةِ التراب في حدائق البيوت. ولمّا كنتُ أملك مِنْكاشاً، بدوري، فقد جئت به، من مسكني، ملتزماً إشارات «جانو» الغامضة، والملِحّة في آن، لأستَهْديَ إلى غايته.

اتَّجه «جانو» بالمنكاش إلى الحجر المنصوب أمام رُكْن حيوانَيْه، ثم غرزَ الأسنانَ الحديدية الستَّ في الظل المتكوِّم لصق جَذْره الثقيل، وشدّه كَمَنْ يشدُّ رداءً. ثم ناداني مستنجداً: «ماذا تنتظر؟ هاتِ منكاشكَ، يا رجل»، فجاريتُهُ باستخفافٍ، ناشباً أسنانَ المنكاش في ظل الحجر على رمل الساحة، وجذبتُه مقلّداً إياه.

نَبَضَ صدغايَ، وارتجفَ عِرْقٌ تائهٌ من عروق كبدي، وأنا أرى الظلَّ ينفصلُ عن قاعدة النُّصب الحجري، عالقاً بمنكاشيْنا مثل بساط رماديٍّ. لكنه كان ثقيلاً، منسوجاً من خُبْثِ الرَّصاص وألياف القصب: هكذا تهيّأ لي ذلك الظل. وقد استنفدنا قوانا، بعد جرِّه شبرين، فتركناه عائديْنِ إلى طاولتنا نسترد أنفاسنا ونرتشف قليلاً من شرابينا، ثم رجعنا نسحلُهُ بالمنكاشيْن شبراً آخر ظننَّا معه أن رئتينا ستتشظّيان.

كان ثمت إصرار في عينيْ «جانو» على أن يبلغَ بالظلِّ المنفصل

عن الحجر إلى موقع «ميكاليدس»: عَرَقُهُ نافرٌ، شارباه يرفرفان. غُرَّتُهُ ملتصقة بجبينه. قلبُهُ يتسرَّبُ، ذائباً، في عروقه إلى يديه. حدَّقتُ فيه متسائلاً بصوتٍ خفيض: «كيف عرفتَ أن ظلَّ الحجر سينفصل عنه؟»، فتطلع إلى «ميكاليدس»: «لقد خُدِعَ».

جوابه مُبْهم. لم أُعِدْ سؤالي عليه. ليكُنْ أنْ أُجاريَهُ في سخريتهِ المُتْعِبَة إلى آخرها. «تعالَ» قلتُ له، وأنا أمضي بالمنكاشِ إلى الظلِّ المُلقى على حصى الساحة، ناشباً فيه أسناناً سِتّاً من الحديد، فانضمَّ إليَّ يسْحَله بشَدٍّ أقسى من المرَّة الأولى. وقد سمعتُ صريرَ زحفِ الظلِّ كأنّما هو معدنٌ. وما كدنا نقترب به من طاولة «ميكاليدس» حتى تمزَّق، فجاءةً، بين أسنان المنكاشين كما يتمزَّقُ ثوبٌ سميك ذو طبقتين، بينهما تجويفٌ كالكِيس تناثر منه خرزٌ كثير، وتساقطت خناجرُ ومُدى أشبه بالتي اقتنيتُها من أسواق «باكو».

كان كثيراً عليَّ أن أستوعب كيف انفصلَ ظلُّ الحجر عنه. وزادني بَلْبَلةً تمزُّقُ الظلِّ وانكشافُ ما فيه من أشياء، فاستويت واقفاً، مأخوذاً بالحادث، لكنَّ «جانو» انكبَّ يلمُّ تلك الأشياء عن الأرض، ويكوِّمُها جانباً، كأنما يزيحها عن الطريق الذي سيسلكه ظلُّ الحجر، سَحْلاً، إلى موقع طاولة «ميكاليدس». وإذ انتهى من ذلك حثَّني أن نكمل الجرَّ، فجاريتُه بمِنكاشي أشدُّ المِزَقَ إنَّما دون جدوى، لأنها لم تتزحزح بعد ذلك، صائرةً إلى ثِقْلٍ مغلولٍ إلى الأرض بأوتاد الجنِّ.

استَقَمْتُ يائساً، واستقام «جانو» بدوره، نقيس بأعينٍ خائبةٍ ما تبقّى من المسافة إلى «ميكاليدس»، الذي بدا مستسلماً لخداعِ عاصفٍ أوثَقَ أعماقَه فما عاد يكترثُ لنجدتنا الغامضة. كما أن المغيبَ هشَّمَ كلَّ أملٍ بإلقائه ظلالَ شجر الصنوبر العابس على الساحة، فزحَفَتْ كحشرات اليَسْرُوع قاضمةً كلَّ ظلٍّ آخر.

لم أكن أتوهَّم ما أسمعُه من ذلك الظلِّ الممزَّق، الذي سحلناه: كان للقِطَعِ المتناثرة منه، بفعل مِنكاشينا الحديديين، لهاثٌ مسموع،

كلَّما التهمَ المغيبُ قطعةً منه بأسنانِ الظلال الأخرى. «جانو»، نفسه، أصغى مثلي، ثم ابتسم وهو يرى انحلالَها، واحدة بعد أخرى، حتى اختفتْ. نظرَ إلى «ميكاليدس» معتذراً عن أمرٍ لم يقدر عليه، فنهض «ميكاليدس» منسحباً في اتجاه بوّابة سور المساكن. وعاد «جانو» فتطلّع إليَّ بنظرةٍ كالتي تعوّدتُها حين ينبغي عليه ترتيبُ ملهاةٍ صارخة بأقلِّ كلفةٍ في الكلمات: «كل هذا دُعابة»، وأضاف، بعد ما رفع مِنكاشه إلى مستوى صدره يعاينُ أسنانَه الستَّ: «الظلُّ الذي تمزَّقَ؛ ظلُّ الحجر، هذا، دعابةٌ». فرمقتُهُ عابثاً على طريقته: «دعابة من خصيتيك»، فاستوقفني بإشارة من إصبعه: «لا، يا رجل. إنها ليست دعابة عادية، بل مقلبٌ حقيقيّ رتَّبَهُ «ميلان» لي ولك».

كان ثقيلاً أن يزجّ «جانو» باسم «ميلان» في عاصفة المغيب الصامتة، الملأى بحنين الظلال إلى السطوة الأولى لبهاء العدم. وقد أبديتُ بَرَمي من مَرَحِهِ المُجازِف، فوضع يده على كتفي، بالطريقة التي تعوّد أن يؤكّد لي أمراً جادّاً في تصنيف مزاجه: «ألمْ تَرَ، يا رجل؟ منذ متى تنفصل ظلالُ الحجارة عن كتلتها، ويستطيع شخصان ـ مثلي ومثلك ـ سَحْلَها كأنها سراويل جدَّتينا، إذا لم يكن في الأمر تدبيرٌ من ميلان؟ هَا؟».

لمستْ كلماتُه جزءاً مهشّماً من أعماقي له خاصِّيَّته المقامرة بيقيني كلِّه، حتى أنني كدتُ أوافقه: «ولِمَ لا يكون ميلان وراء هذا التدبير الطائش للحقيقة بسحره اليائس؟ ما من شيء يؤكد أنه لم يكن هنا، اليوم، في الضراوة المُلْهِمَة للعبث فنقْدر أنا وجانو على ما قدرْنا عليه». لكن حيّرني ـ فيما لو كان الأمر مَقْلَباً من «ميلان» ـ كيف بَتَرَ المغيبُ المهمَّة فما استطعنا إيصال ظلِّ الحجر إلى «ميكاليدس» اليائس مثل «ميلان» نفسه، في ساعة هي ساعة العرَّاف تنغلق كلماتُه فيها على مُطْلَقِها فيُخادِعُ المعنى شقيقَهُ المعنى، ويقع العقلُ في الفخِّ الأزليّ.

«ميلان»، نفسه، وقع في مَقْلَبِ بهزيمةِ «ميكاليدس»، الذي سيختفي فيما بعد، نهائياً، فلا يرجع إلى إدارة مساكن المهندسين قط.

وسيُستعاض عنه بطبيب تتداخل مهمّاته وتتقاطع، في اليوم التالي لواقعةِ جَزِّ الظّلِّ.

وفي اليوم التالي لتلك الواقعة، بالطبع، يأتي النّحاتون، بعدما تهيّأ الحجرُ لاسترداد شكله الذي أُخفي عنه في درْج مغلقٍ من أدراج الخَلْقِ التسعة ذات الصرير النورانيِّ كلّما سحبتْها يدُ الأبدِ القويةُ.

صخب هائل رافق مجيء النحاتين. فريقٌ من الممثلين العاملين في المسرحِ الوطني، دخل الى الساحة، صباحاً، في موكب يجرُّ كُرةً ضخمةً من الكريستال بسلاسل نحاسية. ثم ترك الكرة ـ على نحوٍ إيمائيٍّ ـ في مركز الرمال الناعمة، أمام أعين المهندسين الشاخصة بفضولها الماجن، وتوزّع الفريقُ كلٌّ أمام مسكن من تلك المساكن الدائرية، في ثيابٍ من عهود الإغريق المتكئة على سلالم أساطيرها، ينتعلون نعالاً جلديةً سُمِّرَتْ في أعقابها، بشكل مدروسٍ، سهامٌ صغيرةٌ، مُرَيَّشَةٌ بريش عصافير الزيتون ذات الجسوم المموَّهة بدرجاتٍ من الأخضر إلى البُنّيِّ. وقد أخفى كلّ ممثّل وجهه في قناع جرى تصميمه على نحوٍ مُمَزَّق، موشوم برموز تدلُّ على بلدٍ ما من بلادِ العالم. إلاّ أنَّ ممثلاً واحداً، فحسب، خُصِّص لمسكني ومسكن «جانو»، على خلاف القِسْمة التي أُفرِزت لكل مسكنٍ ممثلاً. ونحن لم نهتمّ للمسألة بالطبع، لأننا انصرفنا إلى تأمّل ذلك الشخص الذي من غير قناع بين الفريق برمّته، وهو يقف على بعد أمتارٍ، في المنتصف بين المسكنين، لا يؤدي حركاتٍ إيمائية، مطرقاً، كأنّما ينتظر إشارةً من مُلَقِّنٍ مستورٍ.

مضت دقائق والرجل المُطْرِق، في وقفته الثابتة، على حاله، فيما كان الممثلون الآخرون يُشعلون الساحةَ بضحك المهندسين، تحت سقف إيماءاتهم الأنثوية، حتى أن امرأة احتجّت، فيما بعد، كما عرفنا، لدى الإدارة، متسائلة بغيظ مكتوم: «أليس في مستودعات الفنون، عندكم، غير الفُرُوجْ؟»

تطلّع «جانو» إليَّ وتطلّعت إليه مُتسائلَيْن في حال المُمثِّل الخاشع. ثم أبْدَيْنا، معاً، حركاتٍ إيمائية تهريجية علَّهُ يخفّف على نَفْسه وطأةَ

سكونه الثقيل، فلم نجتذبه، بالرغم من أنه رفع وجهه المُطْرِق إلينا لبرهةٍ، وعاد فنكّس رأسَه الطفوليّ على نحوٍ يائس.

«ما الحال التي تسود هذه الساحة، منذ يومين؟»، سألتُ «جانو»، وأنا أحسُّ انقباضاً عَبَرتْهُ مجرّاتٌ منفصلة من زُحل في اتجاه عطارد، فمسَّد جاري على شاربيه براحتِهِ الرطبة، وأغمضَ إحدى عينيه متفكراً، ثم انحنى ملتقطاً حصاةً من الأرض، وقذفَ الممثّلَ بها مُغمغماً: «هيا يا دوائرَ بِرْكة أفروديت»، فإذا بالممثّل نَفْسه يلتقط حصاةً ويقذف بها «جانو». بعد ذلك، بشبرٍ من الزمن، حمي الوطيس، واستولدتِ العدوى كُراتِها المتدحرجةَ، فلم يبق مسكن إلاّ تقاذف المهندسون والممثلون أمامه بالحصى، عشواءَ، يُصابون أو ينجون، دون أن يبرح أحدٌ مكانه، لتكونَ الأهدافُ مكشوفةً باتّفاقٍ كريم.

امتلأتْ ساحات الحدائق الصغيرة، أمام المساكن، بالحصى. واستقرّ بعضه على الشرفات الواطئة لغُرَف النوم. وبالرغم من المرح الذي أشرف على اللّعب كَحَكَم، لم تنج بعض النوافذ من المسّ الشَّبِقِ في ذاكرة الحصى، فاغتُصِبَ زُجاجٌ هنا، وزجاج هناك، حتى تناهى إلينا - في انحطامِهِ - لهاثٌ كلهاثِ المتعة المُتَشظّي. ولم يوقف اللّعِب الذي طال أكثر من ساعةٍ إلاّ الهمهمات التي توالتْ قويّةً من الأركان المخصَّصة للحيوانات، على نحوٍ هيمن معه وَجَلٌ خفيف وسكون، معاً، كأنّما استنشقَ الجميع، بمسامعهم لا بأنوفهم، تحذيراً ما، مبهماً.

تفرّق الممثلون بعد انحناءاتٍ فيها الكثير من المجاملة، فيما رجع المهندسون إلى مداخل أبواب مساكنهم، ريثما يدخل النحّاتون، الذين بدتْ مآزرهم البيضاء جافّة في ظلال شجر الصنوبر، وهم ينتظرون أن ينتهي الممثلون من وَصْلَةِ التعريف الشقية باليأس، حين يكون اليأس نعمةً، بحقٍّ، ما دام الأمل لا مُحْتَملاً.

أكان الممثلون يؤدّون تعريفاً باليأس، حقّاً؟ كيف اتّفق ذلك لخيالي؟ لا أعرف. ولطالما نبّهتُ نفسي أن لا أنزلق إلى تقديرِ ما مِنْ رابطٍ يربطه بعلل الأمور. لكنني لم أستطع، مراراً، مقاومةَ ارتجال العقل

بانحيازه إلى الظاهر، الذي يرى «جانو» فيه أنه كمالٌ مُسْتَبْطَنٌ، مستنداً في تعليله إلى الحساب: «قِسِ الأمورَ إلى الصِّفرِ تَنْجُ»، ويستدرك قصوري عن متابعةِ منطقة الصِّفراوي، فيشرح: «ينتقم الصِّفرُ من العدم المُطْلَق بتلفيق الكثرة المُطْلَقة للوجود»، متباهياً بِلِقْيَةِ الفِكر التي استنْبَطَها: «الصِّفر حقيقةُ الظاهر، يا رجل. وله خصيتا أسْقِليبوس الفَلَكيّ». فأتمعنّ فيه مرتاباً: «جانو.. من أين تأتي بهذه التعريفات المُلْغِزَة؟ أظنّك تنتحلُها أيها اللص»، فيرد متخابثاً «أيّ حمار غيري يلفّق، مثل الصِّفرِ، مَهَمَّةَ المَنطق على هذا النحو؟»،

لا أظن «جانو» يلفّق قط، بل يسرق ألفاظَه من مصدر مستور. وإذْ خطر لي ذلك التفتت بوجهي إليه، بعد الفاصل المَرِح الذي تبادل فيه المهندسون والممثلون حصواتٍ كثيرة، فوجدته متكئاً على عمود الإنارة الخشبي لصق حديقته، سارحاً بعينيه الغائمتين في المتاهة اللامرئيّة لضياء ما قبل الظهيرة. فقطعتُ عليه خيطاً من خاصِّيَّة الوحشة التي يغلِّف بها عنكبوتُهُ الأجرامَ، منادياً: «جانو.. في أي فَلَك من أفلاك الدلفين أنت، الآن؟». فابتسم دون أن يلتفت بوجهه إليّ، ثم أطرق برهةً طويلة، قبل إدارة عينيه مدى رُبْع قوسٍ: «كنتُ في فَلَك التِّنين يا رجل، مع يلماز مَلِّيْ. خرز كثير يتساقط من حوله مثل حصى هذه الساحة، وهو نائم، الآن. في مقهى ما».

كان «جانو» قد شرح لي، من قبل، عن نوم المشرَّدين في المقاهي، وذلك أمر لم أعرفه في الصعيد الذي جئت منه. ومعرفتي لا تجاوز أن المقاهي هي أمكنة لَهْوٍ بورق اللعب، أو استذكار أملٍ على بخار الشاي الأسود، أو العبور إلى ريح اليقين بضرباتٍ من النَّرْد على قاع الطاولة الخشبي، الموشوم بأزاهر من العاج والصَّدَف تنبثقُ من فخاخ الحظوظ.

«يصير المقهى عندنا، في ليل تركيا، نُزُلاً دون أسِرَّةٍ للتائهين في مسالك العالم» قال لي «جانو» من وقتٍ بعيد. وفي شَرْحه أن تلك المقاهي، التي لا تغلق أبوابها حتى الصباح، تقاضي من يريدون النوم

ثمنَ ليلتهم، بسعر مُخَفَّضٍ، فينام المرء في كرسيّه حتى الفجر، منبطحاً بصدره على الطاولة أمامه: «لكلِّ ظرْفٍ تصريفٌ في الحياة يا رَجُل، والمقهى الذي يصير نُزْلاً رخيصاً للمُشَرَّد في الليل، أمانةُ الله في عُنق الأقدار». أمّا أن يتذكر «جانو» سجينَ الألف عام «يلماز مَلّي» - في تلك البرهة الفاصلة بين انصراف الممثلين، ومجيء رجل شاحب في مهمة كمهمة الكشاف قبل دخول النحاتين فراغَ الساحة - فإنما يعني انجراف كوكَبه الرابع - من أقمار قلبه العشرة - إلى كسوفٍ ثقيلٍ، أحزنني قليلاً. لكن الرجل الشاحب صَرَفَ كِلَينا عن الجاذب الرقيق من الحزن الذي مسَّ أعماقَنا، فأمعنَّا النظر، كبقية المهندسين، في سلوك الشخص المرتدي مئزراً أبيض؛ وبالطبع سيتكشَّفُ لنا، من بَعْدُ، أنه طبيب متخصِّص في القلب، حلَّ مكان «ميكاليدس» في إدارة المساكن إلى جانب مهمّته الغريبة الأخرى: أعني معاينَةَ الحجر بآلَةِ قياسِ النَّبْض.

عاصفاً تقدَّم الرجلُ ذو المئزر الأبيض من الأنصاب الحجرية؛ حركتُهُ قَلِقَةٌ متسارعة كعصفورِ هزَّازِ الذَّيل. مستطيلُ الوجه، شاحبٌ في رقَّةِ المتأمِّل. شعره قصير فاحم. نحيل مثل نبتة البازلاّء. تغطي عينيه الجاحظتين نظّارة سميكة في إطارِ فضِّي يليق بخفايا العلوم، واستراقِ الشُّطَّارِ النظرَ إلى المغاليق. أما عمره فلا يثبتُ للتقدير، والتمحيص، ولو بدا على شبابٍ.

هذا ما رأيت من منظره، غير أنَّ التفافاته العاصفة، قوسيّاً، من حول الأنصاب، استوفزتْ شرايين عنقي، وكان في ذلك يحمل آلَةَ قياسِ النَّبْض المتصلة بأذنيه فيضعها على مواقع مختارةٍ من الحجر، ثم يُصغي في تربُّصٍ واضح، ويرفع دفتره الصغير، الأبيض، إلى كَثَبٍ من عينيه مسطِّراً ملاحظاته، ثم ينتقلُ إلى حجرٍ آخر، كَمَن يُحْكِمُ الحصار على كائنٍ سيفرُّ، وهو يدندنُ لحناً لا ألفاظ فيه، بل رنينُ تهديدٍ ساخرٍ.

«القلبُ تدوينٌ مضطربٌ يصحِّحُهُ السِّرُّ»: تلك ستكون عبارتُهُ الأثيرة، فيما بعد، كلَّما افتتحَ محادثةً مع امرىءٍ منّا. غير أنّه حين انتهى من تشخيصاته، قبل ظهيرة ذلك اليوم، اتجه الى جَمْع النحاتين، مُبْلِغاً

إياهم، بإشاراتٍ عجولةٍ لكنها مُتْقَنَةٌ، أن المشهد هو في عهدتهم الآن، فتهادوا إلى الساحة في مآزر بيضاء، أيضاً، جَمْعاً ما لبثَ أن تفرَّقَ كلٌّ يعاينُ الحجرَ الذي يمهِّد الشَّكْلَ الدَّفينَ لشهواتِ يديه.

لم يفعل النحاتون شيئاً ذلك اليوم، سوى قياس المسافات، بأقدامهم، بين الأنصاب الحجرية والحيوانات في اركانها. وكانوا يتشمَّمونَ الهواء على نحوٍ يفعله قيَّافو الآثار في المغاور، ويدوِّنون ملاحظاتهم على ورق خشن شبيه بأوراق «جين»، ويدندِنونَ ألحاناً مختنقةً من أعماق رئاتهم، مثلهم مثل الطبيب الذي افتتح المكيدةَ المعلنةَ في الساحة الدائرية لمساكن المهندسين. وقد بدوا لي، باختصار، باردين جداً، محترفين إلى درجة اللامبالاة، أو الاستهانة بمهمتهم. ولربما كانوا يتظاهرون بذلك، كأنما يوحي أحدهم للآخر بالسطوة المُتْقَنَةِ التي تأصَّلَتْ في أنامله، عبر قرون غامضة، حتى أن الحجر سيتلعثم ويلين إذا مسَّتْهُ تلك الأنامل الأبويَّة، وهي تعيد طفولة الشكل، في أعماق الكتلة الصلبة، إلى فراغها العائليّ.

صباح اليوم التالي كانت الساحة في هذيان، وقد غطت أرضَها الرملية أشرطةٌ طويلة تتمدَّد فيها الكهرباء بحنان، من مَقْسَم تحت الأرض، قرب مسكن الإدارة، حتى أحشاء الأزاميل الآلية الرقَيقة في أيدي النحاتين. وكان يكفي تلك الأزاميل أن تمسَّ الحجر مَسّاً رقيقاً لتتهاوى قشورُه الخارجية، في إتقان لم تعهده المطارق اليدوية التي اتَّصف بها عمل النحاتين، من قبل: الآلةُ هنا، في هذه الساحة، تحفظ عن ظهر قلبٍ تعاريجَ الشَّكْل الذي سينبثق من مجاهل الفضاء الحجريّ.

غبارٌ أبيض نثرَ فكاهاتِهِ على سياجات حدائقنا، وعلى أوراق النباتات الطرية في تلك الحدائق. ثم صعدتِ الفكاهاتُ البيضاء إلى الشبابيك لتستلقي على الأسِرَّة. فضاعف كل مهندس ـ طوال ثلاثة أسابيع هي ما استغرقتِ النحاتين لإتمام الهيئات الحيوانية الصلبة ـ من تنظيف مسكنه، حتى كدتُ أن أنقطع عن ارتياد مقهى «أبوستولي» في تلك الأثناء، لولا حَنَقي الذي ألقى بي، في اليوم الرابع من عمل

النحاتين، إلى الرصيف المنتظر قدومي مع «جانو»، على عادتنا. لكن «جانو» بقي في مسكنه، يراقب عن كثب جِيَلَ الشَّكلِ الفارهة، فحلَلْتُ وحدي على مملكة «أپوستولي»، الذي أبدى استغرابه من اختفائنا. وقد حاولتُ عبثاً، بألفاظ يونانية مكسورة، وجُمَلٍ منفصلةِ الأضلاع، شرحَ الأمر، فإذا بالموضوع يزداد غرابةً في عينيه، فصرفت النظر عن التمادي في إفهامه، بكلماتٍ حوَّلت أعماقَهُ إلى مرتعٍ لغُزلان الثلوج الإلهية، وهي ما تعلمته من «جانو»: «كيف حال فُرُوج الرومانيات؟»، فإذا به ينط بوصةً عن الأرض في مَرَح هائل: «لديَّ امرأة روسية، الآن»، ودار على نفسه غير مصدِّقٍ أمرَها: «امرأة روسية»، ذلك ما فهمتُ من ألفاظه القليلة، التي اختزلها من أجلي. ثم فتح راحتي يديه، كأنما يلمُّ بقايا الكون المتحيِّز لحزبه الشيوعي، وتمتم حروفاً هاذية: «لينين. بلشفيك. قمر أحمر»، أظنها أقصى ما تحتمله مخيلته التي لم تنصرف، قط، إلى تلفيقٍ شاعريٍّ لأشياء العالم، من قبل.

لدى «أپوستولي» امرأة روسية الآن. لديه فَرْجُ الفكرةِ كلِّها الآن. لدي المسارُ الأخْرَقُ إلى انقلاب العالم انقلاباً عادلاً، في فجرٍ عادلٍ، تُلقي فيه البشريةُ جوهرها الكليَّ إلى أبدِ النعمة، مطمئنةً إلى أن الله لن يُعِدَّ متاهاتٍ أخرى للحياة. لكنه أبدى ملاحظة فيها شيء من قَلَقِ الذَّكَر، بإشاراتٍ ماجنةٍ من يده تفصحُ لي أنه فحلٌ حقيقي، ينكحُ كمراهقٍ. ويضع راحته على قلبه زيادةً في التأكيد: «تمام. قلبي تمامٌ»، ثم يتساءل: «إنها لا تنفعلْ..»، ويعيد تكرار إشاراته الماجنة: «ساعة بأكملها أدفعُ فيها بهذا الإحليل ولا تنفعِل». ويحدِّقُ فيَّ مستغرباً: «لماذا؟».

لماذا توهَّم «أپوستولي» أنني أعرف جواباً؟ أهي لغتي الروسية، ومكوثي في بلاد لينين طالباً؟، لكنني، قطعاً، لمستُ المُعْضِلَة التي أقلقت ذكورةَ «أپوستولي» بعينيَّ حين رأيت، فيما بعد، تلك الفتاة الروسية، الصغيرة السنّ قياساً إلى النساء المدرَّبات، ببرودةٍ موحشةٍ، على الهرب من ماضي الروبل ذي الصقيع الساخن: لقد كانت تلك

الفتاة، غير الجذابة، تحمل في ملامحها انكساراً لا يُمكن تجاوزُهُ قط. وأظنُّ أن فخذيها الطويلتين أشغلتا «أبوستولي» عن ذلك الإنكسار، لأن حُلُمَ عمره المنتصر، بلقاء كائنٍ من الأرض التي أعطت حزبَهُ نبرةَ الخطابة القوية، صَرَفَهُ إلى استغراقٍ في نشيدٍ لا يعرف أين تبدأ كلماتُه وأين تنتهي.

هي باردةُ الجسدِ المستنفَدِ مع «أبوستولي»، لكنها وديعةٌ مستسلمة كشراع مُمَزَّق يلفُّه الرَّجل ـ ذو القلب المنكوب ـ على صاريته، جذلان من الشَّبَهِ الذي اكتشفه، أوَّل مرَّة، بين الحروف اليونانية والروسية. أما تخاطبُهما فكان على مقدار الإشارات القليلة بالأيدي، مصحوبةً بكلماتٍ من لُغَتَيْ كليهما المُتَبادَلتَيْن كمقايضاتِ الأرياف التائهة على تخوم العالم. غير أنه وجدني، في اثناء تلك العلاقة التي لم تدم شهراً، هديةً من الياقوت أسقَطَهُ برجُ الميزان على قمرهِ البازلتيِّ: أنا ترجمان غرامه ذي الألفاظ المَقْليَّة بزيت الذُّرة؛ تُرجمان فحم الموقد؛ ترجمان الشُّواء السخيِّ برائحة الصَّعتر؛ ترجمانُ الجعة الباردة التي يحفظها لها في ثلاجة المطبخ خصّيصاً. وإضافةً إلى هذا كلّه أنا ترجمانُ شِعْر عاصفٍ بسذاجته، يحكي على عودة الحياة إلى شرايينه المغلقة، وشرايين خصيتيه اللتين ظنَّهما ضَمَرتا. وهو بالطبع لم يُضِفْ نصفَ الجملة الأخيرة إلى بهجة ألفاظه البائسة، إنما أَضَفْتُها أنا، مع استعارات أخرى فَكِهَة، أضحكتِ الفتاةَ الروسية، ممّا حَفَّزهُ ـ وقد أمسك بِسَعْدِ الدنيا من عانته الطويلة. على تلفيق أشعار أخرى، غارقة كقلبه في نبضٍ غير منتظم. لكنني لم أعِزْ أَشعارَه أذناً بعد ذلك، وصرتُ ألفّقُ لها استعاراتٍ من فِلْزِ الخيال الروسيِّ، إلى اليوم الذي طوت فيه تلك الاستعاراتِ المؤنسة كخريطةٍ سياحيةٍ، وغادرتْ «أبوستولي» إلى «أبوستولي» آخر، لديه مَسْكنٌ صيفيٌّ، وزورق، في مدينة «أيانابا»، التي تطير في سمائها أثداءُ النساء العاريةُ كحروفٍ في ألواح الأزل المسمارية.

لشدَّ ما مزَّق أحشاء «أبوستولي» أن يكون غريمه، الذي سرق فتاةَ الغيم البلشفيِّ، يحملُ الاسمَ نَفْسه، حتى صار يهذي: «اسمي

ابوستولي، واسمه ابوستولي، فما الذي رأتْهُ فيه؟. كنتُ بعتُ سيارتي واشتريتُ زورقاً، إذ كان هذا هو الفرق بيننا!». لكن، قبل حصول هذا كلّه، أعني اليوم الذي عدتُ فيه إلى مقهاه بعد غياب قصير، كان الرجل متوهِّجاً كنيزك من الصوديوم في نهر العالم المُعَلَّق فوق منطقة «آيوس ديميتيوس». وكانت الأساسات الحديدية للمبنى الدائري ـ في الخلاء الذي يقابل المقهى مباشرة، شرق شجرة الخرّوب الضخمة ـ متوهِّجة بدورها، حيث تباعدت القضبانُ الصلبةُ، الطويلة، وتدانت، في أشكالٍ مربَّعةٍ مستطيلةٍ، ومكعباتٍ منضَّدةٍ قوسيّاً، ذات وشائج من أسلاكِ نحاسٍ على غير العادة الدّارجة في اتخاذ أسلاكِ القصدير ممزوجةً بفلز الحديد المُطَاوِع. أما العمال فبدوا كأشباح مصهورة الأشكال، تتماوج في حركتها وليست تمشي: هذا ما خُيِّل إليَّ، قبل أن تنقضّ «جين» على طاولتي بأخمَالها الخفيفة من حروب اللّون التي تتأبَّطُها.

جلستِ الزوبعةُ الهادئةُ، الحمراء، «جين»، إلى طاولتي في ظل سقيفة القماش المخطَّط، بعدما ركَنَتْ أوراقَها إلى الستارة الخشبية الفاصلة بين المقهى ودكان البقالة، متكئة برأسها على راحتها، في شرودٍ ظننْتُهُ مأهولاً بالجدال الخفيِّ لأوراق شجرة الخرّوب. ولمّا أطالتْ فرارَها وهي جالسةٌ، نقرتُ بإصبعي على صدغها مداعباً: «أتشربين شيئاً؟»، فاعتدلتْ في جلستها، مستيقظةً في صفحة الهواء الراكد: «نعم. ڤودكا من فضلك». فنهضتُ متثاقلاً وأنا أتأمَّل جوابها الرقيق، المفاجىء، إذ لا عهد لي بـ «جين» تشرب غير القهوة، وأحياناً بعض الجعة بعد إلحاحٍ من «جانو».

توجَّهتُ إلى داخل المقهى أجلب لها، بنفسي، كأساً من الڤودكا الممزوجة بالمياه الغازيَّة، وأكثرتُ من الثلج فيها احتفالاً بمشاركتها لي، للمرة الأولى، في شرابٍ خَصَصتُ نَفْسي به، مذْ زرتُ الشاعر «ميلان» في مسكن من مساكن زقاق «روستينوف» المسدود شرقاً، في موسكو، وأراني أقواسَ قزح من شَعْرِ عانات نسائه، المحفوظ كتعازيم كلدانية داخل جيوب الحزام الذي أوردتُ ذِكْرَه.

«شرابٌ نقيٌّ» كان يقول لي «ميلان» عن السائل النبيل، مضيفاً: «إنَّه لا يتخفَّى، ويُريْكَ في بلَّلوره بِلَّلورَ نَفْسك إن كنت جريئاً». وقد وضعتُ كأس ذلك الشراب أمام «جين»، فوق منديلٍ ورقيٍّ زيادةً في شعائر الاحتفاءِ بها، ورفعت كأسي نخبَها، مرتشفاً بَلْعَةً كبيرة، قبل أن يمتدَّ صمتٌ ساخر، فوق الطاولة، من جديد، متثائباً هذه المرَّة مع ارتفاع النشيد اللاهث للقيظ.

أعادت «جين» إلى شرودها الأبيض في اقتناص الشكل غير المروَّضِ لشجرة الخرّوب؟ لا أعرف. لكنني وجدتُ ذلك الصمتَ مُخرِجاً بعد مشاركتها لي في شرابي، بل أغاظني قليلاً، قبل أن تلتفت إليَّ محدِّقة تتفرَّس في شَبَكَةِ أعماقي عبر عينيَّ: «خَبِّئني في مسكنك إلى أن ينتهي النحاتون من نَحْتهم».

ارتدَدْتُ إلى الوراء، كأنَّما دفعتني يدانِ ليلتصق ظهري بمَسْنَدِ الكرسيِّ ذي الأضلاع القوسية: «ماذا؟» تمتمتُ إذ بوغتت بسؤالها المصفَّر كسهمٍ مسدَّدٍ إلى مرآة. فوضعتْ راحتَها على ظاهر يدي، وهي تؤكد ما قالته بإشارة من رأسها: «أسْدِ إليَّ هذه الخدمة». فأدركت أنها تعني ما تقوله. غير أنني أبديت استغراباً، من تلقاءِ قلبي: «ولماذا الاختباء؟ تعالي في أيّ وقت تشائين؟».

«هذا متعذِّر الآن. بلَّغني جانون أنهم منعوا زيارة أقرب أقرباء المهندسين إلى المساكن، ريثما يُنهي النحاتون أشغالَهم»، قالت لي، فأبديت جَهْلي بالأمر، لكنني لم أَنفِه، فلربّما عَنَّ للإدارة، التي يقودها الطبيب، أن تمنع الزيارات حقّاً، إسرافاً في تمكين النحاتين من عقد سِلْمٍ حجريٍّ مع المشيئة الدموية للأشكال.

«لا أدري، جين، بِمَ أجيبكِ» قلتُ لها وقد اعتراني حَرَج، ثم أضفتُ باحثاً عن مَخْرَج: «اسألي جانو أن يخبِّئك في مسكنه»، واستدركتُ ما فاتني من مغزى المحاورةِ كلِّها: «وما الذي ستفعلينه، مختبئةً؟»، فردَّتْ:

ـ أريد أن أرسم نحّاتاً في أثناء عمله. أستطيع ذلك من الشُّبَّاك المطلّ على الساحة، ولن يحسّ بي أحد.

زاد حَرَجي وقد اشتدَّ ضغط راحتها على يدي، في توسُّل رقيق، فعدتُ إلى سؤالي الذي ظَنَنْتُه مُنقِذاً «أسألتِ جانو أن تختبئي عنده؟». فأطرقتْ قائلة: «لا»، ثم تأمّلتْ وجهي بتلك النظرة المُلْتبسة: «الديك قبو، في مسكنك وحده بين المساكن، وهذا ما يلزمني».

للمرّة الثانية ارتدّ جذعي إلى الوراء، مقذوفاً بالهبوب القويّ لكلامها، قبل أن أسألها مضطرباً، بارد الشفتين: «كيف تعرفين أن لديَّ قبواً؟ جانو نفسه يجهل الأمر»، فأرختْ راحتها عن ظاهر يدي، لتصعد بها إلى ساعدي: «من صوتك»، قالت. ثم مسَّدت على جلدي في رقّةٍ وهي تنظر إلى حركة يدها: «في صوتك صدى لا يكون إلاّ لمن لديهم أقبيةٌ في مساكنهم».. وإذ رأتني منهوبَ العقلِ بِكَهَانَتِها، حاصرتني أكثر: «لا تكنْ حديدياً».

كلَّما سمعتُ كلمةَ «حديد»، في أية لغة أعرف بعض مفرداتها، تَمَثَّلَ لي «مَهْمَدْ تَشِيْ»، الشّاب الذي يحضر مجالس أبي في بيتنا شمالَ قرية «عَيْنْ دِيْوَار»، القريبة من دجلة في جزئه التركي ـ العراقي. وكان خجولاً ورصيناً في الآن ذاته. لا يرتبك ولا يبادر ايضاً. يسأله الرجال إذا امتلأت عظامُهم، في العشيات، بإلهام عذبٍ من الشاي ودخان التبغ، أن يغني ما تجودُ به مجاهلُ رئتيه المكشوفة، فيتباطأُ في وضعِ راحته لصق خدّه الأيمن، مغمضاً عينيه يستحضرُ قناديلَ الهواء السُّكرى، التي ترشِدُ اللِّسان إلى انغلاقاته، والتواءاته، وانبساطاته، وانحساراته، كي يختمر الأثيرُ في الحنجرة، ويستأنسَ النَّغَمُ المستوحشُ باللَّهَاةِ.

اسم الشاب «مَهْمَدْ غريب»، وقد استُبْدِلَ لفظُ «غريب» بلقبِ «تَشِيْ» الذي هو المغزل اليدويّ في اللغة الكردية، لأن «مَهْمَدْ» مغزلٌ حقيقيٌّ لشعاعات الصوت المُنْسَلَّة من الكواكب المائية العشرة، يلتفُّ بها على نَفْسِه وقد جَدَلَها خيطاً واحداً يصلح لأيِّما شَبَكةٍ يتصيَّد الألمُ بها الكونَ:

«يا فتى، قلبي صاجٌ حديديٌّ؛

قلبُكَ صاجٌ حديديّ.

«يا فتاةُ، قلبُكِ صاجٌ جديديٌّ؛

قلبي صاجٌ حديديٌّ».

ذلك ما تقوله أغنيةُ «مهمد تَشِيْ»، أبداً، باختلافاتٍ خفيفة في مراتب الصوت وأحواله المتصالحة مع أبراج الفَلَك. لكن «الحديد» الذي فيها ـ وقد اتَّخذَ هيئةَ صاجٍ مُحمًّى يخبزون عليه الصحائفَ الرقيقة من الخُبز ـ أسَر خَيالي بأقْفال حَروفه. وما أنْ سمعتُ «جين» تحاصرني باللفظة تلك، حتى نَضَجَ قلبي فأهديتُها رغيفَ قبوله: «أحضري ما يلزمك من أمتعة. إنه سجنٌ بإرادتك يا جين، وعسى أن لا يكتشفوا الأمر».

مساءَ قابلتُ «جين» أمام سور مساكن المهندسين، ذلك اليوم. وكان هيّناً ـ وسط الهرج الكثير في الساحة، بعدما فرغ النحّاتون من أشغال يومهم، ومدّوا طاولات كثيرة للسّمر الليليّ ـ أن أقود المرأة الحمراء إلى مسكني، وأرجع وحدي إلى الساحة منضماً إلى «جانو» في الفصل الذي سيُسفر، كما في كل ليلة من قبل ومن بعد، عن صعود النحاتين واحداً واحداً إلى منصَّةٍ هي للجلوس أصْلاً، لكنها من خشب الزّان القوي، وتحتمل ثقلَ ما يدبِّجونَه من خطابات قصيرة، مُلغزة، وأشعارٍ موجزة وقحة، حتى الفجر، سواء أغادر المهندسون جميعاً إلى مساكنهم، أمْ بقي بعضهم مثل «جانو»، الذي يزوِّدني بحصيلةِ أخبار تفوتني.

مغيبَ كلّ يوم كان «الطبيبُ» الشاحب، النابضُ كبُزالِ سريرِ رفَّاص، يهرع إلى الأنصاب الحجرية، بعدما يَفرَغُ النحاتون من نهبهم في الكُتَلِ فيضع آلةَ قياس النَّبض، في حذرٍ شديد خَفِرٍ، على المواضع التي يحتمل أن تكون القلوبُ رهائنَ فيها إذا اكتملتِ الأشكالُ الحيوانيةُ التي ستهديْها الأنصابُ إلى الفراغ. وكان يدوِّن، بالطبع، على دفتره

الصغير، الأبيض، علاماتٍ غَسَقيَّة بالقلم الفحم، ثم تنفرج أساريرُه أكثر فأكثر حتى التّخمة، كأنما تتمسَّح المتاهاتُ الأزليةُ بساقه كقططٍ أليفة، أو يسلِّمَهُ مُفتَتِحُ الأعْدادِ ـ أيْ: الواحدُ ـ ما يسلِّمُهُ إلى المُتَصوِّفةِ من مثاقيل الجهالةِ الكُلِّية.

للمجوس شفاعة العدد الثاني. لأهل الهندسةِ شفاعَةُ العدد السادس. لأهل الحكمة والفَلَك شفاعَةُ العدد السابع. أمّا المتصوفةُ الممسوسون بحجاب الذات، الذين خُتِمَ عليهم أن لا يروا، فلهم جهالةُ العدد الواحد يقسِّمونَهُ على مراتبَ كالتِّيه؛ وفي «التأسيس الكبير» أنهم يجهلون خصِّيصَة الواحد فيزعمون الخوضَ في يقينٍ يائسٍ، لا هو حاصلُ الواحد ولا حاصلُ المعرفة: «قومٌ يهزأون بالصُّوَرِ لأنهم لا يحلمون»، و«لم يمسَّهم الظاهرُ بنقائه الكُلِّيِّ كي يكتملوا».

لأَسارير الطبيب، الذي أعقبَ «ميكاليدس» على إدارة المساكن الدائرية، أساريرُ متصوِّفٍ أودعَ الحقيقةَ في آلة قياس النبضِ، بها تصلحُ عافيةُ الضياعِ الرحيم الذي فيه، فيتهادى نشوانَ من حجر إلى آخر، غائباً في حركته، وفي مَنْطقهِ أيضاً: «القلبُ تدوينٌ مضطربٌ يصحِّحهُ السِّرُّ». لكنه يبدو عارياً من الأسرار، فقيراً في بياض مئزره الملتفِّ عليه كشراع خائرٍ. ولربما هو، بحسب تعبيرٍ فظٍّ لـ «جانو»: «يقتصد حتّى في منيِّهِ حين ينيْك».

غير أن الليالي التي تتابعت، في السَّمر الطاغي للنحاتين، كشفت تطابقاً في أمزجتهم مع مزاجه هو: لم يكن يدوِّن، في دفتره الصغير، نِسَباً من حالات النبض، بعد التشخيص بآلته الفضِّية، بل يسطرُ مترادفاتٍ من ألفاظ إباحية، مموَّهة قليلاً، في سياقٍ مُلْغِزٍ كخطاباتِ النحاتين أنْفسهم: «قذفٌ مبَالغٌ فيه، من برج الميزان إلى برج السنبلة. مجرَّاتُ خُصى. فضٌّ في السِّحْرِ: كل شيء على أشدِّه. تبضَّعْ منيّاً واشهدِ الخسوفَ»، كان يقول النحيل الشاحب في صعوده إلى المنصَّة الصُّلْبة، فيقهقه النحاتون. ولا ينزل إلاّ بعد أن يُبَعثر، من عليائه هناك، حفنةً من الشَّعْر في الهواء، صارخاً: «هذه هي الحديقة». ولمّا تقضَّيتُ

بعضَ ذلك الشَّعْرِ المنثور وجدتُهُ ناعماً، رقيقاً على قِصَره، أشبه بما كان يحتفظ به «ميلان» من عانات نسائه.

دفاتر النّحاتين، أنفسهم، كانت ملأى بتدوينات من الشّعر الفظّ، والخطابات، يتبارون في إلقائها حتى ما بعد منتصف الليل. وقد وجدها «جانو»، وحدهُ، جديرةً بالإصغاء، كأنّما الأمر كلّه سِحْرٌ من العبثِ، نسجَهُ، هو، من ثرثرةٍ تحت شمس الظهيرة. ولمّا كنت أعود إلى مسكني بعد ساعة، أو أكثر بقليل، من الإصغاء الطائش إلى مرافعات النحّاتين، فإنّما أجد شبحَ «جين» في الغرفة المعتمة، ملتصقاً بالنافذة ذات الستارة المسدلة زيادةً في الحيطة. وإذ يضيء المصباح الكهربيّ بلمسة من إصبعي، تنكمش في غلالةٍ من لهب جلدها، مبتسمةً طافحةً بالفضول: «أية لغة يتحدثون بها؟»، مشيرة إلى النحاتين، فأردّ: «إنهم لا يتحدثون، جين».

يزداد فضولها: «وماذا يقولون، إذاً، في اعتلائهم تلك المنضدةَ؟».

«إنهم لا يقولون شيئاً، جين. نحن نسمع ما نريد أن نسمعه، في أصواتٍ لا تصل إلينا». وأجلس قبالها: «جين.. إنهم يقدّمون إيماءات صامتة». فتتبلبل المرأة الحمراء قليلاً: «ولماذا يبقى جانو جالساً هناك؟ آخرون غيره يبقون جالسين أيضاً؟»، فأردّ: «يحاول الواحدُ منهم السيطرةَ على فكرته. إنه تمرين شاقّ. الإصغاءُ إلى شيءٍ تعرفينَهُ، جينْ، تمرين شاقٌ على قتلهِ».

«دفاترهم، هذه، أما من تخطيطاتٍ فيها؟» تسألني «جين».

«لا»، أقول باقتضاب.

«كيف يسيطرون على أشكال الحيوانات هذه، إذاً؟»، تسألني بعينين صاخبتين في زرقتهما.

«إنها موجودة هناك، من قبلُ، يا جين. الحيواناتُ موجودة في الكُتَل الحجرية. والنحاتون ممرِّضو توليدٍ، لا غير».

غير أنَّ «جين» لا تقتنع بالكثير من مَجَازاتي، والمحرّض على ريبتها في أقوالي هو «جانو». تسألني كَمَن يواجهك ببرهان صلبٍ: «أتعتقد، حقاً، أن جانو يبقى جالساً هناك كي يصغي، كل ليلة إلى ما يعرفُه؟ أظنّكَ تمزح!».

أنا، نَفسي، ليس لديَّ إضافةٌ أخرى إلى ما قلتُهُ. ولم أكلِّفْ منطقيَ مشقَّةَ التصرُّف ببراهين ليست في خزانته المنهوبة: «جانو» يبقى جالساً هناك؛ إذاً ثمَّت ما يشدُّه إلى تعازيم النحاتين التي يزيدها الليلُ سطوةً.

هذا ما يمكن استنتاجه، قطْعاً. وقد كدتُ أقع في شكٍّ مع ذاتي، ففاتحتُ «جانو» بأسئلةٍ لم أستولدها أنا: «لماذا تبقى جالساً حتى ينصرف آخر نحّاتٍ؟». فحدَّقَ فيَّ: «من ألْهَمك هذا السؤال؟ إنه ليس لك».

قلت: «لنفترضْ أنه ليس لي. ما ردُّك؟»

قال: «أجبْ أنتَ عليه».

«أنت تحرجني» قلتُ له.

«فيمَ؟» سألني.

«أن أجيبَ أنا عليه» قلتُ. فألوى شفته السفلى على وميضٍ من عبثٍ عابرٍ: «لا تريد سماعَ ما تعرفه. أهذا قصدكَ؟»، واستدار منصرفاً، وهو يلقي إليَّ جملةً ذاتَ طعمِ عَفْصٍ: «منذ متى تحرِّضُك جيْنْ على أسئلة كهذه؟».

لم أعد أتذكّر تاريخ هذه المحاورة. ربّما كانت في اليوم الثالث عشر من مجيء النحاتين. لكنني انكمشتُ على بعضي من كلماته الباردة، وابتعدتُ قليلاً عن مخالطته في ما تبقى من أيام مكوثِ حلاَّجيْ الأشكالِ ـ أولئك الذين دخلوا قضاءَ التصوير بدفاتر لا تخطيطات فيها، بل كلماتٌ ذاتُ قَلَقٍ في المعنى، زعم لي «جانو» مراراً أنها تَخاطُرٌ كونيٌّ يطمئنُّ إليه الحجر، لأنَّ فيه مواثيق كبرى، وضماناتٍ تفي بحدوثِ

متجانسٍ في مسار الأشكال: أيْ عودة الحجر عبر تحويله صورةً إلى ناموسه الزمنيّ، بعدما كاد العدمُ، كخلودٍ، أن يغويه.

مرَّةً أكلَ «جانو» زهوراً في صحنه، بالشوكة والسكين، ثم قدَّم لي زَغماً على شاكلةِ ما سَرَدتُهُ، متحدِّثاً عن «ضمانة زمنية» للخلود. وكان أن أهدتْهُ «جين»، في إحدى زياراتها لمقهى «أپوستولي»، زهرتيْ قرنفل، ربّما أهداهما شخص ما إليها. وهوَ ما أرجِّحهُ. فاندهش «جانو» لبرهةٍ، ثم تأمَّلها صامتاً، ثم وضع الزهرتين في صحنه، ورشَّ عليهما قليلاً من الملح، ليعمد بعد ذلك إلى تقطيعهما في هدوء، والتهامهما بدءاً بالساقين الأخضرين، وانتهاءً بالأوراق القرمزية، دون توقف. ولمّا انتهى من وليمته رفع كأسه نخب «جين»: «عادت الزهرتان إلى حقلهما. إنهما تحلمان بكِ، الآن، جينْ»، واستدار إليَّ: «أَعَدْتُ الزهرتين إلى ناموسهما الزَّمنيّ».

كانت «جين» جذلى، بقلب مقذوفٍ إلى مَرَح مليء بالفضول، وهي تراقب «جانو» يأكل الزهرتين تعبيراً عن امتنانه لهديتها، دون أن تستوضحَهُ في أمرِ تصرُّفهِ. وقد بادرتُ أنا، بإقحامٍ سَمِجٍ، إلى شرح الموقف، مع شعور صريح أنني أتطفّل: «جين.. إنه يستحوذ على ماضيك»، فأبدت اهتماماً: «ماضيَّ أنا؟» سألَتني، مبتسمةً، فقلت: «نعم» دون إضافة. فعادت تستوضحني: «كيف يستحوذ على ماضيَّ بأكل زهرتين؟».

«رأيتك منجذبةً إلى ما يفعله»، قلتُ لها، فساءلتني من جديد، وهي تردُّ شعرها إلى غَسَقِهِ البعيد بمشطِ يدها:

- وماذا في الأمر؟

«لا ينجذب شخص، هكذا، إلاّ إلى حركةٍ تستهويه من ماضٍ غابر. لقد تسلَّل جانو إلى سهول بريطانيا»، قلتُ لها.

أنا، نَفسي، لا أعرف لماذا أبدتْ «جين» اهتماماً بمحاورة كهذه، وقد خامرها اقتناعٌ لا يُخفى بالذي أقول، فيما أحجمتُ، صراحةً، عن

تفسيراتي حول خطابات النحاتين، وأسباب إصغاء «جانو» إليهم على ذلك النّحو المتكلّف، الذي رأتْ فيه استغراقاً وليس تكلّفاً كما زعمتُ لها.

على أية حال، ظلَّ «جانو» مستغرقاً في فَلَك النحاتين، وبقيتْ «جينْ» سجينةَ مسكني، فيما لم أنقطع أنا عن ارتياد مقهى «أپوستولي» في ساعات نهاري المعلومة، كل يوم، مأخوذاً أكثر فأكثر بالبناء الدائريّ الذي بدأتْ ملامحُه تتَّضحُ، في الخلاء المواجه لشجرة الخرّوب الضخمة. غير أن الأشدَّ جاذباً لأعماقي كانت حركةُ العمال أنفسهم، بوجوههم الغائمة كأنها في ضبابٍ، وكذلك نظراتُ المشرف على البناء وهي تنتقل، على نحوٍ حسابيٍّ، بيني وبين كتلة المبنى الذي لا نوافذ فيه: لقد كان كَمَنْ يَعِدُني بشيءٍ، ويؤكّد ذلك بإلحاحٍ من عينيه.

بعد ثلاثة أسابيع اكتملتِ المجازاتُ الحجريةُ: خرجتِ الحيواناتُ طليقةً إلى صمتها الكثيف، المتأمّلِ، من الكتلة اللاّمتجانسة إلى أبديةِ الشّكْل، ساكنةً في الرَّحابة القَدَريةِ للإغواء.

أَتفي كلمة «الإغواء» بالغَرَض، في المشهد الذي قلب أعماقَ الساحة باطنَها إلى ظاهرها، وسط الفراغ الدائريّ لمساكن المهندسين؟ آلافُ آلافٍ من التماثيل الحيوانية رفعتْ صمتها في المكان، وسط تستُّرٍ شديدٍ من إدارة المساكن على الذي جرى، بإغلاق بوّابتها في وجه أيِّ ضيفٍ أو زائر. غير أنني كنتُ مُغتبطاً من أنني خَرَقتُ تلك الإجراءات باستبقاء «جين» شاهدةً وحيدةً على اكتمال الخَلْقِ في الحجر، الذي سيتم نَقْلُهُ فيما بعد، تمثالاً تمثالاً، في حرصٍ وحذرٍ شديدينِ ـ إضافةً إلى تَكَتُّمٍ صارمٍ أيضاً ـ إلى المتحف الذي بنيناه على شكل سفينة.

مضت ثلاثة أسابيع فرغ النحاتون، في يومها الأخير، من أعمالهم. غادروا المكان بعد حفلٍ ملتهب في إحدى الظهيرات، بعدما أنجز الطبيبُ تدويناته السرِّيَّة وهو يجسُّ كل تمثالٍ بآلة قياس النَّبْض. ساد صمتٌ هائل ساعتين فقط، ثم جاءت الرَّافعاتُ الآلية الضخمة تنقل التماثيل الى شاحنات مسوَّرةٍ هياكلُها بقماشٍ أسود يسترُ ما تحمله. وقد

استغرق ذلك ساعاتٍ أربعاً، بوتيرةٍ لم أشهد مثلها في التسارُع، كأنما يعمدون إلى إزالةِ شُبُهاتٍ ما.

في المساء حَلَّ استرخاءٌ في كل شيء؛ في رمل الساحة، وفي حركة المهندسين البطيئة، وفي ظلال شجر الصنوبر الأشعث الذي مشَّطتهُ المصابيحُ، وفي حديقة المساكن ذات الأزاهير الشاحبة، المُسَطَّرة ككلام الأيقونات. وقد أزمعت أن أُمكِّنَ «جين» من مغادرة المكان حين يزداد الاسترخاء كثافةً وثقلاً، في الهزيع الأول من الليل، الذي سيتنفَّس عميقاً، على الأرجح، بعد رحيل النحاتين.

توجهت إلى مسكن «جانو»، ذلك المساء، إثر انقطاع عنه دام أياماً عدَّةً، بسبب انشغاله، هو، بالنحاتين وخطاباتهم الترابية، وانصرافي ـ أنا ـ عنهم إلى تأمُّل المبنى الدائري المنبثق كفُطر أبيض كبير في الأرض، بعدما صرتُ لا أكتفي بساعات الظهيرة فقط لارتياد مقهى «أبوستولي»، بل اعود إليه في المغيب ايضاً، لأشهد عَمَلاً لا يتوقف قط من أجل ترتيب هيئة ذلك المبنى، حتى ساعة انصرافي حوالى منتصف الليل.

كان «جانو» مسترخياً فوق كرسيٍّ بحريٍّ، مقوَّس ذي هيكل طويل، يعبث بشاربيه وهو يدخن لفافة تبغ أتى على نصفها. ابتسم متهكِّماً: «أما زلت تسكن هنا؟»، فجلستُ على حافة سياج الشرفة الأمامية، متجاهلاً كلماته: «رحلوا، أخيراً»، قلتُ له، متطلعاً إلى الساحة الرملية. ففاجأني بتمتمةٍ صاعقةٍ: «رحلوا، وبقيت جيْن»، ثم حدَّق فيَّ بعينٍ واحدةٍ وقد أغمض الأخرى على نحوٍ ساخر، ونفث من فمه نافورةً من الدخان.

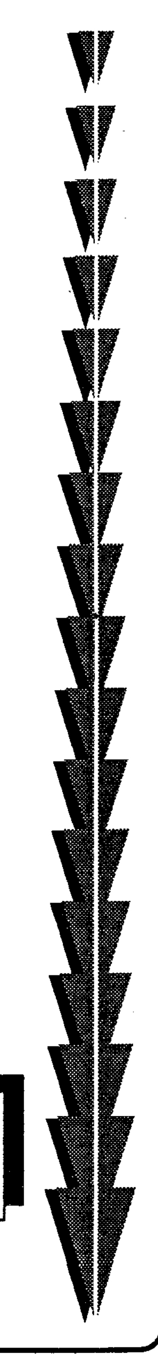
سادت برهةٌ باردة، لها رنينٌ، بيني وبينه، قبل أن أتمالك نفسي فأنهضَ متَّجهاً الى مسكني، في هدوء، وأعود، من ثم، مصطحباً «جين» وهي تتأبَّط أوراقَها الصلبة، الضخمة، فاعتدل «جانو» في جلسته، وهو يشير عليها بالجلوس على كرسيٍّ تحت ضوء مصباح الشرفة الأرضية، كما أشار عليَّ بالجلوس، فجلست على الدَّرج

الرّخاميّ الذي يصل مدخل المسكن بالحديقة، ثم تفوَّهتُ بكلماتٍ فيها تبرير لم يطلبه «جانو» مني: «ألحّتْ أن ترسم أحدَ النحاتين أثناء عمله. رغبتُها، وإلحاحُها جعلاني ألِيْنُ..»، فتطلع «جانو» إليها جانبياً، متوجهاً بكلامه إليَّ: «آه. كانت ترسم نحّات البابونَيْن»، قالها بالكردية، وعاد فتأمَّلني: «أحقاً كانت ترسم النحّات، يا رجل؟».

نظرتُ إلى «جين» متفادياً عينَيْ «جانو» المليئتين بفكاهات الأناضول: «أَرِينا ما رسمتِ»، قلت لها، فنهض «جانو» إليها يحمل عنها ورقةً من أوراقها الضخمة، ثم يفردها تحت ضوء المصباح، على رخام الشرفة، منحنياً: «رائع.. هذا نحاتٌ خرج توّاً من مخيِّلةِ البابونين»، فنهضتُ بدوري عن الدَّرج، وتقدَّمت إلى حيث الورقة مستلقية تحت لسان الضوء الشهوانيّ، لكن رَعْشَةً جافَّةً اعترتْ لساني أولاً، ثم انحدرت إلى حنجرتي، لتستقرَّ، بعد لحظة، داخل رئتيَّ، فشهقتُ شهيقاً خافتاً:

غمامات فيروزية، في شفقٍ فيروزيٍّ، متجاورة كمرايا. أرضٌ صقيلة، مُشِعَّةٌ في باطن رخامها، تنعكس عليها لألأةُ معادن هي نصالُ مُدَى وخناجر ذات نقوشٍ أحكمتْ «جين» عليها حصارَ اللون. ووسط تلك المُدى والخناجر، الموزَّعة دائرياً مثل بعض السطور في كتاب «التأسيس الكبير»، كان ثمت شابٌّ يقتعد الرُّخام الوضّاءَ، متطلِّعاً بعينين معتذرتين إلى مركز المشهد، خارج الورقة. إلينا تحديداً، وكانت هيئةُ وجهه على قَدْرٍ مذهل من تمازج ملامحي وملامح «جانو»، في تجانسٍ خصَّهُ اللونُ الفضيُّ بأمومةٍ خارقة.

ذلك ما رسمتْهُ «جين»، أخيراً، بإتقانٍ كالحُمَّى.



III ـ رمال مكدونيتِسَا



١ ــ السفينة ذاتُها

أكَّد لي «جانو»، مراراً، باستنادٍ إلى ما قرأه لمؤلِّف مجهول، أن عين طائر الخُطاف تنبتُ، من جديد، إذا اقتُلِعَت. ويُحيل إلى المصدر ذاته أن ظباءَ بلاد السِّنْد تَشُمُّ بقرونها. وهوَ، إذ تناول مني بندقيَّتَه التي أعارنيها، يوم أطلقت طلقتين على الشاب الغريب، بادرني مبتسماً بما يشبه ألغازه هذه، المقتبَسة، أبداً، من تصانيفَ مجهولةٍ: «لقد اختارونا من بين المئات، يا رجل، لبناء المتحف». وصرخ في مرحٍ: «سنبنيه على شكل سفينة»، ثم ضمَّني بذراع واحدة، وفي الأخرىَ البندقية: «سنبني متاهةً للرحيل».

قلتُ له: «لقد قتلتُ الشاب الغريب»، فنظر إلى البندقية نظرةً باردة، ومثلها إليَّ، ثم همس: «عمتَ مساء»، ودخل إلى مسكنه.

كان الوقتُ مساءً، إذاً، ذلك اليوم الصيفيّ المدوَّن في سِجلٍّ مجهولٍ، في بداية السنة الثانية من إقامتي في الجزيرة ذات النحاس الإغريقي، التي طالما تمنَّيتُ لو ولدتُ فيها على هيئة ظلٍّ هو برهان الشمس على تأكيدِ عبورها فوق جبل ترودوس، الذي لم أزره إلاّ مراتٍ معدودة، حتى لا أُشْغِلَ حُلمَهُ بحلمي.

بعد يومين على تلك الفاجعة الهادئة، أعني قتلَ الشاب الغريب في قبو مسكني، بدأت اجتماعاتٌ مهيبة في القاعة المثلثة، جنوب مساكن المهندسين، حيث يتم التخطيط هناك، عادةً، لتدوين الإحداثيات الكبرى في دفاترنا الممهورة بختمٍ رسميٍّ، على كل صفحة فيها، وإلى جوار الختم رَقْمٌ نافرٌ من أعماقِ الصفحة لا يمكن محوُهُ، لنبقى متيقظين إلى أن أيّ خطأ في الرسم الهندسيّ يعرِّض المرءَ لتنحيته من المشروع برمَّته: «الصفحة الواحدة، في دفاتركم، لا تُمزَّقُ ولا تُعوَّض قط. لتكنْ تقديراتكم يقظى. لتكنْ خطوطكم يقظى. لتكنْ أقلامُكم ومساطركم وفرجاراتكم يقظى، حتى لو نامت عقولكم»، هذا ما قاله لنا «الطبيب»

المشرف على إدارة المساكن، وهو يحمل آلة قياس النَّبْض في يده، ذلك اليوم الذي قدَّمَ فيه رجلاً كهلاً إلى المنصة أمامنا، ونحن جالسون وراء مقاعد صغيرة في القاعة ذات الأضواء المستطيلة المتحرّكة، مضيفاً: «هذا القدير سيرشدكم، بإشاراته، إلى تدوين التصاميم والتخطيطات. وأحذّركم من أنه يضيق بالأسئلة. صبرُهُ كَفَرْجِ العقرب، فتمهّلوا عليه إلاّ في الضرورات القصوى». وبالطبع، جسَّ دفاترنا، واحداً واحداً، بآلة قياس النبض، في محلّ الأختام، مدوِّناً على دفتره الأبيض الصغير صيروراتِ خيالٍ عضويٍّ يهتدي به إلى فَهم الجمادِ ومُسَارراتِهِ، حتى لو كان ورقاً.

تسعةَ أشهر وأسبوعين التهبتِ الخطوطُ المستقيمةُ الماجنة، والخطوطُ القوسيةُ ذات القَلَق، كأنما تنضج على فحم مشتعلٍ في كانون «أبوستولي» العابق بشُواء الخنزير. مثلثاتٌ ومكعّبات، وزوايا مهدورة في سَكْرَةِ القياس، ملأتْ أحلامنا الثقيلةَ والخفيفةَ بنبوءات الجليد الإسمنتيّ: هيكلُ سفينة على هضبة «مَكْدونيْتِسَا»، في الخلاء الكبير بين مستديرة مطار المدينة المُقْفَل، ودغْلِ شجر الزيتون في منطقة «أنغومي». سفينةٌ على أعمدةٍ، تنهضُ على استدارة حوافها القوسية حدائقُ للأطفال، ومقاهٍ، وأسواقٌ لعرض التّحف اليدوية، والأزهار، تتوسطها صارية ضخمة تنتهي قمَّتها إلى حوض سباحة مستدير، وللصارية مصعدان كهربيَّان لهما شكلا زورقين من زوارق النجاة المُلازمة للسفن الكبرى.

هذا ما سيكون عليه حال المتحف الغريب، أمّا قبل ذلك، أيْ حين استغرقْنا في تصاميمنا الفراغية ـ بتوسُّلاتِ كبيرة إلى الزوايا والخطوط والأشكال الدائرية أن تترفَّقَ فَتَلِيْنَ، لأننا ممنوعون من استخدام الممحاة؛ وما تخلقُه الأقلامُ تخلقُه مرَّةً واحدةً ـ فقد بدا «جانو» أكثرنا جسارةً، كأنّما يلهو، فلم تفارقْهُ عينا الرجل الكهل، اللتان كان فيهما تحيُّنٌ هائل للبرهة التي سيقع الشابُ فيها فريسةَ خطأٍ لا يُغْتفَر. غير أن «جانو» نفسه كان يحدِّج الرجلَ الكهل، بين فينة وأخرى، بنظرة تحدٍّ ساخرة، وهو يعمد إلى النهوض عن طاولته ذات السطح المائل،

فيذرع الفسحةَ الطويلة بين صفوف طاولات المهندسين الأخرى، جيئةً وذهاباً، وهو يخاطب الرجلَ بلغة روسية: «يلزمني أن أتصيَّد قوسين، وتسعَ دوائر، وستةَ مثلثاتٍ، ونقطةَ ارتكازٍ»، مضيفاً في سخرية شفيفة: «تلزمني متاهة لأدلَّ الحديقةَ على أشجارها»، ثم يرجع فيجلس خلف طاولته، ويرسم خطوطاً كثيرة بتسارعٍ فيه خِفَّةُ السنجاب.

«بالله عليك، يا رجل، إذا أريتُ هذه التخطيطات لأمِّي، ماذا تراها تقول لي؟ ها؟»، ويضحك في مقعده وسط طنين الفرجارات وتأوُّهات الأقلام، مشيراً إليَّ، فأستدير إليه من مقعدي الذي يتقدَّم طاولتَهُ بصفَّين، فيما يمضي مثرثراً: «أنظرْ»، ويريني صفحةً من صفحات دفتره الملأى بالتصاوير: «بماذا تختلف هذه عن رموز الشيخ الخزنوي، التي تتخذها أُمِّي حجاباً؟»، في تلميح إلى متصوِّف كردي ذي مريدين كُثُر: «لو رأتْ أُمِّي هذه الورقة لطوتْها على شكل مثلثٍ، وأودعتها قماشاً من مخملٍ أسود خِيْطَتْ إليه ريشةُ طاووس، من باطنه، بخيط من عصب ساق الكركيِّ، ولربطتِ الحجاب، بعد ذلك، بسلسلة تستقرُّ حول عنقي ثلاثة آلاف سنة».

«المتاهةُ تبدأ من الدائرة»، يزعم «جانو» في تمرينه الأول على وضعِ عِلمه الذي تخصَّص فيه موضع تنفيذٍ صارم. فالطبقة السفلية من المتحف، حيث ستستقرُّ تماثيلُ الحيوانات، أُرِيْدَ لها تصميمٌ على شكل متاهة، وهذا ما ألهبَ خيالَهُ الساخر حتى الهذيان: «راقبِ المهندسين، يا رجل. إنهم في حَلَقة من حلقات الذِّكْرِ. كلُّ الذي يرسمونه رُقى وتعازيمَ. أقواسُك، أنتَ، . .»، ويتوقَّف عند هذا الحدّ حين يراني سارحاً عن كلامه: «وحدي أعيدُ الواقعَ إلى صوابه»، ويقهقه: «ألا ترى أن الحياة أُغمي عليها، يا رجل، مُذْ بَدَأَتِ الهندسةُ؟».

في اعتقادي أن الرجل الكهلَ لن يغفر لـ «جانو» عبورَه، سالماً، كمائنَ التصاميم وفخاخَها. لكنْ أقول لنفسي: القوسُ، نَفْسُه، شفيع هذا الشاب الذي يحمل إقليمَ أضنة كتميمةٍ في شحوب محجريه. ومن يكنِ القوسُ شفيعَهُ ذلَّتْ له الزوايا. ثم نسيتُ، حين فَرَغْنا من تصاميمنا،

حقدَ الكهل عليه، لأن العمل في تثبيت الأساسات للمتحف استحوذ على الجميع، حتى باتوا يهذون في منامهم، كمنْ يكملون، بعقول خفيَّة، ما لا يقدر الزَّمنُ على تدبيره في يقينٍ مُحْكَم. وكنتُ، نَفْسي، أنجذبُ إلى عقلي الخفيِّ، الذي هو عَقْلٌ في اقتداريَ (واقتدارِ غيري، أيضاً) أن أستولدَ به كياني على نحوٍ غير مفهوم، لكنه ضروري لإنجاز المعنى الذي مفاده أنني أملك البراهينَ على كمالٍ ما، فاحشٍ وعريق. و«عقلي الثاني» تصنيفٌ فَلَكيٌّ في ألغاز المصطلحات، أوحاهُ إليَّ عُطاردُ كفكرةٍ مائيةٍ تعكس الصورةَ وخيالها، وتقايضُ أحدَهما بالآخر دون ترتيب، في تسلسل يقطعه، أحياناً، دخولُ القمر إلى الثلث الخامس في زاوية برج السنبلة، حيث الشهوةُ على أتمِّها، في الغَسَق الذي يستطيع فيه الذَّكَرُ أن يأكل الأنثى، والعكس صحيح أيضاً، باتِّفاقٍ عادلٍ بينهما سدَاهُ الخيالُ كَلَهبٍ.

أنهينا التصاميمَ الهندسية لعمارة المتحف، في تسعة أشهر وأسبوعين، تساقط فيها الكثير من المهندسين غرقى مثلثاتٍ ودوائرَ لم تروِّضها أقلامُهم، فسحبتهم الإدارةُ من المشروع الناريِّ إلى مشاريع أخرى لا يتكلَّفون فيها الكثير من الحرص على تدوين الأشكال بكمالها. لكنهم ظلوا غرقى. وهو تعبير أدرجَهُ «جانو» في فكاهاته كلَّما طلبت الإدارةُ مهندساً، على نحوٍ مفاجىء، ثم لا يعود إلى تلك القاعة المستأثرة بضجيج قلوبنا، قطُّ: «سيُغرقونَهُ في بياضٍ آخر» يقول «جانو» بنبرةٍ نبوئية تبثُّ عدوى من الضحك الخافت بين أسياد الرسوم الفلكية، المنكبين على فراغاتِ دفاترهم يستطلعون فيها الشهبَ المقذوفةَ من حدائق الأزل.

الرجلُ الكهل يبقى على وقاره، أبداً، مهما سَرَتِ القهقهاتُ الخفيضةُ في القاعة. يمرُّ على المهندسين، بين وقت وآخر، مدقِّقاً في رسومهم، دون إبداء ملاحظات، ثم يرجع إلى منصَّته العالية، التي ينبسط على سطحها العريض جداً نسيجٌ من قماش مُشَمَّع، يابس، رُسِمَتْ عليه التخطيطاتُ النهائيةُ لهيكل المتحف، مقارناً مشاهداته في دفاتر المهندسين بالرَّسْم الذي أمامه، كأنما عليهم، بتخاطُرٍ من

سرائرهم، أن تتطابق الأجزاءُ التي يشتغل عليها كلٌّ منهم مع أجزاء من التخطيط المُنْجَزِ على طاولة الرجل الكهل: لقد كانوا يقتفون آثار الأشرعة التي تدفعُ بها رياحُ الهندسة إلى الطوفان كي ينجوَ الغيبُ.

كنتُ كلَّما دقَّقْتُ النظر في ملامح الرجل الكهل تموَّهتْ دقائقُها على عينيَّ، حتى انتهى بي الأمر، يوماً بعد يوم، إلى نسيانها كلّياً، في ختام شُغلنا. وقد سألت مهندسيْنَ آخرين، بعد ذلك، إن كانت أحوال ذاكراتهم مثل حال ذاكرتي فوافقوني: هم، أيضاً، نسوا ملامحَه. لكنَّ التصاميم والتخطيطات، المشمولة ببركة السِّحر والمنطق معاً، أبقتْهُ رقيباً خفيّاً على التنفيذ المحموم لهيكل المتحف فوق رمال مكدونيتِسَا، ذلك التنفيذ الذي غاب عنه «جانو»، وكان حرياً به أن يتولى لَجْمَ المتاهاتِ الطليقة في دهاليز رسومه.

باغتني، قبل يومين من بدء الجرّافات الضخمة بتسوية الأرض أمام الحفّارات ـ التي انكبَّت، بذاكرتها المُطْلَقَة، توزِّع الوشومَ الدَّهريةَ على العراء ـ بقوله إنه سيعود إلى «أضنة» لشهر أو شهرين، خِفْيَةً، عبر الشمال السوري: «لقد سلَّمْنا التخطيطات إلى المعماريين، توّاً، جانو!!» قلتُ له، فردّ: «نعم. أنجزنا ما علينا، الآن. ذلك يعطيني فرصةً لأغيْب شهراً، أو شهرين».

«أتمزح، كعادتك؟ الآن بدأتِ المهمَّةُ حقّاً لتشرفَ بنفسك على تنفيذ ما حلمتَ به يا جانو» قلتُ له وأنا أكاد أصرخُ فيه بعجبٍ فيه مرارةٌ، فأجابني بجواب توقعتُ العبثَ الذي يخالطُهُ: «سأوكِّلك بالإشراف على تنفيذ تخطيطاتي، أيضاً. إنه عبءٌ عليك، لكنني أثق بك وحدك»، وأحاط كتفي بذراعه على عادته الساخرة.

«لا أفقه شيئاً في تصاميمك، وخرائطك، يا جانو»، قلتُ له بنبرة باردة من نَفْخ اليأس عليها، فردّ بنبرةٍ باردةٍ: «لا يحتاج الأمر إلى معرفةِ يا رجل. قليلٌ من اليأس يُعينُك. إنها متاهاتٌ»، وكرّر الكلمة: «إنها متاهاتٌ، لا غير».

«وماذا يلحُّ عليك كي تعود إلى أضنة؟» سألتُه، فردّ على نحوٍ غامضٍ، مبتسماً:

أسمعُ نداءَ يلماز مَلّي.

واكبتُ عملَ الحفّارات الآلية على هضبة مكدونيتسا بجهدٍ مُضاعفٍ: كان عليَّ أن أتخيّل الأساسات التي سترتفع ركائزُها من الخنادق الطويلة، والحُفَر الأخرى الشبيهة بآلاف الآبار، مستعيناً بمُجرّداتِ «علوم الزوايا القوسية»، من جهة، وكان عليَّ، أيضاً، من جهة أخرى، أن أحدّد للحفّارات والعمال المسالكَ الملتوية، التي توهَّمتُ، في زعمي، أنها مداخل إلى الشّعاب المتداخلة خطوطُها في خرائط «جانو».

توقعتُ، بعد يوم أو يومين من بدء العمل الصارم، أن يأتي من يراجعني، مستغرباً، في أمر توجيهاتي بالنسبة لتنفيذ خرائط «جانو»، فلم يراجعني أحد: كنتُ أَخْتَلق تصوُّراتٍ عن العمق الذي ينبغي أن تكون عليه الخنادق، والآبار، والأخاديد، وكذلك نِسَبَ قُرْبها وبُعْدِها، وتجانُسِها وتنافُرِها، والتواءاتِ الخطوط البصرية التي تشكّل، وحدها، مفاتيح الكُتْلَةِ المُتَخَيَّلةِ للسِّرِّ كمتاهةٍ.

كانوا ينفِّذون توجيهاتي حرفيّاً، وكنتُ، نَفْسيَ، أستقي اختلاقاتي هذه من تأمُّلي في ترتيب جغرافيا البلدان، من هضاب الأناضول إلى بحر الفرس، على أساسٍ أمنيٍّ، حتى أنني وجدتُ السلطات في تلك الأنحاء تقدرُ ـ قَسْراً ـ على استنباط مناخ الطبيعة في مدارٍ ليس له. فقد حَدَثَ في هذا الشقِّ من تضاريس العالم (أعني شرقَ الأناضول إلى بحر الفرس، وبحيرةَ «وَانْ» إلى أنطاكية) أن أُعيدَ التوزيعُ السكانيّ كما في لعبة «المِنْقَلَةِ» الشهيرة، ذات الأربع عشرة نُقْرَة مجوَّفة، في صفّين متوازيين على رقعة من الأرض، أو على خشبة مستطيلة كصندوق الزَّهر؛ ويكون في كل تجويفٍ، أو نُقْرَةٍ، سبعُ حصى ملتمعة كالخرز، جرى جَمْعُها من قيعان الأنهار، يدور بها لاعبان بإسْقَاطها في التجاويف على نحوٍ حسابيٍّ تفوز مَعَهُ الأرقام المزدوجة.

طقطقاتُ الحصى الملتمعِ، الصقيل، بهيَّةٌ في تسرُّبها المقصود من بين أناملِ اللاعبين لتستقرَّ في تجاويف المِنْقَلة، من اليمين إلى الشمال، في حركة دائرية على صفحة الأرض. العدُّ بهيٌّ. راحاتُ الأيدي بهيّةٌ وهي تنقبض على الكمِّ المزدوج في نهاية نَقْل الأحجار، آخرَ كلِّ دورةٍ. بهيٌّ حين يزنُ اللاعبُ، بكفَّيه، ما تحصَّلَ له، فيعرف مسارَ ربْحِهِ دونَ عَدٍّ. لكن ترتيب جغرافيا البلدان، على أساس أمنيٍّ، بما يتوافق في دوراته مع دورات المِنْقَلَةِ، ليس فيه بهاءٌ قطُّ، والأرواحُ التي يُصار إلى نقلها من مكانٍ إلى آخر لا تعود لها خاصّيَّةُ الأرواح.

كل سُلطة، في تلك الأنحاء، يَلذُ معها ذُعرُها من الخلائق، فلا تثق في شيء، لذلك تعمد إلى تدابير في توزيع الناس بحسب تنجيم جغرافيٍّ يُبعد عنها شرور الرعية، فتنقلُ البدوَ من تخوم الصحارى إلى السهول، وتنزح بناسِ السهول إلى الصحارى، كيفما اتّفق لخبراتِ هؤلاء أو أولئك في أن تنشغل بالأقدار الجديدة، المذعورة بدورها من خَلْط مصائر السهول بمصائر الرمال. كما تعمد السلطةُ، في تلك الأنحاء، إلى خلخلة أحياء المدن المتجانسة، فتغدقُ عليها بوافدين من منتفعيها، وعَسَسها، ومأجوريها، لتضمن رقابةً على أيّما سلوكٍ، تتداخل فيها التقديراتُ، والشهواتُ، والنفاقُ، والتملُّقُ، حتى يغدو الرقيبُ رقيباً على الرَّقيب، وهذا الأمر من العلوم المُحْدَثة في عُرف الحاكمين بعدم الاستقلالات السحرية، التي لا يعرف أحد إن كانت بدأتْ بعد.

لقد رأيتُ أن تكون توجيهاتي صقيلةً، ذات رنينٍ، كحصى المِنْقَلة، وأن تكون متداخلة، على تقديرٍ غامض، كالجغرافيا الأمنيَّةِ الممتدة من شرق الأناضول إلى بحر «آيات الله»، فأدهشني السَّيْرُ المُحْكَم للتنفيذ خلال شهرين غاب فيهما «جانو» عن المشروع، حتى أنني أحسستُ المهندسين الآخرين يرتادون، في زياراتِ تأمُّلٍ رصينٍ، مجالَ الأحافير التي تقع في نطاق سلطان خرائط «جانو» التي أديرُ دَفَّةَ علومها، حتى كدتُ أسهو عن إشرافي على تركيز مسارات الأقواسِ المشمولةِ باختصاصيَ، وهي أقواسٌ يجري دعْمُها نظرياً، فوق أعمدةٍ نظريةٍ بدورها، لكنها مُنْجَزَةٌ في خيال التصاميم الهندسية على رقائق

دفاتري الكبيرة، التي سرقت «جين» أحدَها، بكلِّ ما فيه من تخطيطات، فتغاضيتُ عن ذلك لأترك ثَغَرَةً في الكمال الذي سيكون عليه بناءُ المتحف، لكنَّ تلك الثغرة لم تكن هي مأتى انهياره، فيما بعد، لأنَّ تحرّياتٍ مكتومةً، صامتةً، تسرَّبتْ إلينا، أبانتْ عن اختفاء دفتر واحد، في الأقلِّ، من بين دفاتر كلِّ مهندسٍ أُوْكِلَ إليه تصميمُ ما يتّصلُ بعلومِ اختصاصه.

لا أعرف ما الذي استهوى «جين» في دفترٍ يتَّصفُ بتخطيطاتٍ كالألغاز. لقد لمحتُها تضمُّه إلى دفتر رسومها الضخم، ذات مرةٍ في خروجها من مسكني، دون حِرْصٍ على إخفائه، فتغاضيْتُ، بتواطؤٍ فيه استسلامٌ للإثارة التي ستُشغلني بالبحث عن مَخْرجٍ من حلقةٍ مفقودةٍ في تصاميمي، عبرَ مِرانٍ عاصفٍ للخيال. أمّا كيفَ اختفى بعضُ دفاتر المهندسين الآخرين فلا أزعم أن زائريْنَ، مثل «جين»، سرقوها بدورهم، ليتأمّلوا شقاءَ متحفٍ سيرسو على صحراء من المياه.

شككتُ طويلاً في «الطبيب» المشرف على إدارة المساكن، دون أيّما قرينةٍ. حركتُه السريعة توحي بحركة لصٍّ. عيناه النافرتان، المشدوهتان، هما عينا لصٍّ يرى في كلِّ شيء غنيمةً، أو لَقْيَةً. تدويناته السريعة في دفتره تدويناتُ كشّافٍ يحدِّد مساراتٍ للنَّهْبِ. وفوق هذا كلّه اسمه «الطبيب». لقبُهُ هو اسمه وكنيتُه، كأنما لم ينحدر من نَسْلٍ. ونحن، جميعاً، لم نسأل عن اسمه، لأننا لم نسأل، أساساً، عن جدوى استبدال «ميكاليدس»، الذي يبشِّر بأشجاره الناطقة، بـ «طبيبٍ» يحمل آلة قياس النَّبض الملازمة لتشخيصِ المجابهة الأزلية بين القلوب الآدمية والموت.

غير أن ريبتي تضاعفت في شخصه، ممتزجةً بإحساس غريب أبعدَ من أن أرى فيه لصاً فحسب. فقد لمحته، بعد شهرين من صبِّ الإسمنت في قوالب أساسات المتحف، ينزل من سيارة أُجرة، قريباً من شجرة الخرّوب الضخمة، ثم يهرع إلى حيث الأرض الخلاء وسط شجرات الزيتون، قبل أن ترتفع أساسات المبنى الدائريِّ بعدُ، فيعطي

المشرفَ على العمّال، ذا الشَّعر الرمادي، دفاترَ لم يكن في استطاعتي، من مجلسي أمام مقهى «أبوستولي»، أن أؤكِّد ما إذا كانت هي بعض الدفاتر التي اختفت من مساكن المهندسين.

كان واضحاً أن أحدَهما يعرف الآخر: تحيةٌ خفيفة. الدفاتر الكبيرة تنتقل سريعاً من يديْ «الطبيب» إلى نظيره المبتسم. «الطبيب» يعود، في عَجَلة، إلى سيارة الأُجرة التي انتظرته، فيستقلُّها لتغيب في منعطفٍ يلي شجرة الخروب، شمالاً، بسبعين متراً. وقد هممتُ أن أجتاز الشارع إلى الجهة الثانية، في حركة متلصِّصةٍ، علَّني أتملَّى الدفاتر من موقع أقربَ، فإذا بالرجل ذي الشَّعر الرماديِّ، المبتسم ابتسامةً توحي بالثّقةِ، ينظر إلى حركتي نظرةَ عارفٍ ردتْ خطايَ إلى المقهى، وأنا لا أتطلع إليه لِمَا في عينيَّ من انكشافٍ.

لم يتكرّر مجيء «الطبيب» قط، بعد ذلك، إلى الخلاء الذي سينهض فيه مبنى دائريٌ كقبَّة ملتصقة بالأرض، لا نوافذ فيها، محاطة في وسطها بشرفة كالحلقة، تتَّصل بها سلالم من حديد. كما لم يجذب المُشرفُ على البناء، ذو الشَّعر الرماديّ، اهتمامي طوال سنين، بالرغم من وجود كلٍّ منا في جهةٍ من الشارع، بتواترٍ يوميٍّ تقريباً، حتى ذلك النهار الذي جاءني فيه «جانو» بنبأ انهيار المتحف.

أخبرتُ «جانو»، الذي عاد من «أضنة»، بريبتي في سلوك «الطبيب»، فأبدى إشاراتٍ توحي بضجره من الحكاية كلِّها. غير أنّه نَفْسَه، أعني «جانو»، أثارَ حفيظتي من سلوكه الصامت بعد عودته: باتَ أكثر تأمُّلاً، من غير أن يفقد شهيته إلى ذلك المرح العابث، المرير في سريرته، وهو يختلقُ النّكات الماجنة، حتى أنني لم أقع منه على أخبارٍ حول رحلته من جزيرة النحاس إلى أرض «يلماز مَلّي»، بل لفّقَ لي أحاديث خرافيةً عن غيوم يتساقط منها الريش فوق أرض «بوطانْ»، وعن حزام بعرض ستة أمتار من الخرز يطوِّق الهضبةَ المشرفة، أسفل سفح طوروس الشرقيِّ، على بلدة «عَيْنْ ديوارْ» . مسقطِ أسراريَ الضريرة.

أحاديثُه لم تكن فَكِهَة، على أية حال، أو أنني كنتُ لا أمنحُها

حظَّها من الوصول إلى الجانبِ المَرِح في «عقلي الثاني»، أعني عقليَ الخفيَّ، الذي أستولدُ به كياني من فراغه، وأحاكي به الأشياءَ، والخلائقَ، على صورتها، فأجدُني ربيبَ ما يُمْتَحَنُ وما لا يُمْتَحَن. كما راعني أنَّ في صوت «جانو» وتراً ضائعاً وهو يسرد حكاية مقتضبَة عن كتابِ جَلَبَهُ، في حافِظةٍ من جلد الجاموس. وقد أشار إليه، مرَّة، بعدما علَّقه إلى مشجبِ ثيابه النافرِ من الحائط بثلاث شِعَبٍ كقرنِ الوعل: «هذا هو. تستطيع أن تسمع فيه صدى اختلاقِ مَنِيِّك في خصيتيك»، وشدَّني من كتف قميصي في لِيْنٍ: «ضع أذنك على دَفَّة الكتاب، يا رجل»، فجاريته في ظُرْفه الخشن قليلاً، واضعاً أذني اليسرى على جلد الجاموس الذي يغلِّفُ الكتابَ لبرهة، ثم رفعتُ كتفيَّ دليلَ لا جدوى إصغائي، فأبعدني واضعاً أذنه على تلك الثمرة اليابسة في غلافها الجلديِّ: «ماذا دهاك؟ أأنت أصمّ حتى لا تسمع كلَّ هذا اللهاث؟»، والتفت إليَّ محدِّقاً في أعماق عينيَّ: «أقواسٌ مُعَذَّبةٌ تنهش الورق في هذا الكتاب، يا رجل».

في تلك اللحظة عنَّ لي خاطرٌ جسيم: لماذا لا أقتل «جانو»؟ أستطيع أن أستعير منه بندقية الصيد، ثم أخرجَ من مسكنه، ثم أعودَ إليه وقد وجَّهتُ الفوَّهةَ الباردة إلى قفصه الصدريِّ لأبعثرَ، بطلقتين ساخنتين، فكاهاتِ القرون التي يصنِّفها تصنيفاً متراتباً في هواء رئتيه. ولبرهةٍ فيها دوار خفيفٌ أيقنت أن «جانو» أدركَ ما يعتمل في شقاء سريرتي الجوَّال، فهمس همستَهُ الساخرة: «لقد فَعَلْتَها، يا رجل».

«فعلتُ ماذا؟»، تمتمتُ مفترَّ الشفتين، فأشار إلى الكتاب المشنوق على المشجب: «دَخَلْتَ متاهةَ الحبر».

«لماذا لا تفصح، قط، حين تكلِّمني يا جانو؟»، قلتُ غاضباً، فاتخذتْ ملامحُهُ هيئةً جادَّةً، نادرةً: «أنت تعرف كلَّ ما أريد أن أقوله، يا رجل. ألا يكفيك ذلك؟».

أحسستُ بعبث المحاورة، من جديد، فحدَّقتُ في الكتاب الذي كدتُ أسمع أنينَه، متمتماً بصوتٍ فيه اختناق: «إنه يشبه «التأسيس الكبير»..».

٢ ـــ التماثيل مستيقظةً بعد حلمها الحجريّ

بجلالٍ هائل تمَّ نقل التماثيل من مستودعاتها الكبيرة، المسقوفةِ المُغْلَقة، خارج المدينة، إلى المتحف الذي كان اكتملت فيه الطبقة الخاصَّة بالمتاهات، فيما كانت الطبقات الثلاث الأخرى قيدَ الإنجاز البطيء، في السنة السادسة من إقامتي في مساكن المهندسين. فقد استغرقَ صبُّ الأساسات وقتاً لم يكن في حسبان أحد، كما عقَّد الأمورَ تعهُّدُ شركات استيراد الجدران الجاهزة، ومضارباتُهم، واستفحالُ الخلاف بين المهندسين في قبول تلك الجدران لمبنى جليلٍ من هذا النوع، لأن كلَّ واحد ارتأى أن يكون الجزءُ الداخل في تصاميمه، من هيكل المتحف، مشمولاً بذائقته الشخصية، المحسوبة بموازين الأبراج وخواصِّ الكواكب: بعضُهم أصرَّ على الإتيان بالحجر، وآخرون استحسنوا الخشب الصلب، وفئة ثالثة قدَّمت براهين لا تُحصى، لها قرائن وأسانيدُ في عمارة الأسلاف الخالدة، على أن الطين هو أصل كلّ هيكل، كونه النُّطْفَة الأزليَّة للهواء؛ والهواء من خواصّ القدسيّ قبل وجود أيِّ شيءٍ آخر، وإلاّ استعانَ الله بكيموسٍ غيرِهِ بدلَ النَّفخ في الطين، الذي كان، بدوره، من ركائز المشيئة الكبرى للقِدَم.

على أية حال، قدَّم مُحَبِّذو الحجر براهينَهم أيضاً، بثوابت فلكية في انقياد الطين للحرارة، كي يصير إلى نشأةٍ من الجلالِ الموهوبِ للأجرام. ولولا الحرارةُ ما اجتمعت الكتلةُ سياقاً بارداً، كثيفاً، متجرِّداً من الخَفَاء الذي هو حيلةٌ للنجاة من امتحانٍ لا يقدر عليه إلاّ الخالدُ. كما قدَّم أنصارُ البناء بالخشب براهينَهم في بساطة لا تحتاج إلى أسانيد: الخشبُ هو تخلُّقُ التراب يبوسةً مع الماء رطوبةً، في تجانسٍ واحد لهيئتيهما الأزليتيْنِ.

لكن الشركات، التي لا تقيم وزناً إلاّ لبرهان الكتلةِ كمّاً محسوباً في ميزانه الزمنيِّ، جاءت بجدران جاهزة، ضخمة، تضعها رافعاتٌ

عملاقةٌ في توازٍ، وتجاورٍ، وتعامُدٍ، على نحوٍ مدروس يزلزلُ البراهينَ، ثمَّ أبقت الطبقةَ الثانية من المتحف، حيث التماثيل في تعاريج المتاهة، في منجى من جدرانها الإسمنتية، مستعيضةً عنها بجدران شفيفة من زجاج سميك جداً، ليكون المشهد المُلْغِز جاذباً. ولم يتمَّ الأمر، بالطبع، إلاّ بغوايات تفوقُ قدرة المَنَاطِقَة المشَّائيْنَ نَسَجها «جانو» لإدارة المساكن، باللغة الكردية، واليونانية، والانكليزية، والروسية، وألفاظ مبهمة من لغات أخرى هي قيد الإنجاز في حلقة السديم الثالث، بين برج الحوت وبرج العقرب، مستعيناً بنفرٍ من الجنِّ حفظوا عن سلالاتهم أخباراً عن قصرٍ من البلّلور في سَبَأ، حيث ألقتْ بلقيسُ عاصفةً من الألغاز في حِجْر سليمان تقوَّضت منها عظامُ حكمائه، وهم يحثُّون أعوانهم المَرَدة، النَّيزكيِّينَ، على فكِّ طِلَّسْماتها.

يستطيع «جانو» وحده، بحقٍّ، أن يُصَعِّدَ ابتساماتِ رِضَا من أعماقه، وهو ينظر إلى متاهاته في طبقة المتحف الثانية، مكشوفةً كما يليق بسرٍّ هائل أن يكون، حيث الممرّات اللولبية التي ينهض على كل منعطفٍ فيها تمثال لِزَوجٍ من الحيوان. وكان، فيما بعد - حين سُمِحَ للزائرين بالطَّواف في أروقة المتحف كلِّها، إلاّ جناح التماثيل - قد أحْكَمَ سطوتَهُ على مملكة المتاهات، باستحداثه ممرَّات متحرِّكة، كما في المطارات الكبرى، تنقل الزائرين من حول جناح التماثيل الواسع، دائرياً، وكذلك من فوق، قوسيّاً، عبر سلالم آليةٍ مرتكزةٍ إلى قباب من بلَّلورٍ بدورها. أيْ أن في استطاعةِ المُشَاهِدَ إلقاء نظراتٍ طويلة، من الجهات كلِّها، على ذلك الجناح، دون دخوله قط، أو التجوُّل في مسالكه المتشعِّبة، الغامضة.

عينا «جانو» اتَّسعتا، لأول مرَّة، أو هكذا توهَّمت، بسبب حظّه الأمين الذي أتاح له، دون المهندسين جميعاً، أن يكون تصميمُ الجزء الداخل في اختصاصه، من بناء المتحف، على أتمِّ مُرادِهِ. وكان يعابثني، أحياناً، مشيراً إلى التماثيل: «إنها مُرْهَقةٌ اليوم»، فأسأله: «ما الذي أرهقَها؟»، فيهزّ رأسه استخفافاً بسؤالي: «ألا تراها، يا رجلُ،

قضتِ الليلَ متنزِّهة بين المتاهات؟». وأنا أعلم، بالطبع، أن الليل، كالنهار في دائرة الخلاء الكونيّ المحيط بالمتحف، حيث كشّافاتُ الضوءِ العملاقة ترسل أنواراً متماوجةً، من المساء إلى الفجر، على أسفل الهيكل المتطاول للمبنى، فيبدو سفينةً حقيقيةً تمخرُ مَوْجَ الله الأثيريَّ. وفي الضياء الباهر، ذاك، تبقى التماثيل على حالها، مشدودةً إلى حلمها الصلب، الساحر، الذي يلهمُ خيالَ حمارٍ ميتٍ مثل الشاعر «ميلان» أن السكون هو يقظةُ المعنى، بحسب ما سمعت منه في شروحه الغامضة لمصطلح «الماديّ».

أين «ميلان»؟ أسأل نفسي بنبرةِ رثاء، وأنا أرى إلى ذلك السلام المُقْلِقِ في عينيْ «جانو». ثم أتحسَّسُ موضعَ قلبي: «لو تراهُ جين، الآن».

٣ ـ الملاك الذي نجا بسبب قياسٍ خاطىء للمنظومات

هل آوى نباتُ الخَسّ إبليسَ، حقاً، حين احجمتِ النباتاتُ الأخرى عن إيوائه، في هروبه الثاني من القيامة؟ جدالٌ عاصفٌ مزّقَ هيبةَ المتصوِّفةِ المنعَّمِيْنَ بأحكامٍ هي هبةُ الباطن، التي يراها صاحبُ «التأسيس الكبير» أبو المُغْضِل أوَيس الماردينيّ فراغاً في المجاز يهربُ عبرَهُ اليقينُ، فما من متصوِّف يموت إلاّ متوسّلاً إلى الظاهر أن ينجدَهُ بمكاشفةٍ في العَدَم، حين يكون العَدَمُ خيالاً في المكاشفات.

غير أن القَلَقَ الحقَّ، بحسب الماردينيِ، مرادفٌ لابتداء أيِّما سَنَةٍ من سنين العالم المنظور بيوم هو السبت، فيكون طالعُها زُحَلُ، وأبراجُها الجديُ والدَّلو، ونسيجُها التّخمينيُّ غمٌّ، لأنَّ في مثل سنةٍ تبدأ على هذا النحو قتلَ قابيلُ هابيلَ ـ أخاه، مسحوراً باقتداره على نجدةِ الزمن كي يرتِّبَ خلودَهُ كخاصِّيَّةٍ من المصادفات المعلومة.

للزمن خلودٌ، إذاً، بِهِبَةٍ من هبات القتل. ومنذ ذلك اليوم، الذي عَبَر خاطري شرارٌ باردٌ من الرغبةِ في قتل «جانو» تقوَّضَ شيء ما في أعماقي، لكثرةِ ما أثقلني الخجلُ، وأجهدني التأنيبُ الذاتيّ، أنا الذي لا يفسِّرُ الخلودَ إلاّ بالألم. والخاطرةُ تلك ـ بتأكيدٍ مِنِّي ـ لَمْحٌ عابر. غير أنها حدثت قطعاً، وأكاد أرى على أطراف أصابعي رماداً هو ما علق من تلك الخاطرة المحترقة بها، فأمسح راحتيَّ بجانبي بنطالي الفضفاض. وحين قابلتُ «جين»، في اليوم الثاني من المُحَاوَرة التي عَرَض لي فيها «جانو» بتلميحٍ عن فهمه رغبتي المكتومة، كدت أخفي عينيَّ عن عينيها، بجلوسي إلى الطاولة في مقهى «أبوستولي» ووجهي في نصفِ دورةٍ من خلف كتفي، صوب باب المطبخ، حتى أنها أبدث ملاحظةً خجولة: «أطلبتَ طعاماً؟»، فاعتدلتُ في جلستي، موجِّهاً بصري، هذه المرَّة إلى صحن النُّقْل الصغير، فحاصرتني بسؤال جديد: «أكل شيء على ما يرام؟».

«نعم»، تمتمتُ، ثم حدَّقتُ فيها مجازفاً بانكشاف أعماقي، فابتسمتْ ابتسامتَها التي لم تغادر شفتيها قط: «أجانو على ما يرام؟».

«نعم» قلتُ وأنا ما أزال أحدِّق في عينيها كأنني أستحثُّها على قراءة اعترافي بالذي فكَّرت فيه كشيطانٍ. ثم هممتُ أن أُبدي إشاراتٍ متقطِّعةً، سهلةَ الجَمْع والترتيب، تستهدي بها إلى ما خَطَر لي من خيالٍ ماجنٍ، فنطقتُ بإبهام: «جينْ.. ماذا تفعلين بشخص يستعير أجوبتَهُ منكِ ويردُّها إليكِ، بعدئذٍ، ساخرةً على نحوٍ لا يُطاق؟»، فردَّتْ وهي تمشط بأصابع يديها، إلى الوراء، شعرَها الملتمعَ في ليلِهِ الضاحكِ: «أُقبِّلُه».

«أأنتِ أيضاً؟»، قلتُ متأففاً، وأنا أعقد مقارنةً خفيَّةً بين جوابها الساخر وما دَرَجَ عليه «جانو» فتفحَّصَتْني: «هل سألتَ أحداً غيري، فأجابكَ بما أجبتُ؟».

«لا. جينْ..» قلتُ، باحثاً عن كلماتٍ تدلُّ، دون تصريح مباشر، على غايتي، فقاطعتْني واضعةً راحتها على خدِّها النافر من شفَقِ جلدها الشَّمسيِّ: «إنه جانو»، وضحكتْ ضحكةً أفلتتْ عقالَ الشرارات في موقد الشُّواء، بنزول قطراتِ شحمِ الخنزير على الجمر، ثم اعتصرتْ خيالي بجملةٍ لها يدٌ ساخنةٌ: «اقتلْ جانو».

أيقظتني كلماتُها على سؤال لا يتعلّق بالمفاجأة التي فيها، بل على أمرٍ لم أُقسِر نَفَسي في استيضاحه: «أين تقطن جين؟. تأمَّلتُها بعينين جَسُورتين، لأول مرة، منحدراً ببصري من شفتيها إلى صدرها الذي لم يغادر ثدياه طفولتَهُما فيه، بإحجامهما عن أن يكبرا كثيراً. انحنيت بصدري على الطاولة، ثم لمستُ ساعدَها العاري بظاهر يدي، من الكتف حتى المرفق نزولاً. نهضتُ مقرِّباً كرسيَّ من كرسيِّها، وجلستُ لصقها كما كنتُ أفعل حين استعرضُ معها الرسومَ في دفترها الكبير، ووضعت راحتي، جانبياً، على لحمها المنفلت من طوق قميصها القطني القصير، فوق حزام بنطالها.

ظلَّت «جين» هادئة تماماً، لكنها كانت مندهشةً من جسارة

حركتي، وكذلك أبدى «أپوستولي»، الذي لم ألحظْهُ إلا بعد برهة دهشةً ممتزجة بمرحٍ، وهو يمط عنقه من وراء السُّلَّم المفضي إلى العلّيّة، فيما تمادتْ راحةُ يدي فانحدرتْ بأصابعها تحت الحزام. وقد توقَّفتُ لحظتئذٍ، مدركاً أنني أُبالغ، لكنني لم أسحب أصابعي من مكمنها الملتهب، كأنما ذابت في لحم المرأة التي أظنها بحثتْ، دون جدوى، عمّا ينبغي أن تكون عليه ردّةُ فعلها، لذلك بقيتْ ساكنةً.

لم أهتمَّ بنظرة «أپوستولي»: عيناي تسمّرتا على عيني «جين». يدي اليسرى تحرَّكتْ، رافعةً كأسَ الشراب البلّلوري المرتعشةَ إلى شفتيَّ، ثم أعادتها إلى الطاولة في اصطدامٍ بين الزجاج والخشب تَلَجْلَج منه السائلُ الحيُّ.

دام اشتعالي الساكنُ دقيقةً، أو أكثر، قبل أن تبادر «جينْ» إلى إرتشاف بَلْعةٍ من كأسي ذاتها، وهي تنهض مبتسمةً كعادتها، لتغادر المقهى بعدما تركت خلفها كلمةً رفرفتْ طويلاً في قلبي المفتوح كخندق طويل: «أراكَ».

دفترها الكبيرُ غاب في المنعطف الذي يلي شجرةَ الخرّوب الضخمة، شمالاً. غابَ ظلُّها المُتكوِّمُ قصيراً عند عقبيها، ثم التحمَ المشهدُ في حرارة الصيف على أصوات الزيزان فصارتْ تبلغُ سمعي كأنها صادرة من جوفِ طبلٍ.

الزيزانُ هي الصيف. هذه الذُّبابة الكبيرة، القاسية، الثقيلة الطيران، هي درع الصيف، وسيفُه، ودِرَّتُه، وسهمُه، وخوذته أيضاً. وأنا الذي عشتُ عشر سنين، في صيف متَّصل، لم ينقطع قطّ، تحت رَقْشٍ من النحاس الخالد في مرآة الجزيرة الطافية على نجمةٍ إغريقيةٍ مالحة، أكاد أؤمن أن لي خاصيَّة الزيز، وإلاّ لما وجدتُ نَفْسي مُنْصتاً هكذا إلى الظهيرات التي تتماوج فيها الأرصفةُ من الحريق الخفيِّ في جمادها.

لا ربيع، لا خريف، لا شتاء: تنِّينُ الصيف يغطّيها بظلّه. فإذا

حصل أن غطّى الغيمُ الثقيلُ السمواتِ، لم يغِبْ عنّي لهاثُ التنّين الساخن يلفح رقبتي عبر موقد الشواء في مطعم «أبوستولي»؛ وإذا تلاسنتِ البروق، رأيتُ فيها لسانَهُ اللهبيّ ذا الشُّعَبِ.

إنه أبداً هناك ـ أعني تنّين الصَّيف، وأنا في ظلّه، عشر سنين، أنسج من أصواتِ الزيزان مديحي للجفاف الذي أشمّه دون أن أراه. وقد أدركتُ السرَّ لبرهةٍ، بعدما غابت «جينْ» في المنعطف: استسلامي اليوميّ لخَدَرِ الظهيرة، على طاولة المقهى. فأنا لا أرتاده إلاّ في وقتٍ لا تُحْسَبُ فيه الحصصُ الزمانيةُ، بسبب المروقِ الذي يكتنف طباع الشمس ـ كما تقول المتصوِّفةُ. لكنَّ «الماردينيَّ» يعطفُ الحصصَ الزمانية ـ حين تكون الشمس في دورةِ طباعها هذه ـ على وحدةٍ تجعل اتصالها غير ضروريٍّ قط، وهي وحدةُ قياسٍ يستعيرُها من عِلْمِ تفكيكِ الدائرةِ في الموسيقى، دون تفسيرٍ.

الظهيرةُ هي مكاني، إذاً، وليست وقتاً من أوقات النهار. والإقامةُ الدائمة في الظهيرة تجعلُ طباعَ الصيف هي الغالبة عليَّ؛ لذلك أنا في فَلَكٍ شمسيٍّ أبداً، واتّصالُ أبراجيَ بالقمر مصادفَةٌ محضةٌ، في فضاءِ العلامات الكبرى لليقين. وقد أستعير من «الماردينيّ» جملةً تختصرُ الحالَ: «البَرْدُ، نَفْسُه، خيالٌ من خيالات القيظ حين تستبدُّ به الحمّى». وأكاد أؤمن، تبعاً لهذا التصوير، أن فصول السنة الثلاثة الأخرى هي اختلاقٌ مِنّي لاجتلابِ الإثارة إلى سياقِ سَرْدٍ رتيبٍ لا أصوغه بلساني، بل أرويه بقلبي المستوي صقيلاً كسطح مرآة لا متناهٍ، يعكس قلوباً لا متناهية.

أنا هوائيٌّ إذا صَنَّفتُ نَفْسي في انجذابي إلى العناصر، بخاصّيَّةِ الأملِ لا خاصّيَّة الكيمياء المتناحرة في الفراغ الأصلح. لكنَّ النار خياليَ، وجدوايَ، وصورتي، أيضاً، في التوالي الحسابيّ للمصادفات، وهي تجمع شتاتَ الأقدار المُمَزَّقةَ كألعاب الصور المقسَّمة. وأنا، إذ غابت «جينْ» في المنعطف الذي يلي شجرة الخروب الضخمة، رأيت المشهدَ المحجوبَ في انعكاسه على جمرةٍ بلّلورية خلّفتْها المرأةُ على

الطاولة: تمضي شمالاً، ثم تنعطف شرقاً، ثم شمالاً لتصير إلى الشارع العريض، الذي لا يحدُّه رصيفان. وبانعطافةٍ صغيرةٍ، من جديد، تسلكُ الجانبَ المفروش بالحصى المُغْبَرّ، متجهةً شرقاً إلى رئتي المدينة وعمقِ كبدِها الرماديّ.

لم أحتمل أن أرى في الجمرةِ، وحدها، مشهدَ «جينْ» عائدةً الى الجانب الآخر الذي لا نعرفه من إقامتها، وعلاقاتها. إنها جزء من مقهى «أبوستولي» وبعض الزيارات القليلة، المسائية، إلى مساكن المهندسين، لتُجالسَ ثرثراتنا ـ أنا و«جانو». وما من فضولٍ حثَّني، من قبل، إلى معرفة أكثرَ ممّا في ألوانها الهرطوقية. لذلك تتبَّعتُها. نهضتُ دالقاً كأسي على الجمرة البللورية، التي لا تُرى، وتتبَّعتها، دون حَذَر كثير، لأنَّ ما من ساترٍ سيُخفيني إذا التفتتْ خلفها فجاءةً. لكنها لم تلتفت. كانت سائرةً كخيالٍ لونيّ، والشارعُ الإسفلتيُ يتلقَّف ظلَّها، بين خطواتٍ وأخرى، ويقضُمُه مثل فُستقٍ.

اجتازت «جينْ» ساحة «ألِفتِيريَا» المنبسطةَ على أخدودٍ نهريّ تنبثق منه أشجارُ عصر النحاس، ثم دخلت زقاقات المدينة القديمة، التي كثرتْ فيها الأبواب الخشبية، وازدانت زواياها بعجلاتِ عرباتِ النقل الخشبية، لإضفاء طابعٍ سياحيٍّ أصيل على عراقةٍ لم تحتفظ بها تلك الزقاقات، فتدخلتْ وزارة السياحة لإحياء المشهد بالكثير من القرميد، والأرصفة الحجرية التي تحمل نقوشاً من رياح الميثولوجيا. وفي كل منعطف من تلك الزقاقات نهضت دكاكين لبيع التحف، الخارجة توّاً من مشاغل النحّاسين، والخزّافين. كما كَثُرَ عَرْض بطاقات بريدية عليها صورة تمثالٍ هِرَقليٍّ أخضر، ذي قضيب غليظ، منتصبٍ، على حالٍ يسمّونها «فرمسيموس»، أي الانتصاب من غير شهوة، بل بسبب احتباس الرياح فيه، مما يستلزم، طُبِّيّاً، إجراءَ فَصْدٍ له. غير أن البطاقة البريدية، هذه، هي للتداول الفكاهي. والتفكير في حجم الإحليلِ، وتقوُّسِهِ الصارخ، وطولِهِ، ينبغي اجتنابُه، لأنَّه يورِثُ «داء المزمار»، وهو توَهُّمٌ، يقود الشخص إلى دوام سماع صوت المزمار، تلك الآلة الأكثر تفاهةً

في مسيرة التذوُّقِ الإنسانيِّ لمجازاتِ الصوت، فينشدُّ عَصَبُهُ انشداداً طويلاً، ثم يرتخي فجاءة فلا تقومُ لعضلةٍ فيه قائمة، ويتعسَّرُ عليه الجماعُ، أو يستحيل.

خفيفةً كانت «جينْ» تعبر الزُّقاقات. وكلَّما أوغلتُ في الأعماق القديمة للمدينة، من خلفها، كانت الزّقاقات تلك تغدو دائرية، وسط جدران صماء من الحجر الطينيّ. وبعد ساعة من الملاحقة المضنية، بدأت الزقاقاتُ تتَّسع، بصورة مطَّردة، ثم ظهرت حوانيتُ معتمة، مثل كهوف، في الجدران الحجرية، ضيقةُ المداخل، بعمق لا يزيد عن متر واحد، مفتوحة الأبواب، لكنها خاليةٌ من أصحابها، ولولا اللوحات النظيفة المعروضة في أعماقها الظليلة، ونظافة عتباتها، وألق أخشاب أبوابها، لظننتها مهجورة من قرون.

حين أبطأتْ «جينْ» اضطررتُ أن أُبطىء أيضاً، فتسنّى لي تأمُّلٌ عابرٌ في اللوحات المعلَّقة على الجدران الداخلية للحوانيت: كانت تمثِّل جبالاً شاهقة المُنحدرات، كأنها آلهة ما تستلقي أمامها الوديانُ مثلَ رُسُلٍ من الثعابين. لكن بعض اللوحات الأخرى، كانت تحملُ رسماً واحداً، متكرِّراً، استوقفني، وقد ارتابت عيناي فيه، فوجدتُهُ نسخةً من الرَّسم الذي خرجتْ به «جين» من خلوتها الطويلة في قبو مسكني، حين كان النحّاتون ينجزون ملهاتَهم الحجريةَ.

مُدى، وخناجر؛ وسطوعٌ شاحبٌ، فيروزيٌّ، في شفقٍ يغمرُ شاباً جالساً على الأرض بألقٍ كالمعدن. تلك كانت اللوحة. أما ملامح الشاب فهي المزيجُ المُزهَقُ من ملامحي وملامح «جانو».

لم أحسَّ انفعالاً. شفتاي باردتان: ذلك ما خطرَ لي وأنا أبلِّلهما بلساني البارد. أسرعتُ في خطوي كي ألحقَ بـ «جينْ» قبل أن تدخلَ منعَطَفاً جديداً في متاهة الزقاقات. وكأنما أحسَّتْ بي، (لا أدري)، رأيتها تنعطف، فجاءةً، صوب حانوتٍ أكثر إعتاماً من الأخرى، وتدلف من بابه الخشبي الموارَب إلى عتمته.

دخلت من خلف «جين»، بفاصلِ بضعِ خطواتٍ بيننا. كانت الردهة الداخلية للحانوت دائرية، واسعة. والجدران الشاحبة ملأى بصور معروضة في إطارات لا لون لها. تلفتُ من حولي فلم أجد أحداً. تقدَّمتُ إلى أعماق الردهة أكثر، إذ لا يمكن أن تختفي «جين»، هكذا، بإشارةٍ من الهواء الجنّيّ. وقد أحسستُ حركةً من خلفي، بعد لحظة من وقوفي الصامت، فالتفتُ لأرى «الطبيبَ» نَفْسه، المشرفَ على إدارة مساكن المهندسين، خارجاً على عجلٍ من الحانوت، وهو يحاذر أن تقع عيناي على وجهه. وبرغم المفاجأةِ لم يغب عني أنْ لا بدَّ من بابٍ في الجدار الدائريّ المحيط بالردهة، وقد استهديتُ إليه دون رطانةٍ سحريّة، إذ كانت إحدى اللوحات الطولانية الكبيرة تستُر باباً لم يغلقه «الطبيبُ» من خلفه، على الأرجح. فتسللتُ منه إلى قاعةٍ كانت مكتبةً عريقةً، بحسب هيئتها المتداعية، ورائحة الورق المشمولة ببرَكَةِ الأسرار. وفي جانب منها منضدة تجلس إليها «جين»، وهي تعاين ورقةً ضخمة لا تحدُّها ذراعاها. رفعتْ وجهها إليَّ بابتسامةِ سهولِ النار، وأشارت بأناملها أن أقتربَ. فعمدتُ إلى الالتفاف من حول المنضدة لأقف فوق كتفها، من وراء الكرسي الذي تجلس عليه، وانحنيتُ حتى لامسَ خدي شعرَها القابضَ على الليل بأغلالٍ من الهرطقة النورانيّة. ثم لم أزل استجلي الرسمَ في الورقة صامتاً، ومأخوذاً بالبنيان الذي فيه، حتى وضعتْ «جين» راحتَها فوق يدي المتكئة على حافة المنضدة: «حظُّك رائع. ستكون ممتناً لهذا التشييد الفارِهِ»، قالت لي، وهي تتأمَّل الشكلَ الدائريَّ الذي تَخفَّفَ البياضُ من حوله، في مركز الورقة العريضة، مهابةً.

سألتها وقد فاتني مغزى كلماتها الواضحة: «حظّي أنا؟ ما لي ولهذا البناء؟!!»، وأضفتُ بعد سكوتٍ قليل: «تشييده غريبٌ، لكن ما الذي يخصّني فيه؟»، فالتفتت «جين» إليَّ بوجهها، من فوق كتفها اليسرى: «ألم تتخيَّلْهُ هكذا؟».

«تخيَّلتُ ماذا، جينْ؟»، سألتُها وقد ازداد انحنائي من خلف

كتفها، كأنني سأدلقُ أعماقي الغائمةَ فوقَ الرَّسم. فأدارت «جين» وجهها صوب الورقة، ثانيةً، وهي تتمتم: «حينَ تكون هناك، ستتخيَّل مشهدَ وقوفك معي الآن على نحوٍ أفضل».

«أكونُ أينَ؟»، سألتُها هامساً، فنقرتْ بسبَّابتها على الورقة: «هنا»، ولمستْ، من ثم، في رقَّةٍ، ذلك المبنى الدائريَّ الأبيض، الشبيه بقبَّة، أو ثدي، والمحاطَ في منتصفه بشرفة دائرية من الحديد المزخرف على أشكالِ شتى من شموس وحروفٍ، وطيور نَحَامٍ، ومناجل، وموازين، وعيون، وفاكهة.

لقد أرتني «جين» تلك العمارة الغريبة، التي ستنهض كاملة، فيما بعد، في الخلاء المحاط بشجرات الزيتون، على بعد أمتار من رصيف مقهى «أپوستولي». لكنها كانت كاملة في الرسم على الورقة الضخمة، دون نوافذ أو أبواب، تصعدُها سلالمُ من حديد أزرق حتى الشرفة المحيطة بها كحلقة من الجهات كلها. كما استطعتُ أن أتبيَّن ظلَّ شجرة الخروب الضخمة مُهْرَقاً على جدارها الغربي المقوَّس، وهو يتماوجُ، خَفيّاً، من هبوبِ الهواءِ الذي ترفعهُ مراوحُ اللون.

٤ ـــ أرخبيل زُحَل

اليوم، حين أفقت من قيلولتي بعد العصر بقليل، نظرت من النافذة إلى ساحة مساكن المهندسين دون تحديد، بصورة آلية ثقيلة، فلمحتُ «ميلان» خارجاً من ظل شجرالصنوبر العابس وهو يتجه إلى البوّابة.

لن يقنعني أحدٌ أنه لم يكن «ميلان». ذُهلتُ لبرهة، لكنني تماديت في التطَلُّع إلى حركة الرجل الأليفة بالنسبة إليّ، وإلى ملامحه المخدَّدة طولياً: لا يمكن، قط، أن أخطىء في تعيينِ شخصه. هو «ميلان». ركضتُ إلى الباب لأفتحه فغمرني لَفْحٌ من الشمس المستلقية على رمل الساحة. كدتُ أردُّ الباب فأحفظ للداخل برودته الرقيقة قبل أن يتسلل إليها لهاث التنّين، لكنني لم أقاوم فضولي الصارخ، فإذا بي أقف حافياً وسط حديقة المسكن الصغيرة، مظلّلاً عينيَّ بيدي، بينما شخص «ميلان» يتّجه، بخطى سريعة، إلى مسكن «الطبيب» تحديداً. يفتح بابَهُ دون استئذان، ويدلف إلى عتمته كأنه يسكنه من سنين.

لم يخامرني شكٌّ في أن من رأيته هو «ميلان»، لسبب لا يمكن إغفاله، وهو أن المصادفةَ التي قادت «جانو»، وقادتني أيضاً، إلى هذا المكان، لا تعوزها الحيلةُ كي تستدرجَ ذلك الشاعرَ المكبَّل القلب بِكِهَانَةِ الكون. إنه من مكان ما من «الجزيرة السورية» لم يفصح لنا عن تحديده، وها هو، في عبوره ممرَّات الأبد الإنسانيِّ، يؤول به المقام إلى الجزيرة الإغريقية؛ هذا ما خطر ببالي، في بساطة لا يحوجُها تحليل كثير.

بقيت مُبَلْبَلاً للحظاتٍ استشيرُ نَفْسي في ما ينبغي أن أفعل. ثم اتَّخذتُ قراري الأثيريَّ فاتجهتُ، حافياً، عبر رمل الساحة الذي يغطي أيقونةَ الجحيم الدَّفينة، إلى مسكن «الطبيب» المنذور لمعاينة الحجارة بإشاراته المبهمة: «القلبُ تدوينٌ مضطربٌ يصحّحه السِّرُّ». قرعت الباب

وأنا أرفع ساقيَّ، بالتناوب، فوق اسمنت العتبة حتى لا يحترق باطنا قدميَّ، مثل طائر النَّحام، فلم أحظَ بجواب. كرّرتُ القَرْع بقبضتي، وبالضغط على زرّ الجرس الكهربيِّ دونما جدوى. شممتُ احتراقاً في عظامي فانكفأت عن الباب عائداً إلى مسكني، وأنا أتطلع بين الحين والآخر خلفي، عسى يأتي ردٌّ، ولو متأخراً، من داخل بيت الرَّجل الشبيه بالبُزَال النابض.

في المساء ـ حين انحسر وهجُ القيظ الأعمى إلى كهفه، وانتشرت مخلوقاتٌ خفيَّةٌ، ذوات عبورٍ منعشٍ، تهزُّ الهواء بمراوحها ـ فاتحتُ «جانو» بما توهَّمتُ، بعد كأسين من فُودكا بريطانية: «أَأُفاجئك إذا قلت إنَّ ميلان هنا؟»، فتأمَّلني لحظةً، ثم ألقى إليَّ بكلمات أخرجها من باطن يأسه الساخر: «الغيرةُ أمرٌ يتَّسم به الشهوانيون القَلِقون».

كدتُ أخرج عن طوري من إجابته التي لا يربطها بسؤالي رابط. وأنا، على أية حال، سأخرج عن طوري فيما بعد، مثل كل ليلة أضبط فيها نَفْسي لساعتين، وأنفجر بعد ذلك، ملقياً على «جانو»، الذي يبقى هادئاً كتمثال، عواصف من مراراتٍ يسبِّبها لي بألغازه، ولا مبالاته الماجنة، وسخريته الحاضرة في اتِّقادِها: «أية غيرة تعني؟»، سألته مستغرباً، ذلك المساء، فردَّ وهو يدلق قطرةً من شرابه على فَرَاشٍ حطَّ مُتْعَباً على الطاولة مهيضَ الجناحين: «غيرتُك من ميلان». قالها بكلمات باردة من تحت ابتسامته الدافئة.

«وما الذي يملكه ميلان حتى يثير غيرتي؟»، قلت ساخراً. فأجاب ببرودٍ: «موتَه»، وأضاف محدِّقاً في عيني: «إنه يحيا مِنْ موته»، فقاطعته: «لا أظنه ماتَ، بَعْدُ»، فوافقني بهزَّة من رأسه: «لم يمتْ بعدُ. لكنه يحيا على الحقيقة الوحيدة التي تنتظره».

«وما شأني في ذلك؟»، ساءلتُهُ متوسِّلاً إجابةً مباشرةً من حنجرة العرَّاف التي يستعيرها في ثقةٍ غامضة، فردَّ: «كان أسرعَ منك»، فقرَّبتُ وجهي منه مغتاظاً: «أسرع منّي؟ لم أخض سِباقاً مع ميلان».

«لا. أنت لم تَخُضْ سباقاً معه، بل مع يأسه»، قال.

أمسكتُ بتلابيب قميصه، وشددتُه إليَّ حتى التصق صدره بحافة الطاولة المربَّعة: «لماذا أفاتحك، أبداً، بأمور تعاملُها كلَهْوكَ بخصيتيك؟»، فلم يفلتْ قميصَه من قبضتي، بل أحنى عنقه حتى لامس سطح الطاولة بجبينه، متمتماً: «لا ألهو بخصيتيَّ، قط. هما تلهوانِ بي». فسحبت يدي، معتدلاً على الكرسيِّ في جلستي المُختَقِنة: «لا فائدة» قلتُ، فرفع وجهه إليَّ في توسُّلٍ مضحكٍ: «لا تيأس. هنالك فائدة من غيرتك».

«وما هي الفائدة؟» سألته في غيظٍ مشوب بعبث ثقيلٍ، فردَّ: «أنك ترى مِيْلانْ، هنا».

نهضتُ واقفاً، في إعلان صامتٍ عن مغادرتي إلى مسكني، وأنا أتلفَّظ بآخر ما أسْعَفني اليأسُ من الموقف الساخر: «مِيْلانْ هنا»، فنفخ «جانو» زوبعةً من دخان التبغ عبر شاربيه: «كان هنا دائماً»، وضرب براحته فراشةً ليلية تائهة، فوق سطح الطاولة.

قبل ذلك اليوم، الذي أزعم، في جَزم، أنني رأيت فيه «ميلان»، كنتُ مأخوذاً بحركةٍ لم أرها من قبل في المَشهد الصاخب لاكتمال بناء العمارة الدائرية، في الجهة المقابلة من الشارع لمقهى «أبوستولي». ففي حين كان عمّالٌ يلحمون مفاصلَ السياج الحديدي المحيط بالقبة، تحت أقنعة تقيْهم وهجَ الشَّرر المتطاير من نار الأوكسجين، بدا واحدٌ، أسفلَ القبَّة الضخمة، مُنكبّاً على صَقْلِ لوحٍ حجري جرى تثبيته وقوفاً، وإلى جانبه عمود خشبي رفيع من الأسفلِ، ثخينٌ عريض في قمته التي يجثم عليها طائر مقرون بسلسلة من الحديد في عنقه، والسلسلةُ معقودةٌ إلى حلقةٍ بارزةٍ من جانبٍ في اللوح الحجريِّ ذاته.

لم يكن يظلِّلهما شيء، بالرغم من أن مترين، على الأرجح، شمالاً، كانا كافيين ليصيرا إلى ظلِّ القبَّة. وكانا، كلما جئت إلى المقهى قبيل الظهر، وجدتهما هناك، على حالهما: الطائر الغريب، الكبير

كالديك الرومي، ذو الوجه المستدير مثل البوم، وهو يلقي نظراتٍ باردة من عينيه الآدميتين على العامل. والعامل يلقي إليَّ، بين وقت وآخر، نظراتٍ جانبية من عينيه الغائرتين في قناع وجهه الشبيه بكُرَةٍ من الشمع، ثم يعود فينهمك في صقل اللوح بحجر زجاجيٍّ له صريرٌ يعبرُ إسفلت الشارع ليستقرَّ في خشب الطاولة التي أجلس إليها. لكنَّ الأكثر إثارةً، بالنسبة إليَّ، كان الاهتمام الكبير، الذي يبديه المشرف على بناء العمارة الدائرية، بعمل الرجل ذي الوجه الشمعيّ، فيتردَّد إليه، كل نصف ساعة أو أقل، حاملاً ذلك الدفتر الضخم الذي أعطاه «الطبيب» المشمول بريبتي الصَّارخة في أمره. غير أنني كنت أحاول التخفيف من غلواء شكوكي، فأزيِّنُ لنفسي أن المشرفيْنَ على أمور العمارات، أمتحفاً كانَ أم قبَّة مُصَمَّتَةً لا نوافذ فيها، أمْ برجاً من أبراج السواحل، هم على اتفاقٍ في تبادل المعرفة وتدويناتها المخطوطة في الأوراق الصلبة. وبالرغم من جواز ذلك، فلم أزل مستهجناً سرعة زيارة «الطبيب» للمشرف على بناء القبَّة الدائرية، وتسليمه الدَّفتر ذاتَه الذي وجدتُ الأخيرَ يقارن بين شيء لم أتبيَّنْهُ فيه، وبين عمل الرجل المنكبِّ على صَقْلِ اللوح الحجريّ.

لوحٌ صقيل. هكذا أراه من مكاني على رصيف المقهى، فما الذي يعيدُ المشرفَ، ذا الشعر الرماديّ، كلَّ دقائق معدودة، إلى التفحُّص فيه، بمقارنة سطحه بما في صفحة دفتره الكبير؟ وإذ بلغ بي الفضول مبلغاً لا يُرَدُّ، قررت تلفيق أيِّ عُذر كيما اقترب من العامل الغريب ذاك، في إحدى اللحظات التي يكون المشرف على البناء واقفاً يتفحَّص اللوح. وكان ذلك هيِّناً بالطبع، فما أن اكتملَ وجودُ الرجل ذي الشَّعر الرمادي إلى جوار العامل حتى قطعتُ الشارعَ في أربع خطوات واسعة، مجتازاً سياج شجر الزيتون المتباعد، لأصير إلى الخلاء الرمليّ ـ الذي حرثته الآلات المتحرّكة الضخمة بعجلاتها ـ في مواجهة الرجلين تماماً، اللذيْنِ التفتا إليَّ بأعيُنٍ مندهشة قليلاً، لكنها ملتمعةٌ بتحذيرٍ صارخ.

لم تُثْنِني نظراتهما الصَّادَّةُ، بل تقدَّمتُ متصنِّعاً غباءً كالقناع، قبل

أن تجفل أعضائي كلها، ويتقلّص جلْدُ جبيني من تلك الصرخة التي أطلقها الطائر، وهو يهبُّ مرفرفاً بجناحيه الغشائيَّيْن في طيرانٍ ملجوم، تكاد تنخلع منه السلسلةُ الحديدُ، ويرتجُ اللوحُ الحجريُّ.

صُعِقْتُ. كانت صرخة الطائر تتحوَّل إلى عويلٍ موجع. عيناه الآدميتان عليَّ، ومنقاره الضخم المعقوف يمزّقُ الهواءَ كما فريسةٍ، فتراجعت دون أن أرفع بصري عنه. ولمّا صرتُ خارج سياج شجرات الزيتون هدأ الطائر، فاستقرَّ، ثانيةً، على قمة العمود الخشبي، وهو يرمقني من هناك حتى بعد أن جلستُ إلى طاولتي على رصيف المقهى.

شعور خافتٌ من القلق، لكنه دائم، جعلني، منذ ذلك اليوم، أخصُّ الطائر بتأمُّلٍ يستغرقُ ساعات جلوسي في المقهى. وكان الطائر نَفْسُه يخصُّني، أيضاً، بتحديقٍ يوميٍّ من عينيه الآدميتين، من فوق رأس العامل ذي الوجه الشمعي، الذي لا ينفكُّ يلتفت إليَّ التفاتاتهِ الباردة وسط القيظ ذي المخالب الإسفلتيَّة. لكنني لم أغفل كلِّياً عن اللوح، الذي بدأت تتسلَّلَ إلى صفحته المستوية شظايا من نتوءات كحروف متباعدة. ومن ثم صارت الفواصل بين النتوءات تضيق، فتتَّخذ أشكالاً ملتحمةً، نافرةً، تحت ازميل الحجر الزجاجي في يدي العامل. ومنذ بروز أوّلِ شَكْلٍ عمدَ الطائرُ إلى إلقاء ظلِّ جناحيه على اللوح، فما وجدتُهُ ـ كلَّما حضرتُ إلى المقهى، وانصرفت عنه ـ إلاّ على حاله تلك، فارداً ذَيْنِك الجناحين الغشائيَّيْن، اللذين لا ريش عليهما، وقد أضحيا شفيفين قليلاً في انبساطهما تحت ضياء الظهيرة كمظلّة من جِلْدِ اليَحْمُوز.

لم أعمد إلى الاقتراب، ثانية، من الساحة التي تنتصبُ فيها القبّة الضخمة: لقد اكتفيت، من مكاني على رصيف المقهى، أن أشهدَ انتهاءَ **العامل من مهمَّته، بعد امتلاء اللوح بحروف نافرةٍ، مهيبةٍ ومتداخلة.** وكان ذلك قبل أسبوع واحد، ينقص يوماً أو يزيد، من وصول «جانو» إلى مقهى «أبوستولي» بنبأ انهيار المتحف.

أذكر أن العامل، حين انتهى من آخر لمسةٍ بحجر الزجاج على

سطح اللوح، تراجع قليلاً وهو يرمي الحجر البلّلوري جانباً. أطرق لبرهة، ثم التفتَ إلى شجرة الخروب الباسقة، غرباً، وظهره إليَّ، فأمعنَ في التحديق، مما حدا بي إلى التطلع صوبها.

كانت الشجرة الشعثاء هادئة، من قمة أغصانها حتى جذعها الثقيل ذي اللحاءِ المتشقّق كيما تتنفَّسَ أسرارُها. ظلُّها كان هادئاً أيضاً، وقد تتبَّعتُ امتدادَهُ من أسفل الجذع حتى آخره الذي يكاد يلامس طرف اللوح الحجري، حيث يقف العامل.

ما من شيء غير عاديّ يستدعي ذلك التحديق الطويل من العامل ذي الوجهِ الشمعِ. لكنني تنبَّهتُ، فجاءةً، إلى ما فاتني: إنه اتجاه الظلّ، تحديداً.

كان الوقت ظهراً، أي في الساعة التي تختزل الظلالُ أنفُسها إلى ثيابٍ ملمومةٍ تحت أقدام الأشكال. فكيف تهيَّأ لظلّ شجرة الخرّوب أن يمتدَّ من الغرب إلى الشرق، على مدى ستين ذراعاً؟ ناديت «أپوستولي» أريد شاهداً على ما أرى، فجاءني الرجل من مطبخه في إهمال. سألني باليونانية: «ماذا؟»، فأمسكت به من كتفه، وأنا أشير بإصبعي إشارةً مديدةً، من أسفل جذع الشجرة، مروراً بالشارع، وانتهاء بآخر مسقط للظلّ على الساحة التي تنهض فيها القبة الدائرية. لم يفهم الرجل. حدَّق فيَّ مبتسماً وتمتم: «ماذا؟». حاولت البحث عن كلمة «ظِلّ» باليونانية فما أسعفتني ذاكرتي. ظلَّلتُ الطاولةَ بيدي مرفوعةً فوقها كجناح، وأشرتُ بالأخرى إلى الشكل الذي ارتسمَ: «هذا.. هذا..»، قلت باليونانية.

ظلّ «اپوستولي» جامداً وهو يتطلع إلى ظلّ يدي. ثم ابتسم ابتسامتَهُ المستغربةَ: «ماذا؟» قالها، فنبض صدغاي نبضاً عنيفاً.

«الظلّ» قلتُ بالروسية أولاً، وبالانكليزية ثانياً، وبالعربية ثالثاً، فلم يبدُ عليه أنه فهم شيئاً. هرولت، عبر الشارع، حتى وطأتُ بقدمي ظلَّ شجرة الخروب، صارخاً: «هذا. أترى هذا؟» بكلماتٍ يونانية لا شك

فيها، فتسمَّر قليلاً، ثم ابتسم، ثم رفع كتفيه صائحاً: «ماذا؟»، وعاد أدراجه إلى رحم المقهى.

لا شك أنني كنت أبدو، لأيِّ عابر، كمن ضيَّع قطعة من النقود، وأنا أتبع امتدادَ الظلِّ من الغرب إلى الشرق، حيث استقرتْ عيناي على الوجه الشمعي محدِّقاً في شكليَ التائه. أصابتني رعدة، واهتزَّ وريدي، قبل أن يعود بوجهه إلى اللوح متأمِّلاً لبرهةٍ. نظرَ إلى الطائر المقرون في سلسلة الحديد، ثم ابتعد على مهلٍ، ليغيب فيما وراء القبة، قبل أن يظهر المشرفُ على البناء، ذو الشَّعر الرمادي، قادماً بدفتره الضخم.

عاينَ الرجلُ اللوحَ الحجريَّ، وقارن بينه وبين ظلام دفتره الصقيل، قبل أن يعمد إلى استخراج آلة من جيب سترته الصيفية الطويلة، ويضعها على الحروف النافرة، واحداً واحداً: لقد كانت آلة قياس النَّبْضِ الإنساني، مثل تلك التي يستخدمها «الطبيب» المشرفُ على إدارة مساكن المهندسين.

على أية حال، لم أستطع، قط، فكَّ لُغز الحروف النافرة تلك، المعقوفة المتداخلة، من موقعي أمام المقهى. ولم اتجرَّأ على الاقتراب، ثانية، أكثر من حدِّ الشارعِ، لأن الطائر بقي في علياء العمود الخشبي، فارداً جناحيه كمظلة، محدِّقاً فيَّ. أما العامل فقد اختفى.

أنا والطائر، وجهاً لوجه لكنْ من مسافة أمتار تزيد على الأربعين. يتشمَّم أعماقي بمنخريه، وأتشمَّم أعماقَه. له جناحاه المُحْكَمان بالعروق القويَّة النافرة من غشائيهما، ولي خيالي المُحْكَم في ترتيب الظواهر على مقاسٍ أزليٍّ: كلانا يتهيّأ لأمرٍ ما، لا أتمكَّن من توضيحه لنفسي.

في مساكن المهندسين، أيضاً، كنتُ على موعد مع أمرٍ مقرونٍ باختلاط مناسكِ الأبراج. ففي حين كنت أقضي فترةَ ما قبل الظهر في لعبِ شطرنجٍ غامض مع الطائرِ، كنتُ أرصدُ، في فترات ما بعد العصر، وأوائل المساء، مسكنَ «الطبيب»، علَّني أقع على قَبَسٍ، ولو معتمٍ، من الحقيقة الطائشة، أعني أن يكون «ميلان» في هذا المُجَمَّعِ السَّكنيِّ.

أنا، كإنسان يتَّصف بنسيجٍ من المنطق لا يربو على تسع خلايا من كيانه اللامحدود، كنتُ أُسلِم مفاتيحَ يقيني إلى عبث الشَّكُ: لو كان «ميلان» هنا لظهرَ وبانَ. الغريبُ يستأنس بالغريبِ، فكيف بمن استنشقوا، معاً، روائحَ فُطر الحجر الأخضر في زقاق روستينوف المسدود شرقاً؟ أَخَيلَتُنا من ثلوج موسكو التي لا تذوب تحت شمس هذا المكان القوية، لأنها ثلوج الحيلة البيضاء في أخراش يقيننا، حيث نتصيَّد سناجبَ الفردوس بالكلمات لا بالفخاخ، ونستعين بخلود الإنسان على الألم.

لا. لو كان «ميلان» هنا لنثرَ كنوزَه الرقيقةَ من شَعْر عانات النساء على رمل الساحة، حتى ينجرفَ الكونُ إلى أرخبيلٍ من المنيّ، وتتفتَّح الأفلاكُ كفروجٍ في المهبِّ العظيم لإرث الأزل. لكنني لستُ أعمى: رأيت «ميلان»؛ رأيتُ يأسَهُ الذي لا تخطئه عينانِ كعينيَّ لهما فِرَاسةُ الأسى الرقيق جَدّاً عن جدٍّ.

«ميلان» هنا. قلتُ ذلك لنفسي، ذات مساء، بعد حصادٍ عاصفٍ من رُؤى إغريقية يتَّصف بها الهاربون من الذُّباب، وجلستُ على دَرَج مسكني المشرف على الحديقة الصغيرة، تحت بصر «جانو» الذي كان يتطلع إليَّ من شرفة مسكنه الواطئة، وقد هيّأ لكلينا، كعادته، بعض الخضار المُتَبّلةِ، من أجل سَمَرِنا الليليِّ الخافتِ كشرود قلبيْنا.

حاول الظلامُ، جاهداً، أن يبدِّد طَلْعَ الشفق الخالد عن قمم الشجرات بنفخٍ قويٍّ من فمه، فلم يستطع. حتى الليلُ يبقى مُضاءً بالبطش الذي يتَّصفُ به منطِقُ النهار الطويل في جزيرة النحاس. ومصابيحُ الساحة، التي تتَّقِدُ كتفاحات من سفوح هكّار، في وقتٍ مبكر من المغيب، تتواطأ، بدورها، مع الضياء اللجوج، فتجعل بين مسكني ومسكن «جانو» قوساً يربط الشرفتين، فما تغيب حركةٌ من حركاته عنّي إذا كان جالساً هناك، ولا تغيب حركةٌ من حركاتي عنه إذا كنتُ جالساً هنا. لذلك كان «جانو» يتأمَّلني في جلوسي الثقيل على دَرَج مسكني، ولم يُبْدِ إشارةً يدعوني بها إلى طاولته المنتظِرة، برغم فوات الموعد

الذي التحقُ فيه بخُضاره، وملح زيتونه، وخيالاتِهِ المتدحرجة وراء نمورها الشَّرهة.

كنتُ مُزمعاً أن أضع حدّاً لتهيُّؤاتي الدافئة كلحم حيٍّ. وكأنما «جانو» نفسه، كان يحرِّضني على نحوِ خفيٍّ، متغاضياً عن عدم انضمامي إليه، وهو يكتفي بنظراتِهِ ـ نظراتِ الوَشَقِ التي تطنُّ من حولي كَنَخلٍ مُلْهَمٍ في حديقة المساء.

لم أتمالك نَفْسي في جلستي المنهوبة، تلكَ، طويلاً: تقدّمت حافي القدمين صوب مسكن «الطبيب»، وأنا أجرف بأصابعي رمل الساحة، في إصرارٍ كاللَّهو. خيالي مديدٌ ومتداخل في المرآة المتقابلة بجزئين مكسورين تحت صراخ المصابيح العالية. الشجرُ الأشعث متهدِّلٌ في منابته السماوية، كأنما عُلِّقَ من قِمَمه بخُطَّافاتٍ من الحديد مثل ذبائح الجزَّارين.

أيقونةٌ من رماد كانت الساحة، برغم الألوان الخجولة لأزاهير الحديقة الكبيرة وسط حَلَقةِ المساكن. خطواتي سطورُ كلام. باب مسكن «الطبيب» على مرمى أنفاسي. أنا في الباب. قلبي ينبضُ في خشبِهِ المزيَّنِ بأحافيرَ. يدي على الخشب النابض. نسيتُ زرَّ الجرس الكهربيِّ، فقرعْتُهُ بسلاميّاتي قَرْعاً جافّاً.

لم أنتظر ان يفتح أحدٌ الباب. تراجعتُ خطوة إلى الوراء ثم اقتحمتُه بكتفي، فصرتُ إلى داخل المسكن وأنا أترنَّح من الصَّدمةِ، ومن مشاعري الغامضة التي جعلتني متهوراً تلك اللحظة، وعنيداً.

انفلتَ المكانُ من عقالِ سكونِه إثْرَ دخولي الفظِّ. تعالتْ صرخاتٌ أشبه بالعويل المُنْذِرِ، المتهدِّد، فيما زاغتْ عيناي وهما تتفرَّسان، تلقائياً، في المشهد الداخليِّ للمسكن: لا أثاث هنا. بهو واسع ذو زوايا لا تنتهي. أعمدة من الخشب في كل زاوية، تبدأ رفيعة من قواعدها ثم تغدو عريضة كالمنصات في قِمَمِها، وعلى كل عمود طيرٌ، كالذي رأيته في ساحة المبنى الدائري الذي يواجه مقهى «أبوستولي»، مقرونٌ في

سلسلة من الحديد تتَّصل بلوح ذي زخارف وخطوط حجريةٍ نافرة، تحت ثريات من الزجاج المُضاء إضاءةً غير مُبْهرةٍ، لكنها كالتماعِ نحاسٍ صقيل، ذهبيٌ مشوبٍ بحُمرةٍ تبِيْنُ ولا تبِيْن.

لم تَغْرُني هيبةٌ كالتي صعقتني يوم صرخَ الطائرُ في ساحُة المبنى الدائري، الأعمى، غيرِ المُكْتمِلِ. وَجَمْتُ قليلاً، ثم خطوتُ في اتجاه أعماق المسكن الغريبة، تحت موجٍ من الهواء الذي تلاطَم بفعل الرفيف القويِّ لأجنحة الطيور، التي تستعرضُ بطشَها، لا طيرانَها.

عيونُها الآدمية تقلِّبُ صفحات كبدي ذاته، في عبوري الجريء وسط الأعمدة، أما قلبي فباردٌ، يزداد صقيعه كلَّما تأمَّلْتُ الحروف النافرةَ من لوح حجريٍّ إلى لوحٍ حجريٍّ؛ إنها بلغاتٍ شتّى، وهي أسماءٌ لا أكثر. هذا ما اتَّضح لي حينَ استطعت قراءة بعضها الذي لا أجهلُ أبجديَّته.

تعرَّفتُ، دون أن أوغل كثيراً في شساعة البهو، إلى أسماء مهندسين أعرفهم عن بُعْد، مدوَّنةً بأبجديات بلدانهم على الألواح. وقد سمعتُ انخلاعاً، كانخلاعِ إطارٍ خشبيٍّ داخل صدري، حين وقعت عيناي على لوحٍ عليه حروف اسم «جانو»، وفرعٍ قصيرٍ من أسلافه، بحروف ليست كالحروف، لكنها مقروءة كالرسومِ المُلْغِزَة على الجير الأبيض في قرى هكَّار.

تراجعتُ، عارفاً أن كلَّ لوحٍ يحمل اسم مهندسٍ يقطن هذه المساكن ذات الساحة الدائرية. ولربَّما كان تفكيري في أن أجد اسمي على لوحٍ منها هو الذي عجَّل في تراجعي صوب الباب، الذي انتبهت أن واجهتَه الداخلية من نحاسٍ صقيل، برزت فيه صورةُ الغريب الذي قتلتُه، نافرةً، ومن حولها قرونُ غزالاتٍ مُتشعِّبةٌ كظلِّ شجرة الخرُّوب.



IV ـ توثيق الأهوال



تنفَّسَ «عمر حاجو» الصعداء، وطوى الورقة المُسَطَّرةَ، الكبيرة بأناةٍ، ثم وضعها على المسطبة الحجرية لصق الجدار الأماميِّ للمنزل، وأشعل لِفافةَ تبغٍ ثخينة، وهو يشمل ببصره الحزين سفوحَ جبل «طوروس» من الغرب إلى الشرق.

لقد فرغ، توّاً، من سدِّ آخر ثغرة في ورقته ببصمةِ باهم الإمام «عمر بالو» الزرقاء، الذي ارتأى أن يكون آخر من يمهُرُ عريضةَ سَمِيِّهِ «عمر حاجو» بتوقيعه: «اعذرني يا رجل»، كان يقول الإمامُ للرجل الشاحب الذي يأتيه سائلاً توقيعَهُ تحت السطور الأربعة، ويضيف: «ابْدَأْ بغيري. وضعي حَرَجٌ الآن، في انتظار إصدار تعيينٍ من دائرة الأوقاف كي أبقى إماماً لمسجد البلدة. اعذرني. أنت ترى... أَلَيْسَ...»، فيقبل «عمر حاجو» عذْرَ الإمام، واستمهالَهُ، منصرفاً إلى أعيان بلده «عين ديوار» التي تشبه، في جغرافيتها، آلة العُوْد.

شهور لا بأسَ على طولها، أو قِصَرِها، مرَّتْ على ورقة «عمر حاجو»، وهي تنتقل، محمولةً في جيب سُتْرَته، على بلدات الشمال السوريِّ كلِّها، حتى مشارف حلب. فيها أربعة سطور باللغة الكردية، موجَّهة - باحتجاج خجول، وأدب حزين - إلى رئيس من الشمال الأفريقي، أَسْهَمَ في شرخٍ يُنْسَمَع، كصَدْعٍ جبليٍّ، في قلب أخته «وَطْفَا»، وهي تصف مشهد دجاجاتها، وأرانبها الأحد عشر، وخروفيها الأسودين، وقد بعثرتهم قذيفتان عراقيتان على أرجاء الساحة.

وأختُه «وَطْفا» تقطن قرية تركية تقع في مواجهة بلدة «زاخو» العراقية، ومع ذلك لم تنجُ ساحةُ مسكنها من قذيفتين أخطأتا هاربيْنَ أكراداً من الهجوم الفاحش الذي شنَّه الجيش العراقي على كردستان، الملتهبة بثورة الملاَّ مصطفى البرزاني. وكان تدبير الأقدار كبيراً في تلك الواقعة الضخمة، إذ تشتَّتَتِ الجماعاتُ الكردية، وامَّحَتْ مدنٌ وبلداتٌ

وقرى، واستُبْدِلَتِ السهولُ بالأودية، والسماءُ بالحديد. ولمّا كانت قذائفُ المدفعية، التي تخطىء هواء كردستان العراق فتمزِّق هواءَ كردستان تركيا، تتضاعفُ، بشهوة النَّهب، فقد جمعت المرأةُ أولادَها الذكور السبعة، واتجهت بهم إلى أخيها في سورية، ريثما تنجلي العاصفةُ المحبوكةُ من صمتِ العالم عن المسرح الكرديِّ الواقف، في صلابةٍ، على أعمدةٍ من النار.

«دخلَ أحدُ الخروفين إلى المنزل بعد سماعنا صرخةَ الشيطان، يا عمر. كان صامتاً، لكنه يبكي. أنا أعرف كيف يبكي الخروف يا أخي. أحشاؤه تزحف على الأرض، خارجةً من خاصرته»، ذلك ما قالته «وَطْفا» في اليوم الأول لوصولها منهكةً إلى بلدة «عين ديوار»، فيما بقي زوجها في تركيا، قريباً من بيته. ففي الكوارث تكثرُ اللصوصُ أيضاً كَثْرةَ القلوب المكسورة. وكان «عمر» يهدِّىء نشيجَ أخته، بخاصَّةٍ حين تصل في سَرْدِ الأهوال إلى مشهد الدجاجات اللواتي لم تُحصِهُنَّ قط: «إذا تسلَّقن سفحَ جبلٍ غطَّيْنَه»، هكذا تصف سربَ طيورها التي لا تطير. وقد تضيفُ مبالغاتٍ أخرى، طريفةً: «لو غرقتْ دجاجاتي في نهر دجلة لاستطاعت قافلةٌ أن تعبر الماءَ على ريشهنَّ». فإذا أبدى «عمر» استغرابه من مقدرة قذيفتين، فقط، على إبادة مَجَرَّةٍ من الدجاجات، وَلْوَلَت المرأةُ في اختناق: «لم يرفع إنسانٌ صوتَهُ عليهن. صوتُ الشيطان هو الذي صَعَق قلوبَهنَّ المدلَّلةَ»، في إشارة منها إلى دويِّ القذيفتين.

على أية حال، لم تكن لوعة أخته هي التي أَمْلَتْ عليه أن يدوِّن سطورَ احتجاجٍ مهذَّبٍ أربعةً ليجمع تحتها تواقيع وجهاء، وعابرين، في أرض مشمولةٍ بمنع اسم الملا مصطفى البرزاني من العبور في خيالات الأكراد الصامتين. لكنّه دفَنَ فراغَ الورقة الأبيض تحت علاماتٍ متفجِّرةٍ كجُحْر النمل، بعضها حروف ملتوية دون إتقانٍ، وبعضها بصماتُ أنامل. وها هو يطويها ليبدأ مسيرةَ خياله إلى الشمال الأفريقيِّ، الذي قَدرَ رئيسٌ هناك أن يطهو حِلْفاً، بتوابل الجفاف وفُطْرِه المُسَكِّنِ، بين ملكِ ملوكِ فارس البهلويّ وبين نظام العراق، ويسلِّم الأولَ ملعقةَ

الإشراف على شرق ما بعد النهرين، والثاني ملعقةَ العشاء الكرديّ. وهي ملاعق يحتفظ بها الجبابرةُ في جيوب ستراتهم خوفَ الأكل بملاعق الآخرين المسمومة.

كان يُثْقِل على «عمر»، في مساربِ الأخبارِ القويةِ عن الخديعة الافريقية، أن يكون مع ذلك الرئيس إلى جانبِ واحدٍ من الله: «نحن مسلمون مثلك، يا مولاي». هذا ما دوَّنه في فقرةٍ من سطوره الأربعة. وأوردَ كلمةَ «مولاي» حفاظاً على رِفعةٍ لا ينبغي أن يتطاول عليها حتى المتخاصمون.

«ألا همومَ لديه، هناك، ينصرف إليها هذا العربيُّ الذي يجلس على بوَّابة المغيب؟»، كان «عمر» يسألُ الآخرين، في غمرة ذهولهم الصامت، حيث يتداعى إلى أسماعهم سقوطُ حصون الأكراد الصغيرة في الجبال، وفي الأودية، وفي السهول، وفي الأعماق الحصينة بآلاف من آية الكرسي ذات النجدة. «والله. . .» يقسمُ الرجلُ: «لم يعذِّبني أمرٌ أكثر مرارةً من أن نُرمى بحَجَرٍ من شمال افريقية أيضاً!»، ويُدمدمُ: «سأذهب إلى هذا الرئيس. السفن تصل إلى بلاده من شواطىء سورية، كما سمعتُ».

عليه أن يرتِّبَ، الآن، أقدار سفره الذي وافقتْهُ عليه أختاه «بَهُوْ» و«سِيْرُوْكَيْ»، فيما تحفَّظت عنه زوجه «شِيْرِيْنْ»، في صمتٍ، متهيِّبةً من الغرق في الرمال المجاورة لقلاع المغيب الأفريقي، ذي الغيومِ المصفَّقة كآذان الأفيال. وهي هيبةٌ أخذت بجماع أحشاء «عمر» نفسه، برغم مكابراته الواهنة، فبات يكثر من الأسئلة عن تلك الجغرافيا المقذوفة إلى حُجْرِ الشمس ومراوح الرمال، التي تنبسط، وتنقبض، وتموج عشرين مرَّةً في اليوم الواحد، في مرآةٍ اسْمُها السَّرابُ عليها حَرَسٌ نبتوا كفُطْرٍ خفيٍّ من عَرَق الشيطان، يصقلونها بالمبارد الكبيرة لحلم النار.

غير أنه لم يحظَ بجوابٍ هيِّنٍ يجعلُ انسراحَ خياله هيِّناً في مجاهل بلاد المغيب، فأبناء أختيه، الذين يَسْتَفْتُون كُتبَهم المدرسية في علوم الجغرافيا يشدِّدون أمامه أن افريقيا ليست صحارى فحسب: فيها أنهار

كدجلة، وفاكهة لا تعرفها «عين ديوار»، ولقالِقُ، وجبالٌ ذات ضباب أخضر. ثم يضيع الشرحُ حين يرسمون على الورق كُراتٍ مشطورة طولاً وعرضاً بخطوط يحذِّرونَهُ من أنها وهميَّة، لكن لا منجى للفهم من اتخاذها مراصدَ لتعيين نباتاتِ العالم.

خطوط «وهمية»؟ أبناءُ أختيه يطلقون عليها تلك الصِّفةَ دون لبْسٍ، فلماذا لا يشكِّك في شروحهم؟. الآخرون، الذين لم توفِّر لهم الحياةُ جساراتٍ كتلك المدوَّنة في كُتُبٍ مدرسيَّة، يرجِّحون، بغرائز الريح التي في علومهم البسيطة، أن افريقيا ليست أرضاً، بل هي قَدَرٌ، سرِّيٌّ، اتَّخذَ لنَفْسِه هيئةً مموَّهة تشبه أرضاً، جَذَبَ إليها الممسوسين بأمل المتاهات، أولئك الذين يهذِّبُ المجهولُ قناعاتِهم فلا يسألون عن الجهات أبداً. ويعنُّ لـ «عمر» أن يبدي استغراباً في مقام هذا التفسير:

- أَهُمْ أناسٌ ضائعون؟

فيردُّ البسطاء المثقلون بغرائز الريح: «لا. هُم مجبولون على النسيان».

مكانٌ بلا جهاتٍ، إذاً. و«عمر» يتحيّر في الذي عليه أن يصطحبه من الثياب في رحلته. ثم يحسم أمره بقِسْمةٍ عادلة من معطفٍ ووشاحٍ للزمهرير، وثوبين رقيقين، وخفٍّ من نسيج القنَّب، وحذاء ذي عنق من الجلد المبطَّن بالصوف. هكذا يكون قد أوصد الباب على الفجاءات، وخفَّف على نفسه من الأحمال إلى بلاد المغيب، مصطحباً، بالطبع، في محفظته المتدلية من تحت ابطه الشمال، من النقود ما لا يحوجه إلى مساءلة أحد. واستقلَّ، فجر يومٍ من نيسان الرقيق، سيارة «بيك آب» تنقل ماشيةً إلى مدينة القامشلي، ومنها إلى مدينة حلب في باصٍ ثقيل، ومن حلب إلى اللاذقية، ومن اللاذقية إلى قلاعِ البحر المنعكسة بأبراجها الزرقاء على صفحات الغيم المهرولِ شمالاً.

أختا «عمر حاجو» العجولتان النحيلتان، «بَهُوْ» و«سِيْرُوْكي»، واصلتا مهمَّة أخرى لإنقاذ ما لن يسجِّل أحدٌ أنّه أُنقِذَ، قطُّ: لقد تواطأتْ

دولٌ على روح البرزاني، التي ستشهد عروجاً مُمَزَّقاً في حدائق الهندسة الكبرى، ذات الهذيان المعدنيّ خلف البحار، حيث شبح الحرية الأمريكي يدرِّب قارّاتِ العالم أن تقف، كأفيال السيرك، على قدم واحدة. ولربما لن تستطيع روحُه عبورَ تلك الشُّباك الزجاجية لناطحات السحاب، فترتدّ إلى السهول، الممهورة بختم شريكٍ هنديٍّ أحمر لم يلتقِهِ من قبل، لكنَّه آخاه بصلةِ الأمل في أن يصَّيرا ريحاً.

«بهو» و«سيروكي» لن تكتشفا إلاّ متأخرتين، لجوءَ المُلاَّ البرزاني إلى أمريكا، لذلك أخذتا الوقتَ على سِعتِهِ، وهما تجمعان التموين لقوات المحارب الكرديِّ، حفنةً حفنةً من البرغل، والحنطة، والزيت، والعدس، والشَّحم المملَّح، ودبسِ الخرّوب، ولم تنسيا أن تجمعا من ريش القطا ما يكفي حشوَ مخدَّةٍ من الكتان الناصع البياض، كي تُزفِقاها بالمتاع هديةً من خاطرَيْهما الدافئين إلى الرَّجل الذي يبتسم قليلاً، وقد طرَّزتا القماشَ، من زاويتين، بحرفي «ميم» و«باء»، بخيطٍ أصفرَ ذهبيٍّ.

لم تأبها قطُّ بالطريقة التي سيصل بها ما تجمعان من تموين مضحكٍ إلى أكراد العاصفة النارية. وذلك شأن لم يناقشهما الكثيرون فيه، حتى لا يُحْسبوا متواطئين في عملٍ قد يجلب الويلَ عليهم فيما لو تبرَّع موتورٌ ما بنقل الخبر إلى حَرَس الدولة. لكنهم، بدافع من خجل الإحجام عن مشاركةٍ دنيا، وهبوا الأختين ما يقدرون على اعتباره رزقاً لا يضيرهم إذا ضاع. والمؤونة تلك لم تضع، بالطبع، بل رقدتْ، فيما بعد، في غرفةٍ أُغلقَ بابها بالطين، ريثما يخرج المختبئون في كهوف الجبال العالية، بحيلةٍ من الله، ويفتحوا الممرَّات المغلقة بحديدِ الجحيم إلى كردستان.

لا أدري كم من السنين ستمرُّ والأختان ـ اللتان لم يرجع أخوهما «عمر» من رحلته إلى الشمال الافريقي أربع سنين ـ مطمئنتان إلى تموينهما المُدَّخر: لقد رأتا، ذات مساء شاحب، السيِّدَ الخُضْرَ، ذا الهيئات التي لا تُحصى، وشفيعَ المكرماتِ الإلهية، يجرُّ مدفعاً صغيراً على حَدَبة السهل الشرقي. هكذا روتا الحادثةَ بجلالٍ فائق. وعلامةُ

تعرُّفهما إليه أنه رفع يدَهُ المضيئةَ مشيراً بها إلى جهات كردستان. ثم مسحَ بسبابته عَرَقاً عن جبينه ونثره قوسيّاً من حوله كَمَنْ يبارك المساءَ نَفْسَه.

«من يكون إلاّ الخُضرَ؟» سَأَلتا وهما ترويان الخبر. «ظلَّ الترابُ بليلاً خمسةَ أيام، حيث سقط عَرَقُهُ»، أضافتا في يقينٍ لا يعوزه البرهان. غير أن «سيروكي» تخلَّتْ لي عن محفظة كبيرة من جلد جاموس النهر، كانت مزمعةً أن ترسل فيه مصحفاً إلى الملاّ البرزاني، فأودعتُ فيه كتابَ «التأسيس الكبير»، المُعلَّق إلى حائط في منزلنا. وكانت ارتأتْ أن تَهَبنيها مقابل حَمْلِ حوائجَ خفيفةٍ فيها إلى موسكو، أمانةً في عنقي وعنق آبائي الأقربين والأبعدين: «لن تخسر شيئاً»، قالت المرأة ذات العينين المغرورقتين. «لقد عاش المُلاّ زمناً في بلاد الروس، ولربما أتته نجدة حتى من كافرٍ. ذَكِّرْهُمْ، فقط».

هكذا، رأتِ المرأةُ النحيلةُ أن أُذَكِّر أرضَ موسكو بعبور المُلاّ عليها، فحضَّرتْ كيساً صغيراً جداً، فيه نواةُ زيتون واحدةٌ زعمتْ أنها من سُبَّحة البرزاني نَفْسه، وغلافُ طلقةٍ فارغٌ هي التي صوَّبَها الرجلُ إلى سماء الجبال، قائلاً إن الصدى لن يتوقف قط في شعابها قبلَ أن ترقد روحُه مطمئنةً. ثم أرتني لِفافةَ تبغ اصفرَّ ورقُها ويبسَ، في خرقةٍ من القماش الموصليِّ الناعم: «هذه لِفافةُ تبغٍ عقدَتْها أناملُ المُلاّ، وقدَّمتها لزوجي علي، فاحتفظَ بها ثماني سنين».

استقرَّ ذلك المتاعُ الخفيف في المحفظة، يومَ أعطتْنِيها، دون أن أسألها ماذا يتوجَّب عليَّ كي أذَكِّر أرض موسكو بالخطواتِ الشقيَّة لمُلاًّ فتحت له عشائرهُ الكبيرةُ أبوابَ الغيم على حلم لا وزنَ كبيراً لجيرانِهِ الأرضيِّينَ فيه، أولئك المفطومين على مقايضاتٍ فوق مناكب الكُرْد أكثر صخباً من دجاجات «وَطْفَا»؛ قبل نكبتِهِنَّ، ومن دجاجات جيران «وَطْفَا»؛ ومن عويل بنات آوى في أواسط آسيا حتى خليج الفُرس؛ ومن البروق المغسولة برعودٍ حُرَّةٍ جابت السماءَ بين هكّار، وجبال الأكراد، وطوروس، وأرارات، سبعين عاماً. وكأنّما أدركت المرأةُ مجاملتي

الكريمة، سألتني بعينين متفرِّستين: «ماذا تظنُّ أنك فاعلٌ بهذا المتاع؟»، فتلكَّأتُ، ثم تلعثمتُ في إجابتي المبتورة: «تعرفين.. أعني أن هذا المتاعَ... معي..»، فقاطعتني: «أحرقِ التبغَ ونواةَ الزيتون في ورقةٍ، في أيّما مكان من موسكو، وضَعِ الرماد والنواةَ المحترقةَ في غلافِ الطلقةِ الفارغِ، ثم ازمِ الغلافَ في نهرٍ..»، واستفسرتْ دون انتظار جوابٍ: «ألديهم نهرٌ، هناك؟ لا يُصَدَّقُ أن لا يكونَ لديهم نهرٌ، فيما يهطل الثلج عندهم طوال العام. من يدري..» ورفعت كتفيها في غلالة من الحزن: «قد يتذكَّرون حين يشربون من النهر».

لم يتذكَّر أحدٌ من بلاد ألكسندر نيفسكي شخصَ المُلاّ، كما كاد أهل «عين ديوار» أن ينسوا «عمر حاجو» بعد أربع سنين من اختفاء أخباره، برغم تلفيقات كثيرة عن اختطافه إلى مجاهل الغابات، واشتغاله على رعي التماسيح، لولا أن ظهرَ الرجلُ في مدينة القامشلي تائه اللُّبِّ، أَخْرَقَ الكلمات، ذاهلَ العينين، كثَّ اللحية، ضامرَ الصدر، مقعَّرَ الخدَّين؛ جِلْدَاً على ثيابٍ، أو ثياباً على جِلْدٍ؛ حملتْهُ مركبة لنقل الماشية العجماء إلى بلدته، بأمرٍ من دَرَكِ المخفر هناك، بعدما عثروا على وشم على ساعده: «بسم الله. عين ديوار». لكن كيف وصل إلى القامشلي، وهل اجتاز البحر إلى افريقيا، أم قُبِضَ عليه بسبب العريضة الفاضحة التي حملها إلى رئيسٍ لن يقرأها قط، فرُميَ في الأغلال؟.. كل ذلك يبقى ضرباً من التخمين لا هدايةَ فيه إلى شيء: «عمر حاجو» كتمَ السِّرَّ وعلَّقهُ، كعين زرقاء، إلى ذهوله الأخرس.

نسيتُ أن أسأل عنه، إلاّ مرة أو مرتين، بعدما انغلَقَ عليَّ السِّحرُ الأبيضُ في كُرَةِ موسكو البللورية الهائلة، وتصيَّدتني الأقواسُ وعلومُها من الجهات كلِّها، حتى لم يبقَ فيَّ طائرٌ يُحْتَمَل أن يَشْردَ في سماء أُخرى: لقد تملَّكْتُ أن أَغيبَ، واستُجْمِعْتُ كي أنأى. لكن «ميلان» كان يعيدُ المكانَ إلينا إذا شرَدَ المكان. ومُذ أنجزَ قصيدتَهُ المُحطَّمَةَ «الخندق الطائر»، في تسعمائة بيت من شعرٍ كرديٍّ بأوزان عربية، جَعَلني ضحيَّةَ سَرْدِها عليَّ، كلّ ليلة، قَدْرَ ما يستطيع قبل انزلاقه إلى خَدَر الڤودكا،

ليؤدي مقاطعَ بإشاراتٍ من يديه، وعينيه الغائبتين، وتمتماتٍ تتدحرج على مسرح يأسِه الصقيل.

كانت كلماتٌ كثيرة من كرديته الفصحى تضيع عليَّ، فيشرحها لي في كسلٍ يتقوّض معه المعنى أحياناً. لكنه لم يكن يأبه لذلك، ويلومني على جهلي بكتابة لغتي، أو قراءتها، برغم معرفته أن جيلي لم تتهيَّأ له أسباب الاطلاع على اللغة الكردية إلاّ شِفاهاً، بسبب جهل الأنظمة المتعاقبة أننا نباتٌ من صنف آخر: للخسِّ أصناف، وللبطيخ أصناف، وللبقدونس أصناف، وللملفوف أصناف؛ ذلك ما تقوله مناخاتُ الله. لا بأس. «ميلان» يريد تقريعي على ما لا ذنب لي فيه، وهو القادم؛ بنفسه، من مكانٍ ما من «الجزيرة السورية» التي لا تحدُّها مياه البحر.

لا أعرف دافعاً كبيراً يجعل «ميلان» ينحو إلى كتابة قصيدة بهذا المدى الموحش كعويلٍ عن «علي صُوْرُوْ»، أحد قادة جماعات المُلاّ المحاربة، الذي انكفأ بسبعمائة مقاتل إلى أرض السوفييت الشاسعة، بحسب ما ورد في القصيدة نفسها، والأهوال التي رافقت انكفاءه، والمفازات التي اجتازها، وتفاصيل أخرى لا تنتهي في سياق حكاية شعرية لا تنتهي. ف «ميلان» كان يسرف في انتقاد إقطاعية البرزاني، وعشائرية الريح التي تُسَيِّر شراعَ سُهُولِهِ، بمبالغاته المعهودة عن وجوبِ صَقْل البشرية بمبردٍ طبقيٍّ واحد، ولا بأس أن يتساقط في عملية الصَّقْل لحمٌ كثير، وأن تَنْحُلَ العظامُ، حتى ينجلي «النّسقُ الحتميُّ» للكون على باب الفردوس غير المطروق بَعْدُ بأنامل بشريَّةٍ.

لهذا، وحده، وجدت غريباً على شِعْره، المعهودِ له بوجاهةِ الأملِ المُتْقَنِ كالموت، أن ينعطف إلى انكسارٍ لم يفاجئني قَدْرَ ما أحزنني، ويتَّخذَ مُحارباً من سرايا المُلاّ البرزاني في رعايةِ إلهامِهِ الشَّقيِّ. وأنا لم ألحَّ عليه، خوفاً من افتضاح جهلي بمقادير كردستان، في استيضاح شخصية «علي صورو»: أهو محاربٌ أخطأ اسْمُهُ سمعي، أم اخْتَلَقَهُ «ميلان» من جَمْرَةٍ مُهْمَلة في موقد أعماقه لم يختلط وهجُها الكرديُّ بأممية النار الكبرى، الحصينة في تعاويذ الإنسان الجديد. لكن

المُشوِّق، حقاً، كان ذلك المسار الغريب الذي سلكه «علي صورو»، في القصيدة، من بحيرة أورمية في إيران، إلى شواطىء بحر قزوين في بلاد السوفييت، ليستقلَّ قطاراً مع رجاله إلى شڤردلوڤسك، ومن هناك يمضي الرجل ماشياً في المسالك الباردة، المحاذية لسفوح جبال الأورال، لينعطف، من ثمَّ، شرقاً إلى الأعماق الفراغية لغابات التايغا.

لن يعرف أحد كيف تسنَّى لـ «علي صورو» أن يخترق مراصد حدود السوفييت، التي تدقِّق في ريش الطيور العابرة مثل تدقيقها في جوازات سَفر الآدميين، وهويَّاتهم. لربَّما تغاضت بلاد النجمة الحمراء عن رجل يحمل في معنى اسمه رَهْبَةَ لونِ الدم: «صورو»، لكن أن تتركه، مع رجاله، حُرّاً هكذا في اختيار مسالك أشبه بالمتاهة، فذلك ضَربٌ من المجاز على الأرجح. بل الأكيد أن قصيدة «ميلان» هي أرضٌ سوفييتية مزعومة، و«علي صورو» أكثر حريَّةً من كلماتها في اختيار الشِّعاب إلى قَدَره.

«كَلْبُكَ النهارُ، علي صورو،

والليل ضيِّقٌ على سَهَرِك».

ذلك هو مطلع قصيدة «الخندق الطائر». وقد سألته، بحسب ما أذكر، إن كان يقصد بـ «الخندق» ما تعنيه الكلمة، أي أخدوداً محفوراً في الأرض، فأجابني ساخراً: «أتظنني أقصد بها بطَّةً؟» قلت: «أنا أستَفْهم فقط، لأنَّ تصوُّر خندقٍ من الترابِ والحجر والرمل طائراً أمرٌ عسير على الهضم». فردَّ من فجوة عباءةِ الصوفِ الضخمة، التي كلَّفتْ أُخْتَهُ سَلْخَ تسعة خراف: «ثورُ بابل يطير. الرُّخ يطير. المَرَدَةُ تطير. الطائرة تطير. حمارُ عَمّي عثمان كُزْكْ يطير، فلماذا يكون مشهدُ خندقٍ طائراً عسيراً على بنات بصيرتك، يا عزيزي؟»، وأضاف مسترسلاً في تفكُّهة: «إذا لم يكن لشعب أجدادك الطائريْنَ خندقٌ طائرٌ، يا عزيزي، فكيف يتسنى لجنس خالاتك وعمّاتك أن ينجو من الإنقراض في مثلث الرعب المشغول للكرديّ كإرثٍ بين طهران، وبغداد، وأنقره؟ ها؟»، وكرّر «ها؟» مستفسراً. «إذا اختلطتْ أمزجةُ السلاطين في مثلث الرّعب

هبَّتْ على الكرديّ، وإذا تفارقتْ وانفصلتْ تقاسَمَتْهُ»، قال بشفتين باردتين، وقد عَلَتْ عينيه كآبةٌ أُمميَّة.

ليكن ما يريد «ميلان» من خندقهِ الزاحفِ أو الطائر. أما «علي صورو»، ذو الملامح المنثورة كقمحٍ في أثلام الكلمات، فقد تعيَّن عليَّ أن أتبعه في جداول لغة الرجل الهزيل، الذي لا يتوانى عن ترديد لازمةٍ عالقةٍ بأشتاتِ فِكْرِه: «المكانُ شَبَحٌ». غير أن المكانَ الذي يرسمه لـ «علي صورو» ليس شبحاً، بل هو شَرْخٌ في الأبدية يَدُلُّه «ميلان» عليه كي يعمِّقَ بلاء روحه، وسط دعابات لها رائحةُ الخردل:

«سيرعى جوادُكَ حقلَ البطاطا التاسع في كورغان،

المحروثَ بستين حَرَّاثٍ آليٍّ، وببعض الشتائم

من فم الرفيق ميخائيل كوتسيف، الذي لا يعرفُك يا علي صورو».

ولا ينسى «ميلان» أن يذكر المقصَّ الصغير الذي يشذِّبُ به المحارب المُنتَهَبُ حوافَ شاربيه:

«مقصُّكَ يحملُ طِيْناً من حِناءِ يَدَي طُغْرُلْ بِكْ». وقد استغلَقَ عليَّ أن يجلب «ميلان» قائداً سلجوقياً إلى استعاراته، فاستخفَّ بالمَلَكاتِ الضئيلة التي نسترشدُ بها إلى الضوابط التصويرية في أبياته التسعمائة: «أعليَّ أن أشرح أن طُغرل بك كان يحمل على جِمَالِهِ المغولية مقصَّاتٍ لا تُحصى، في أغمادٍ من الجلد، ويكرِّر على الأسماع: «لكلِّ أرضٍ مقصٌّ يقطعُ حِجَابَها»؟. وماذا لو لم أشرح لكم ذلك؟»، فيردُّ أحدنا ممن يستندون بظهورهم إلى جدران مجلسه المختنق بدخان التبغ القويّ: «لا عليك. طُغرلُ بك، أمْ ملكة تَدْمر.. ما مِنْ فرقٍ. المهمُّ هو نوع الحنَّاء». وإذا بحثنا، فيما بعد، عن حقيقة رجل المقصَّات السلجوقيّ، لم نعثر على شيء يشبه رواية «ميلان»، التي تزعم، إضافة إلى جِمَالِهِ المغولية وأحمالها، أن طُغرلْ أمرَ بإقامة نُصب هائل لمقصٍّ في «شِعْبِ بوَّان»، بأرض الأعاجم، وزرع من حول ذلك المقص، على مدى مائتي

فرسخ، رؤوساً آدمية مجفَّفة في الملح على أهِلَّة من الحجر، لتبدوَ للناظر مثل حرف «ن»، من غير أن يفصح لأحد مغزى اختيار الحرف الخامس والعشرين، في مجرَّةِ الأبجدية الصُّغرى، لتتويجِ الهولِ مَشْهداً كالثدي.

«سفرٌ على فجر الجليد تحاذي قافلتَكَ علي صورو»: إنه بيت باردٌ من أبيات قصيدة «ميلان»، التي تدفع بِعَليٍّ إلى مجرّاتٍ وَبَرِيَّة كأوراق الصنوبر على سفح ما من أقاصي العالم. لا أعرف إن كان الرجلُ يمضي بأتباعه المحَاربين على زحافات تجرُّها سحالي جبل «قَافْ» اللامرئي، أمْ كلاب قبائل الساڤانا، أمْ وُعُول القوزاق؛ غير أنه يمضي في اتجاه «مرايا الجليد المُعتمة، ما بعدَ منابتِ الريح»، ملوِّحاً بإحدى يديه للقطارات البعيدة، التي تحمل الشمندر، والدُّخن الإستوائي، من جهات بحر آرال إلى «خيروف».

كاتدرائيات كثيرة اختلطت بالكلمات في قصيدة «ميلان». قياصرةٌ تجابهوا، مذعورين ومحمومينَ، في مساءلاته الكبرى عن «غدٍ كبير»، وجدْتُهُ ضيِّقاً، على أية حال، بالحشد الذي لا يُسمَّى من الفراديس، وبالصخب الغامر لأبواق الرعاة الجبليِّين.

ماذا يفعل القياصرة في الضباب الكثيف المحيط بقافلة «علي صورو»؟ ماذا يفعل الرعاةُ هناك؟ ماذا تفعل ظلالُ المحاريث «المُنضَّدَةُ في خيط واحد كالسُّبَّحةِ»؟ ماذا يفعل ضريح الرفيق لينين، ومشادَّات نساءِ التتار، من حول «علي صورو»؟ كدتُ، أحياناً، أن أصمّ أذنيَّ عوضاً عن الرجل التائه في قصيدة «ميلان»، حتى لا أسمع «الذئاب التي تجرُّ الثلوج إلى تومْسْك، أو السناجِب التي تدحرج أخبار أمّ علي صورو على ثلوج جبال تيمان». عبثٌ حزينٌ يموج في بيان الشاعر الذي لم يجرؤ، قط، أن يواجه التيهَ من قبل. لقد كان إيمانُه يوفِّر على الكلمات قَلَقَها ويُهدي إلى المعاني ما تشاءُ المعاني. وها هو، فجاءةً، يشرُدُ يقينُه مع «علي صورو»، الذي «يتهدّل شارباه المعقوفان إذ يتهدَّلُ الليلُ»، دون أن ينسى، بالطبع، طلبَ العون، بين أَسْطرٍ وأُخرى، من «الانتصار

الأكيد» للإنسان، كأنما يستحضر العرّافات بقُدُورهنّ الطينية، ويخوض سباقاً للضفادع فوق جليد البحيرات.

«معكَ بندقٌ، والشجرُ السكرانُ يُحصي الحرائقَ التي في غابات قلبك، أيها السَّخيُّ مثل تنّين». هكذا يسترسل الوصفُ، بألغازه، كأنّما قصيدة «ميلان» حساءٌ كونيٌّ يُقْسِرنا على تجرُّعِهِ ملعقةً ملعقةً، حتى البيتِ الذي ينتصفُها في المفترق بين الخمسين بعد الاربعمائة، ما دام تعدادُها تسعمائة بيتٍ بالضبط. وهناك، أيْ في بيتِ الشعر الذي في فاصلِ جُزْئِيْ القصيدة، كان يذوب «ميلان» قليلاً، في لهاثٍ ساخنٍ ينبعثُ من فمه ومن عينيه: «يراكَ الرعبُ، وحده، يا علي صورو. يراكَ القلب الذي من رُغبٍ». وكنتُ أتأمل أخاديد وجهه، في لحظاته تلك، مأخوذاً بانفراجاتها وانغلاقاتها أكثر من كلماته التي يتشدَّد في النطق بها، جالساً تحت النافذةِ المرفوعةِ الستارةَ، كي يندلق ليلُ موسكو على وجوهنا المفتوحة كالحدائق.

أَتعبني «علي صورو» وهو يشقُّ بمحراثِ قَدَره أقاليمَ السوفييت، فيما تتساقط أصابعُ كثيرة، يبَّسَها الجليدُ، من أقدام رجاله، الذين «هُمْ صباح التايغا»، في أحذيتهم فلا يشعرون بها. وكنتُ أَلجمُ أن أسأله لماذا لا تتساقط أصابع قدمي «عليّ» أيضاً، لأن في ذلك تطاولاً على الكمال الذي يريد «ميلان» إسباغه على الألم، بتصوير مُحارِبِه الشريد معافى جداً. لكنني لا أجد حَرَجاً في إبداء ملاحظات حول نوع الأحذية التي ينتعلُها المحاربون الهائمون في قصيدته، ومقادير الأغذية التي يصحبونَها معهم، وأنواعها بحسب طبيعة المسالك الباردة في الشمال، فيضحك «ميلان»، مؤكداً أنني أتخابث عليه: «لا عليكَ..» يقول لي: «فَلْنُرْسِلهم في قطارٍ مُدَفَّأ، تفوح منه روائح حساء الرَّنْكة الساخن، ومعهم كتب في الطريقة الصوفيَّةِ النقشبنديةِ لتعليم سكان سيبيريا أقصر الحِيَل إلى اصطياد الملائكة».

«علي صورو لا يتألم في قصيدتك» أقول لـ «ميلان». ثم أقطع عليه ردَّه الذي لم يبدأ: «أليس حريّاً به أن يتألم، وأنتَ تُوْرِدُهُ مسالِكَ

يتساقط فيها اللحمُ الآدميُّ كورق الصفصاف؟»، فيتمعَّن فيَّ: «العينان هما الألمُ يا رجل».

«العينان؟»، أسأله مبدياً بعض الشكِّ في عبارته، فيردُّ:

- أرأيت عينيْ علي صورو؟

أنّى لي أن أرى عَيْنَيْ «علي صورو»؟ لا أتصوَّرهما إلا مغلقتيْن في رياح الأورال الجليدية، أو يغطي جفونهما الثلج فتختبئان في مائهما المالح: «كيف لي أن أراهما؟»، أسأل «ميلان»، فيجيبني: «حدِّقْ في هذا البيت»، ويتمتم: «في عينيكَ شرودُ القوزاق».

«لا ألمَ، أيضاً» أقول مُعقِّباً، من غير أن أرى رابطاً، بحق، بين شرود القوزاق وألم «علي صورو»، فيهتف بي، بصوتٍ كسول، موفِّراً على نفسه جدالاً غير معنيٍّ به: «إنسَ قصيدتي، وتأمَّلْ عينيْ علي صورو».

سأحاول، طويلاً، أن أتأمَّل تلكما العينين، ريثما يعبر الرَّجل المحاربُ ظلامَ الغابات إلى سهولٍ ما. وسيطول انتظاري، لأنه يعمِّقُ الظلامَ ذاكَ في أشرعة التيه التي ينفخ فيها هُوْلَةٌ له جناحا زيزٍ أطول من دجلة، ولسانٌ كلسانِ الثور. ومع هذا كله كان يروق لي خروجُه السرّيُّ إلى النُّور في الكلمات:

«فلاّحون من جورجيا،

وعطّارون أخفوا المهنةَ عن أحفادهم،

يقدِّمون إليك وجبَةَ الحساء الأولى في سَهْل النُّوز».

ثمّت نورٌ، إذاً، في مكان مّا من «خندقِ» «ميلان» المُغَلَّف بِخِرَقٍ من السَّديم الطائر. وثمّت، أيضاً، على جنبات ذلك الخندق الأفعوانيِّ كبُرج الكلب الأكبر، حقولٌ مُنْتَدَبةٌ من الله كي تؤدِّي مهمَّتَها في الحريق الطّاهر للألم: «التوتُ يداكَ. أجاصُ مِيْنْسْكْ نَبْضُ صدغيك إذا جادَلَكَ الدَّمُ فيهما يا علي صورو»، تقول القصيدةُ المُغْلَقَةُ على سهوبها

البُركانية. وأنا سأصدِّق أنني أشمُّ رائحةَ التوتِ والاجاص في صوت «ميلان» ذي الشروخ الرقيقة كأخاديد خدَّيه، التي تهبُ وجهَهُ نَفْحَةً من الجاذبية إذا دقَّقَ المرءُ فيه. وهذا عائدٌ، بحسب مزاعم «جانو»، إلى أن «ميلان» كان يشبه أُمَّهُ في شبابه، ثم تحوَّلتْ ملامحُهُ، من ثمَّ، لتنطَبعَ على صورةِ أبيه. ولمَّا سألته بُرهاناً على ذلك الاستخلاص المزعوم لسيرةِ ملامحِ الشاعر، أكَّد أنه لا يحتاج إلى نظرٍ في صورة أُمِّه، أو أبيه: «الأمر بسيط يا رجل. لكلِّ رجلٍ ملامح أُمّه إذا نعسَ، لكنه في يقظته يستعير ملامحَ أبيه».

«لِكُلِّنا، إذاً، ملامح أُمَّهاتنا إذا نعسنا... وأحاليل آبائنا إذا...»، قلتُ، فقاطعني «جانو»: «منذ متى تتلفَّظ بألفاظ كهذه؟».

«أية ألفاظ تعني؟»، سألتُه:

«الآباء» قال، وأردفَ: «ألك أبٌ؟»، فابتسمتُ: «لا...». فتمتمَ: «أنتَ لا تشبهه».

«كيف تجزم؟ لم تَرَ أبي»، قلتُ، فأجاب واثقاً: «أنت نعسان، أبداً».

تغاضيتُ عن الاسترسال في مساءلة «جانو» عن برهانٍ مُقْنِع في أمر ملامح «ميلان»، وكيف استقرَّتْ على ما هي عليه في كهولةٍ لا تنتسب إلى أية أبوَّةٍ أو أمومة، لأنها من يقظات العدم الكبرى، التي تتوَحَّد فيها الصورُ وتتشاكلُ. وعدتُ إلى الظلامِ الذي يرضعُ من ثديي خُفَّاشٍ في القصيدة المُقوَّضةِ بثقل أبياتها التسعمائة: «أين أنت، علي صورو؟» أكرر لنفسي. أين ملامحك، التي جنَّدَ ميلان أعوانَهُ الملعونين من مَرَدَةِ الألغاز الرقيقة كي يخفيها عليَّ، كأنما كتبَ ما كتبَ بقصد واضح في مشاكستي أيضاً: «أتتصيَّدُ الغابةَ بفُتاتٍ من خبز كركوك؟ لقد تصيَّدْتَ الغابة، إذاً؛ لقد فتَنْتَ المتاهة كما لم يفعل تائهٌ قطُّ».

هذه كلماتُه حرفياً، حفظتها بعدما كرَّرها عليَّ حتى الإعياء. قلتُ مراراً: «ميلان. فَهمي، ولغتي الناقصةُ، لا يسعفانني في اللحاق بشيءٍ

من هذا الكون المطحون»، فكان يردُّ: «لا تلحقْ بشيء يا رجل. التكرار سيعلِّمُك أن تلحقَ قصيدتي بك». وقد لحقني طنينُ تلك القصيدة، بحقٍّ، لألحقَ فيها بـ «علي صورو» أستجلي بعضَ ملامحه، برغبةٍ غامضةٍ في أن يكون الرجلُ المحارب شبيْهَ شخصٍ أعرفه، دون تحديدِ مَنْ يكونُ ذلك الشخص. او لربّما أردتُها خليطاً من معارفي أجمعين: «جانو»، و«ميلان»، وأبي، و«عمر حاجو»، و«عمر بالو»، وحتى السيدة «سِيْرُوكي» نفسها. ولم أغفل، بالطبع، عن البحث عن فُتَاتٍ من ملامحي، أيضاً، في صورته. لكن «علي صورو» يقف في الجهة المعتمة من القوس، على بُعْدِ نصفِ رقم من حلِّ مُعْضلةٍ هندسيةٍ كالتي في كتابٍ ابتدائيٍّ، فتستعصي صورتُهُ على مرايا «ميلان» المُنْتَصبة فوق أكَمَاتِ الريح: «مرايا هي الخنادق، علي صورو. سَرِّحْ بمشطِ الغبار فيها ما تشاءُ من شَعْرِ أسلافنا».

لقد عييتُ أن أدرك شيئاً من كيانِ الرَّجل، بعبثٍ خفيفٍ من «ميلان» في ألفاظه. فلو حوَّر قليلاً قَصْدَه الواعي، وكتبَ: «سَرِّحْ شَعْرَك...» مثلاً، لرأيتُ المحاربَ التائهَ في مرآة أيِّما خندقٍ منسيٍّ من الخنادق الكثيرة التي أُصنِّف الحروبَ بحسبها، متخيِّلاً ما ينجرفُ من الترابِ إلى الوحشة العميقة التي يخلِّفُها الرعبُ في انحساره، حين لا يبقى معنى للخندق المهجور إلاّ معنى الصمت. وفي الصمتِ، تحديداً؛ في أَلَقِهِ المجلوِّ بالزئبق، كان في وسعي القبضُ على نثارٍ متطاير من ملامح «علي صورو»، لأعيدَ تشكيلها أنيسةً كالحُباحب في الظلام. ولِمَ لا؟. ألا يجزمُ «ميلان»، نَفْسُه، بشيء من هذا القبيل:

«مناجلُ يشحذُ البرقُ عليها حُنكةَ السهول،

وترى في حديدها الصقيل أريافَ أحشائك، يا علي صورو».

غير أن الصفة الوحيدة، التي تجاسرتُ على استخلاصها من شَذَرةٍ تومضُ في ثغرةِ نسيها «ميلان» مفتوحةً بين أعمدةِ أبياته المتراصفةِ أفقياً، هي أن «علي صورو» شخص طويل ربَّما: «لستَ طويلاً إلاّ كطريقٍ». وإذْ عاينتُ، فيما بعد، سببَ انطباعي هذا وجدتُه واهِناً، ثم تهتُ في

تحديد المسافات، والأطوال، والقياسات، داخل القصيدة التائهة، حتى عزمتُ على نسيانها تماماً، أو نسيان ما عَلقَ من متاهاتِ ألفاظها بجُسُورِ أعماقي، فصرتُ أخلط كلماتِها، عشواءَ، بأغاني المطربين البدوية، المقيتةِ في ادِّعاءاتها الأخلاقية وعفَّتها، المبثوثةِ، ككابوسٍ، من الإذاعة، على نحوٍ تتقاطع فيه جُملةٌ من هنا وجملةٌ من هناك، حتى غدا النسيجُ الذي ابتكَرْتُهُ شبيهاً بفُساء الظِّربان سَدَدْتُ عَنه أنفَ ذاكرتي. فيما ظلَّ انطباعٌ وحيدٌ في عظامي، من ذلك كلِّه، وهو أن لـ «علي صورو» جناحين رُبَّما، من أثرِ مُدَوٍّ لشظايا ألفاظِ «ميلانْ»: «طلقةٌ تكشفُ الجناحَ الذي لَكَ». وبقليلٍ من التحوير سأرى إلى ذينك الجناحين منبسِطيْنِ، فوق المياه، على جانبَيْ جسد «عمر حاجو»، الذي سيختطف الشمال الأفريقيَّ بمخالب يقينه فتنكشفُ الهاويةُ من تحت المكان مذعورةً بذُعرِ الزرافات الرّاكضة، وهذيان النّمور.

بالطبع، شاء قَدَرٌ رَطْبٌ كغشاءِ عينِ الدِّيكِ أن يلتهم سَرَطانٌ بطيءٌ كبدَ الرئيس العربيِّ الأفريقي، الذي قصده «عمر حاجو» على بساط عريضته الطائرِ، الممهورةِ بتواقيعَ يُسْمَعُ لهاثُها. وإذ أتى السرطانُ على لحم الرئيس، وعظامه، وروحه، ونَسَبِهِ، وأعوانه، استشرى في تراب البلد نفسه، حتى تهرّأ الهواءُ الذي في باطنه، وأَصَنَّ الماءُ الذي في علائه، ثم طاشتِ العصبياتُ فاستحلَّ الواحدُ دمَ الآخر بفتوى يبتكرُها أيُّ صبيٍّ من الرعاع تزغردُ له أختُه من تحت نقابها الناريِّ.

لربما لن يعرف «عمر حاجو»، الصامت، أن البلاء الذي أشعله عودُ ثقاب من افريقيا في غابات كردستان، ضاقَ بتسديد سهامه الكثيرة إلى حُطام شعب، فأرسل واحداً منها إلى حاضرةِ المغيب، في افريقيا ذاتها، مُرَيَّشاً بأنين المُلاَ البرزاني. لكنَّ عليه أن ينتظر حتى اليوم الذي يستطيع فيه البرزاني نَفْسُه تبليغَه بما يضعُ خاتمةً للعريضة الضائعة. سيدخل شبحُ المحاربِ الجَهْمُ على شبحِ «عمر»، في الجهة الثانية من حقل اليقطين الفاصل بين الحيوات الكبرى والصُغرى:

«أتعرفني؟» سيسأله المُلاَ، فينهض «عمر» متهيِّباً:

ـ كيف لا أعرفك، سيّدي المُلا؟

«هاتِ عريضتَك. سأدمغُها بخاتمي هذا»، وسيُخرِج شبحُ البرزاني، من حيث سترته، خَتْماً من الكهرمان الأصفر، مثلَّثَ القاعدة، عليه نقشٌ نافر. فيما سيبحثُ «عمر حاجو » عن عريضته، الملفوفة اسطوانياً مثل ناظورٍ، في ثنايا ثيابه الرقيقة، اللائقة بعالم آخر، متمتماً في حَرَجٍ: «أين هي هذه الـ. . ؟»، وسيرفع وجهه إلى المُلاّ معتذراً: «سأجدها. لا بدَّ أنها في مكانٍ ما، هنا. . .»، متحسّساً صدرَهُ، وخاصرته. لكن المُلاّ سيقاطعه مُشْفِقاً: «لن تجدها يا عمر».

«لن أجدها؟» سيتمتم «عمر» مذهولاً، وقد يضيف إلى كلماته: «لن أجدها، سيدي المُلاّ، إذا كنتَ تعرف أنني لن أجدها».

«لا عليك»، سيخفِّفُ المُلاّ على «عمر»، وسيُهديه، من ثَمَّ، كلماتٍ أخرى تكاد تُبكي، بدغدغتها، كبدَ الرجلِ الذي مات صامتاً: «رأيتُ عريضتَكَ بعيْنَيْ قَلبي، يا عمر».

«كان أَمَلي أن تمهرَها بختمك، أيضاً، سيِّدي المُلاّ»، سيقول «عمر» في حُرْقَةٍ، مستدركاً وقد عَرَتْ أنفاسَهُ نَفْحَةٌ من ألم أرضيٍّ: «لكن، ما نفعُ ختْمِكَ الكريم على عريضةٍ لم. . .»، وسيقاطعه المُلاّ، موفراً على الرجل ـ الذي لم يبُحْ بمصير ورقته الكبيرة، الممهورة بتواقيعَ واختام وبصماتِ أصابعَ، لأحدٍ ـ البوحَ بمآلِها في الجهة الأخرى من حقل اليقطين الفاصل بين النُورِ وأنقاضه: «أعطني يدَكَ». وسيمدُّ «عمر» يَدَهُ مُنْبَسِطةً كَمَن يمدُّها لقارىء بختٍ. إذ ذاك سيبلِّل المُلاّ قاعدةَ خَتْمِهِ الكهرمانِ بلسانه، ثم يَدْمغُ به راحةَ يد «عمر حاجو»: «الأمورُ التي لا تكتمل في مكانٍ ما، يا عمر، تكتملُ في مكانٍ آخر».

شبحان سيتجاذبان حديثاً ليِّناً في الخلاء الكونيِّ، الذي يلي حقلَ اليقطين؛ شبحانِ حيَّان من صنفٍ ثانٍ، ليس في حوارهما لوعةٌ على شيءٍ، مستأنسانِ بالخسارة لأنها واضحةٌ على نحو هادىءٍ وحنون؛ شبحانِ أنضَجَهما الموتُ: ذلك ما سيكونان عليه من حالٍ. وهي،

قطعاً، ليست الحالُ التي يتماحك «جانو» و«ميلان» في تجاذُب كَوْنِها:

يقول «ميلان» لـ «جانو»، في وقتٍ لن يشمله نسيانُ ذاكرتي: «ينتظرك أمر ما». فيتخابث «جانو»:

- ينتظرني، أم أنني أنتظره؟

«سيّان. لكنه أمرٌ كالذي ينتظره عمر حاجو من المُلاً مصطفى البرزاني»، يقول «ميلان».

«أَلَمْ يرحلا عبر فجوةٍ في سياج هذا العالم؟» يردُّ «جانو»، مضيفاً: «ربما ينتظر عُمَر أن يهديه المُلاً بطيخاً من كردستان السماء». فيكرّر «ميلان» قولتَهُ، متجاهلاً دُعابةَ «جانو»: «ربَّما. لكنْ ينتظركَ أمرٌ ما»، ويغمض عينيه في غلالة من دخان لفافة التبغ، مثل عرّافٍ. فيسأله «جانو»:

- لا تبخل عليَّ. قُلْ ما الذي ينتظرني غيرُ فَرَجٍ لن أهتدي إليه في حياتي هذه؟

«ستعرف حين تصير ناضجاً»، يقول «ميلان» وهو يسعل.

«ذلك أمرٌ لن يحدث قبل ثلاثمائة سنة، في الأقل»، يعقِّب «جانو»، فيؤكّد له «ميلان»، بصوتٍ مشروخٍ: «ليكنْ. ثلاثمائة سنة. أربعمائة، وستنضج يا جانو».

«لنفترض أنني نضجتُ. ماذا سأعرف؟»، يقول «جانو».

«ستعرف أن الوقتَ فاتَك كي تستخدم نُضْجَكَ»، يردّ «ميلان».

«تعني أنني قد أكون ناضجاً، الآن، دون معرفةٍ منّي؟»، يسأله «جانو»، ثم يرشُّ سخريةً خفيفةً على إناءِ كلماته: «وفيمَ نضجتَ أنتَ، ما دمتَ تعرف أنك تأخّرتَ في استخدام نضجك؟»، فيردُّ «ميلان» من تحت ظلال حاجبيه:

ألا يكفي أنني عرفت ذلك؟

«تعني عرفتَ أنك تأخّرتَ؟»، يقول «جانو».

«نعم»، يجيبه «ميلان».

«وماذا لو لم تتأخّر، يا ميلان، في معرفة أنك نضجتَ حقّاً؟».

«كنتُ أنقذتُك من هذا»، يجيبه «ميلان» وهو يشير بوميض عينيه الناعستين إليّ في مجلسه.

لم أعِرْ دُعابتَه أكثر من ابتسامة لا مغزى لها، وكذلك «جانو». لكنني لو تذكّرت كلماته تلك، يومَ ساورني وسواسٌ في قَتْلِ «جانو»، لارتعدتُ من نبرة النبوءة التي ليست إلاّ نظرةً فارغةً من عينيْ أعمى تبثُّ الفراغَ في المرئيّ.

لقد تكلّما هكذا، تقول ذاكرتي. بيد أنني حين أقلّبُ المحاورةَ، تلك، على وجوهها، أُجفلُ وأتبلبل قليلاً. فأنا، في بساطة، لم أقابل «جانو»، قطّ، في مجلس «ميلان»، برغم تردُّده مثلي عليه. فمن أين تسنّى لي أن ألتقط، بهذا الوضوح، مشهداً يضمُّهما معاً، في حضوري، ويجري لسانُهما بحديثٍ أكاد ألمسه بيدي؟

الأمرُ حِيْلَةٌ. ذلك ما يستقرُّ حُكْمي عليه، وأنا جالس إلى الطاولة أمام مقهى «أبوستولي»، يومَ يأتيني «جانو» بنبأ انهيار المتحف. غير أن الحياة، نَفْسَها، حِيلةٌ تتمكّنُ، في حَذَقٍ، من استدراج الموت إلى يقينها الشَّرِهِ، فلماذا أُشْغِلُ فِكْري بأمرِ محادثةٍ بين «جانو» و«ميلان» جَرَت في حضوري أو غيابي. لربّما صغتُها، أنا، على هذا النحو، بعد سماع أطرافٍ منها على لسان «جانو» المُهَرِّق، أو تلقّفتُها مِنْهُ تَخاطُراً. و«التخاطرُ عِلْمٌ»، أكّد لي «جانو» فاستظْرَفتُ حِكْمَتَهُ الخِنْشَاريَّة، ثم وافقته على ذلك بعد مِرَانٍ في «شؤون الرموز» كما وردتْ في هامشٍ ضيّق من كتاب «التأسيس الكبير»، برغم أنني لا آخذ حِكَمَ «جانو» إلاّ على خِفّتها.

«تصادفاتُ العمارة»: كلمتان رُصِفَتا متبوعتين بكلمة ثالثة بين قوسين، على السياق التالي: (تنبيه)، بحروف ذات مِدادٍ كثيف، كأنما

يريد المؤلف أن يستوقف القارىء برهة، قبل السماح بعبوره إلى عَرَصات المَتْنِ. ويتضمن التنبيه، بدوره، تنبيهاً: «أوردتُ هذا للفائدة، فاحذرْ أن تأخذه على عاهنه». ومراده أنَّ ما يسرده في هامشه «تصادُفات العمارة» غيرُ خليقٍ بالعقل، لكنه موصوفٌ في سجلاّت المعماريِّين دون سندٍ من علماء محمودين في شهاداتهم. والأمر كلُّه أن صاحب «التأسيس الكبير» يضع ثَبْتاً ببراهين لا يدعمها ولا ينقضها، حول أن «تخاطُرَ» العمارات مسألةٌ تردَّدت في تصانيف القدماء حتى مشارف عصره، دون انقطاع: كل بناء شُيِّد في يوم خميس، ورأى معماريُّهُ سنونوةً، في أقاصي أرض الروم، ووافَقَهُ بناءٌ آخَر، شُيِّدَ في اليوم ذاته بخُراسان، ورأى معماريُّه سنونوةً، فإنما ينعقُد لهما ما لا يختلفُ فيه مصيرُ قاطني أحدهما عن مصير قاطني الثاني: يُقْتَلون غيلةً، ويتفرّق جاهُهم على الغرباء. وإذا اكتملتْ نافذةٌ في قصرٍ، عصرَ أربعاء، ووافقها، في التوقيت والشَّكل، اكتمالُ نافذةٍ في قصرٍ آخر، بينهما من البعد ستٌّ بحيرات ونهران، فإنما ستشهد امرأتان، من النافذتين، إعدام أبناء، وحرائق تأتي على اصطبلات خيولهما. وكلُّ بناءٍ جرتْ نوافيرُهُ، أوَّل مُفْتَتَح لها، في المغيب، وكان قُرْبَها مُتَكارِهان، ثم وافقَ ذلك المُفْتَتَح ما يماثلُهُ في بناءٍ آخر، فهُما سَيَتَقَوَّضانِ بمكائدِ بَنَاتِ مالكيهما، ولو كان بينهما من البُعد ما بين نهر سيحون ونهر النيجر. أما إذا خَلصَ خطَّاطٌ إلى نهاية آيةٍ من «سورة الفتح»، على بابِ مملوكٍ لسلالةٍ واحدةٍ ثلاثة قرون، ووافقَهُ في التوقيت خُلوُصُ خطَّاطٍ آخر من ديباجةِ الحبرِ في الآية ذاتها، على بابِ مملوكٍ لسلالةٍ واحدةٍ ثلاثة قرون، ولو كان بين المبنيين ما بين بُرْجَيْ «سَبْع البحر» و«السّنبلة»، لتصاهرَ قاطنوهما بِذَكَرٍ شاعرٍ وأنثى نَسَّاجَةِ حريرٍ تكبرُهُ بعام واحد، يستولدان إبناً وابنةً تعصفُ بهما فضيحةُ حُبٍّ محرَّم، فيجنّان.

غير أن تدوين تُرَّهات كهذه، على كثرتها، ليس الغايةَ في نزهة «أبي المُغْضِل أويس المارديني» صاحب مُصَنَّف «التأسيس الكبير»، بل بدايةُ حيرته الكبرى في طبائع المعماريين، وأقدارهم المجبولة على الكيد الذي قلَّما ينجو واحدهم منه. فَهُمْ ـ كي يتبعوا سُبُلَ النجاة، ويدفعوا

عن أنفسهم وعيالهم غوائل بطش الذين يغدقون النِّعَمَ عليهم إذا أحسنوا التصاميم وبرعوا في التشييد ـ يستأجرون قُرَّاء من نوعٍ خاص، مكينين في الشارد والوارد من صنوف العمارة، وتواريخ قاطنيها، ومذاهبهم، ووقائعِ أقدارهم، وشؤونهم المخفيَّة والمُغلَمةِ، ودقائقِ طباعهم، ومراتبِ الجاه والعلوم في نَسلهم، وخصائصَ عقولهم، وشمائِلهم، والمتوافِقاتِ المُتوَاتِرَةِ في هيئاتهم، وبُنى جسومهم، وأخلاطِ ألوانهم، وألوان ثيابهم بحسب الأمزجة. وفي الأهمية الكبرى ألاَّ يغفلوا عن تدوين آخر كلمات نطق بها ذَكَرٌ أو أنثى، من آخر جيلٍ في قاطني تلك العمائر، قبل أن يسلِّموا أرواحهم إلى مراقيها.

كانوا قرَّاء مهابين ـ يصنِّفهم «الماردينى»؛ قادرين على تزيين الغَلَط وتقويض الصواب باختزالهم للمصنَّفات الكبيرة، والمتوسطة، والصغيرة، في كراريسِ ذوات أوراق قليلة لا يتجشم المعماريون مشقَّةً في الإحاطة بها تفصيلاً، تحت ضياء أسْرِجة الزيت الذي يتمايل فيجعلُ العمارةَ، ونشأتها، فنّاً من خيالاتٍ وظلالٍ. لكنَّ ذلك الاختزال المهيبَ من القرّاءِ المأجورين كان يورد المعماريين شقاءً، في بعض الأحيان، ليس أقلَّه الصَّلب على أعمدةٍ بنوها بأنفسهم. والمحنةُ مَرَدُّها أن المعماريَّ أقامَ بناءً يماثلُ في هيئتِهِ، وأيام بِنائِه، وبعضِ الحوادث المتوافقة مع قيامه، بناءً آخر نُمِيَ إلى من استخدم ذلك المعماريَّ من السلاطين، والمقتدرين، أنَّه شهدَ نَحساً، أو مَقْتَلَةً غدراً، أو مَسّاً من الجنِّ، أو سَلْبَ سُلْطةٍ، أو تَهتُّكاً مُفْتَضحاً، أو زِنى بين أقربين.

ليس على المعماريِّ أن يسهو عن خطأٍ في توافقات العمارة، و«تصادُفاتها». لكنه يوكل أمرَهُ إلى قارئٍ تصانيفَ يتفنَّنُ في سرد كلماتٍ نطقَ بها العابرون إلى الموت، بشهاداتٍ عسيرةٍ على تحرِّيها: «قالت إنها. . .»، «قال إنه. .»، ويجري توثيق في الحكمة، وفي الإعتراف، وفي الإعتذار، وفي الخوف، وفي طلب العفو، وفي الجهر بالأسرار، وفي الحضِّ على التُّقى.

قارئٌ مُهابٌ لأنه قدير في اختزال ما لا يُطاول، والمعماريُّ

يمحضُه ثِقَةَ قَدَره. وهنا، فحسب، يراهما «المارديني» متوافقيْنِ على تدبير الحظوظِ أحدهُما للآخر، بشهوةٍ إلى امتلاكِ الجَدارةِ في الحيلة. فالمعماريون يدوِّنون في مصنفاتهم، التي يستأجرون من يحرِّرونها من الكَتَبةِ، خوارقَ وألاعيبَ يقع القُرّاءُ المُستأجَرون في حَبَالِها طائعيْنَ، فينقلونها إلى كراريسهم المُختَزَلة، فيكيدُ لهم المعماريون ـ من اللاّحقين ـ بالقَتْل، إذْ هُمْ يكتبون وصاياهم قبل البدء في تصميم أية عمارة، طالبين من الورثة، إيفاءً بالإرثِ، أن يقتلوا القرّاءَ إذا حَدَثَ ما يوجبُ وقوعَ المعماريِّ فريسةً لمعلومةٍ في الكراريس نفَّذها، في العمارة، فإذا هي واسطةُ شرٍّ إلى السلطان المُقْتَدِرِ، ومصيرِ جبروته وجاهِهِ.

والقرّاء المُستأْجَرون، لتدوين كراريسهم لأمرِ المعماريين وطَلَبهم، يتركون ثغراتٍ في وصف ما تشابَهَ من عماراتِ الأرض، من أدانيها إلى أقاصيها، لا تبينُ أو تنكشفُ إلاّ بعد وقوع المقدور من مصائرِ قاطني تلك العمارات، فيتهيَّبُ الناسُ جميعاً، أصاغرَ وأكابرَ، من توكيل أيِّ أمرٍ في العمارة، والبناء، إلى ورثة المعماريِّ الذي لم يراعِ أن تكون صناعتَهُ على حذقٍ، يخالفُ كل بناءٍ من قَبْلِهِ جرى لقاطنيه ما يزلزلُهم، أو يحطُّ بهم إلى أرْذَليْنَ.

غير أن الأقدارَ أوفى في التنكيل بالمعماريين، وبالقُرّاء الكَتَبةِ ـ يقول «الماردِيني». شارحاً أن العمارة ستتشابه من يومٍ إلى آخر، ومن سنة إلى أخرى، ومن عصرٍ إلى ما يجاوره. أما الحيلةُ التي تتبقّى للكُلِّ، معمارِيِّيْنَ وقُرّاءَ ذوي أجْرٍ، فهي التمويه قَدْر المستطاع في صناعاتهم. ثم أنَّ المسألة وما بِضمْنِها من مقاديرَ تصيبُ كليْهما ـ معمارِيِّيْن وقُرَّاءَ كَتَبَةً ـ هي أكثر شمولاً في نِكالها؛ يقول «الماردِيني». فالحروب ـ منذ أنْ قُدِّرَتِ الحروبُ وساطةً إلى بقاءِ الدول وزوالها ـ تجري بقياسٍ في تشخيصِ العمارة، وإيثارِ الأقوياءِ المتخاصميْن، كُلٌّ لنَفْسِه، الحقَّ في توطيدِ فَنِّ هندستِهِ وإشاعتها كَلُغْزٍ بين رموز العالم المتَّضِحَة بتقادُمِها.

لا سِحْرَ من دون حرب؛ يقول «الماردِيني». «الخرابُ هو استيلادٌ

لِلُّغزِ، واستحداثٌ للمعنى المهجور». فكلُّ ما يطول به الأمدُ يغدو خُلُوّاً من المعنى، مقوَّضاً حتى لو كان ظاهرَ الكمال، لذلك كان العالمُ المنظورُ، وسيبقى، نَهْباً لتوريثِ الهندسة على أيدي القبائل لا غيرها. و«المارديني» لا يرى، على أية حال، صيغةً للجماعة أبعد من القبيلة، لأنها النواةُ التي تُغذِّي الشمولَ ثم تضيقُ به، من عصرٍ إلى آخر، فتنكفىءُ على كَيْموسها ذي الرَّمز الأكثر شهوةً في صيرورة المعاني.

«الهندسة حُكْمٌ، وإشارةٌ»؛ يقول «الماريدني» في خلوصِهِ إلى قاعدةٍ مبنيَّةٍ على تعريف «القوس». ولكلِّ هندسةٍ ما يماثلها من الإشارات في أعرافِ الناس، ويقينهم الذي لا يدعمُهُ البرهانُ ولا ينقضُهُ. فالرسومُ على جُلودٍ تعني أن أساسَ البناءِ المتينِ هو القريبُ إلى سطح المكان لا في عُمْقه. والكفُّ المفتوحةُ في مواجهة الشمس تعني نافذةَ الجسد. والعينُ المرسومةُ بلا حاجبٍ تعني باطنَ البيت. والتلويحُ بالذراع للفراغ الذي لا أحدَ فيه يعني قناطرَ قوسيَّةً، متقابلةً، تسمح بارتداد الهواءِ على نَفْسه فَتَبْتَرِدُ الممراتُ في المَسْكن. وانحناءةُ الرجل للرَّجُل تعني أن لا حقيقةَ تُشَيَّدُ إلاّ على قوسٍ. وانحناءةُ المرأة للمرأة تعني مباركةَ الفراغ الذي هو الرَّحم. وتبادلُ إهداءِ آنيةٍ من نحاسٍ يعني الأملَ في شمسٍ لَا تغيبُ عن النوافذ الغربية في الأبنية. وتعليقُ سيفٍ على جدار يعني كمال الزاوية التي تقع في جهة مَقْبَضه. والكتابةُ بريشِ ديكٍ أسود تعني ملازمة الروح الخفيفةِ لخلودِ التدوين، حينَ العمارةُ نَفْسُها ليست إلاّ تدويناً بالحجر الثقيل.

وثمّت، بالطبع، إشارات أبعد من أن تُحْصَرَ في رسوم مُدَوَّنةٍ، أو مخاطباتٍ بين الناس، أو تُدْرَجَ في علوم ينسخُها الخَطّاطون في صعودهم من كتابٍ إلى آخر على سلالم تحترق. فالريح، مثلاً، هي تَقَادُمُ الشَّكْلِ؛ وعاصفةُ الغبار هي مخاطباتُ الموتى؛ والسماءُ هي درعُ العاشق؛ والغيمُ هو الفرصةُ الناقصةُ؛ والنارُ هي الخيالُ مُنْفَلِتاً؛ والنهرُ هو الطبائعُ في إنصاتها إلى الطبائع؛ والأفقُ هو حُزْنُ الأقوياء؛ والسهولُ هي الوداع؛ والأدغالُ هي الهباتُ التي لا يُعْرَفُ أصحابُها؛ والحدائقُ

هي الغَذرُ المُمْكِن؛ والحجرُ هو التَّعب؛ والظِّلُ هو العبثُ؛ والحيوان هو الفكرةُ الواحدةُ متعدِّدةً في انقلاباتها الخاطفة. ولكلٍ من هذه المرموزات ما يوافقُها في الهندسة الكُلّيةِ للظاهر كإرثٍ إلهيٍّ.

«التخاطُرُ عِلْمٌ»، أكَّد لي «جانو» بحكمةٍ طائشةٍ، لكنني كدتُ أقعُ على نظيرٍ لها في مصادفاتِ العمارة، وما يتشابه من مصائرها، لدى «المارديني». وقد خَطَرَ لي ـ في الساعة التي كنتُ أتأمَّل فيها المبنى الدائريَّ المقابل لمقهى «ابوستولي»، قبل وصول «جانو» بنبأ انهيار المتحف ـ أن أعقد مقارنةً في خاطري بين مساكن المهندسين، التي أقطنُ أحدَها، وبين أية عمارة أخرى عَبَرتْ بصري ذات يوم، فوجدت الفكرةَ بليدةً، خرقاء، لا موجب لها قط، ما دامت تلك المساكن تشبه آلاف آلاف الدُّوْر وقد استُنْسِخَتْ كما صور الزعماء على الطوابع البريدية، من المحيط إلى الخليج: عشرة طوابع على مغلَّفٍ واحد صغير، تحمل ابتسامةَ رجل واثقٍ، وقسماتٍ في كمالِ انشراحها، وعينين راضيتين، كلّياً، عن إنجاز الحقيقةِ في بلده النفيس.

ما من سعادةٍ تعادل ما يبلِّغه الزعيم ـ بإطلالته المرسومة بعناية الجرّاحين في تجميل اللون، وخَلْقِ النضارات والعافية ـ من عُمْقِ الطابع البريديِّ. وعافيةُ وجهه، قطعاً، هي عافيةُ بَلَدٍ وشعبٍ هو رمزهما الذي لا مُشَاكِلَ له من قَبْل أو من بعد، لذلك ينبغي الاقتصار على صورته في مراسلات الأقربين والأبعدين. وهي صورة ستدخل حتى أكثر البيوت نأياً عن سلطانه، واستعصاءً على بلوغ فتنتهِ، وهيبتهِ المشغولةِ من حديدٍ وعظامٍ: هذا هو دَوْر الرسالة البريدية، من وجهها الخارجيِّ.

أحياناً؛ أحياناً قليلة يُلْصَقُ إلى جانب الطوابع العشر للصورة النَّضِرة، المُخَلَّدَةِ اللون، طابعٌ لفراشة مَثَلاً، أو جندي يراقبُ مَنْ هو خارج الدولة بمائة ألف كلمتر، أو مُسنَّناتٍ حديدية، نقيَّة المعدن، تدليلاً على دورةِ إنتاجٍ خالدةٍ. وفي الأمر، بالطبع، تواضُعٌ ملائكيٌّ أن يُخْلِيَ الزعيمُ المشهدَ، في الطَّابع البريديِّ، لحشرةٍ، أو هيئةٍ آدمية أُخرى لا خصائص لها إلاّ خصائص ثياب الخدمة العسكرية، أو لقطعة معدنٍ

لا تفكر. لكنها الرسالةُ التي ينبغي تبليغها، في صمتٍ، إلى من يتبادلون أسرارَهم، ورموزَهم البسيطة مغموسةً في الحبر.

الطابعُ البريديّ، من المحيط إلى الخليج، هامشٌ تحذيريٌّ، تحت مَتْنِ الرسالة المكتوبة، من خارج غلافها. والمساكن المتشابهةُ، بحسب تفكيري في تلك الساعة، لها خصائصُ الطابع البريديّ: أيْ ثمَّت مَنْ يتنصَّتُ على مكنونها في تَرْسِيمِهِ للأقدار المتشابهة حتى أَبَدِ أَبَدِها. لكنَّ المُتحف، الذي لا سابقةَ لبناءٍ على هيئته الفريدة، لم يشغلني قطُّ أن يكون مآلُهُ إلى انهيارٍ سريعٍ كذاك، وهو المشمولُ بالحصانةِ النُّورانيةِ لمتاهاته، وأقواسِ هيكله، ويقظةِ تماثيله.

زائغَ العينين كان «جانو» يقترب منّي، ذلك اليوم، برغم كلماته الواضحة: «انهارَ المتحفُ، يا رجل»، أما المشرفُ على البناء الدائريّ، الذي اجتاز الشارع في اتجاهي، فكان رخيَّ القسمات بالنبأِ المحمول في عينيه المبتسمتين. ولمّا جلس «جانو» على كرسيٍّ قربي، مُبلغاً إيايَ بالجليد الذي في احشائه، ثم نهض يتوسَّل إلى الغبار أن يُنْجِدَهُ من كابوسه، وصل الرَّجلُ البشوشُ، الرصينُ، ذو الشعر الرمادي الموحي بثقةٍ لا يمكن تجاهلُها. مدَّ يده مصافحاً فنهضت أمدُّ يديْ، بدوري، في حركةٍ تلقائيةٍ قوامُها المجاملةُ والفضول. فيما استرقتُ نظرةً، من فوق كتفه اليسرى، إلى جمهرة العاملين على المبنى الدائريّ، وهم في لحظة الفراغ من اكتماله، موحيْنَ إليَّ بإشاراتهم الرقيقة أنْ أستقبلَ المشرفَ عليهم، كأنَّه مُوْفَدُهم بخبرٍ ما.

لم يبادرني في مصافحته الدافئة إلى ذكْرِ اسمه، بل التفتَ إلى المبنى: «أظنُّه على أتمِّ ما يكون مبنى من نوعه»، فهززتُ رأسي مجامَلَةً وأنا لا أعرف من هيئة المبنى غير كُرَتِهِ الصَّمّاءِ، متناسياً أن أذكر اسمي للرجل إسْوةً به. لكنني استدرتُ صوب «جانو» قائلاً: «هذا صديقي جانو»، في بادرةٍ ليتعارفا، فلم يلتفت المشرفُ على العمارة إلى حيث يقف «جانو». كرَّرتُ المحاولة بإشارةٍ من عينيّ كأنّما أُعينُهُ على تدارُكِ سَهْوِهِ، فتطلَّع الرجلُ إلى الناحية التي حدَّدتُها، ثم عاد فنظر إليَّ كأنَّما

لم يَفْقَه شيئاً من حركتي. فبادرْتُهُ بكلام صريح، وأنا أمدُّ ذراعي على طولها في اتجاه «جانو»: «هذا جانو. أعرِّفك إليه...»، وابتلعتُ ريقي حين وجدتُ ذلك الرجلَ يتفرَّسُ فيَّ مبتسماً كأنني أُمازحُهُ، وتمتمَ: «مَنْ؟»، فاستغْلَظتُ موقفه، وقد صارحتُه بالأمر:

أأنت تحب المزاح؟

فتضاءلت ابتسامته، دون أن تختفي: «ليس دائماً»، ردَّ.

«هذا جانو»، قلتُ وأنا لا أنظر إلى «جانو» الواقف قريباً من الطاولة، بل إلى عينيّ الرجل مباشرةً، فجاراني، بدوره، متفرِّساً في ملامحي:

ـ جانو إسمٌ رخيم.

«انظُرْ إليهِ» قلتُ في نبرةٍ قاسيةٍ تجاهَلَها الرَّجلُ، على نحوٍ فيه إصرارٌ غامض، وبادرني بكلامٍ صرفني عن أمرِ تعارُفهما الذي لم أقْدرْ على إحرازه:

ـ قليلون يسبقوننا، بعامَّة، إلى إنجاز بناءٍ كهذا الذي صمَّمْتَهُ في لحظات.

بدا كلامُه لي كحفيفِ ورقِ شجرةِ الخرّوب: مسموعٌ، لكن ظلالَ الغصون تسرقُ معناه. وقد تيقَّنْتُ، لبرهة، أنه يعبث، على نحوِ ما يفعل «جانو» عادةً، الذي لم يبارح مكانه، واقفاً على بعد خطوتين من الطاولة، فحاولتُ إشراكَهُ في المحادثة الطريفة: «أنا صمَّمتُ هذا المبنى»، وأشرتُ إلى الكُتْلة الدائرية، البيضاء، الضخمة، ثم عُدْتُ مُتفرِّساً في وجه الرجل البشوش، وأنا أجاريه في مزاحه: «إذا كنتُ صمَّمْتُ هذا المبنى في لحظات، فلماذا تباطأْتُم تسع سنين في إنجازه؟».

«تسع سنين!»، غَمْغم الرجل، رافعاً حاجبه الأيسر، وقال لي، كأنّما استدرك أنَّ من مهمَّته أن يجاريني: «آه. نعم. تسع سنين؛ ثماني

لحظات. كما تشاء. السنونُ واللحظات فصيلتان من فصائل الوقت، ولهما البُنْيةُ النباتيةُ ذاتها».

«هذا شخص مَرِحٌ يليق بجانو»، قلتُ لنفسي، ووطَّدتُ العَزْم على جمعهما على الطاولة: «تفضَّلْ اجلسْ»، وأشرتُ إلى كرسيٍّ مواجهٍ لكرسيّي. ثم التفتُّ إلى «جانو»: «ما بك؟ انضمَّ إلينا. هيا..». لكنَّ «جانو» أقلقني بنظرته الخالية من أي معنى، كأنَّما ثبتتْ عيناهُ على فراغٍ كعيني أعمى، فيما اعتذرَ الرَّجل ذو الشَّعر الرمادي عن عدم الجلوس: «انظرْ» قالها وتطلَّع صوب العمال الواقفين في جمهرةٍ أمام المبنى الدائري، مضيفاً: «إنهم ينتظرونك».

عدتُ بعينيَّ إلى «جانو»، وأنا أحضُّه بصوتٍ فيه استنجادٌ خفيٌّ: «ما بكَ؟ تعالَ نتعرَّف إلى هؤلاء»، فلم تبدُرْ منه حركةٌ. فحضَضتُ الرَّجل البشوشَ: «ادْعُهُ أيضاً. إنه شريكي في التصاميم» قلتُ ممازحاً، فتساءل الرجلُ: «مَنْ؟».

«جانو»، قلت له، وأبديتُ له ابتسامةً على امتعاضٍ: «ألا تراه؟».

نظر الرجل إلى حيث أشرتُ، وعاد فحدَّقَ فيَّ: «اسمٌ رخيم». وقد كدتُ أضع حدّاً لهذا العبث، بإبداء استيائي من الفكاهات على أنواعها، لولا أن بادرني ذو الشَّعرِ الرمادِي: «من الواضح أنك لم تتعرَّف إلى أصدقاء في سَنَتِكَ هذه»، وأردفَ قبل سماع أيّ ردٍّ مني: «لن يهمّك هذا، بعد الآن، على أية حال»، وقرَّب رأسه كأنّما يوشوشني: «الوحدةُ، نَفْسُها، صداقةٌ من نوع لا يُعوَّض».

لم أتمعَّن في جملته الأخيرة قَدْر وقوفي عند كلمتيه «سَنَتُكَ هذه»، فصحَّحتُ له معلومةً لا أريد لأحدٍ تحريفها: «لي عشر سنين، هنا».

«كما تشاء»، قال الرجل في تلقائيةٍ باردة، كأنما لا يعنيه أن يجادلني، فَلَمْ تَرُقْ لي موافقتُهُ الباهتة، مما حدا بي إلى تأكيد الأمر، ناظراً إلى عينيه لأرى يقيناً على ما أقوله، وليس مجاملةً: «لي عشر سنين»، ورفعت أصابعي العشرة أمام عينيه.

لا أعرف بأية لغة بدأتِ المحاورة، لكنَّ ردَّه: «كما تشاء»، وتأكيدي «لي عشر سنين» كانا باللغة الكردية الصِّرْفة. وخِلْتُ، حين انتبهتُ إلى ذلك، أنني أطالع كتاباً من كُتبِ «الشَّقشماهي» القديمة، صنَّفَهُ مُعاصرٌ لابن سينا الطبيب. والاسم الأعجمي هذا يُطْلَقُ على كل مُصَنَّفٍ يجمع المؤلِّف فيه أسماء الأعضاء البشرية، والأدوية، باللغات اليونانية، والسريانية، والفارسية، والعربية، معاً. ولم تكن أحوالي في مخاطبة الرَّجل البشوش بأقلَّ من استئناسٍ لغاتٍ متنافرةٍ في حديث واحد، على شاكلة «الشقشماهي»، دون أنَ أَلْحَظَ في نَفْسي، من قبلُ على الإطلاق، مقدرةً على هذا الاتساع في استحضار مفرداتٍ من كل لونٍ، برغم بَساطةِ القول الذي تبادلناه. وللمرَّة الرابعة، أو الخامسة، التفتُّ إلى «جانو» مستنجداً به: «إنه يتكلَّم الكردية يا رجل»، فما اسْتَنْفَرْتُ حركةً فيه، ليضيفَ إلى قَلَقي الغامضِ قليلاً من الرَّهبة الغامضة.

استدار ذو الشَّعر الرمادي ليجتاز الطريقَ الإسفلتَ، وهَمْهَمَ يحثُّني «هيَّا»، فجاريْتُهُ، وبالي عند «جانو» الذي لا يتحرَّك في وقفته المتراخية. ولمّا اجتزنا الطريق إلى جهته الأخرى، المجاورةِ لشجرات الزيتون، ألقى الرجل عليَّ شَبَكَةً جديدةً من صقيع كلماته: «كان قوياً دويُّ تلك الطلقة»، قال.

تضعْضعتْ خطواتي: «أية طلقة؟»، سألتُه بلسانٍ جافٍّ.

حدَّقَ فيَّ وهو يبعثر أعماقي بآلاتِ ابتسامته: «لن تخرجَ من دويِّها. تلك الطلقة هي ظلُّك الآن، وصدى صوتك، وسكينتُك».

كان أمراً لا معنى له لو كرَّرْتُ سؤالي عن قصده بكلمة «الطلقة». إنه يعرف حكايتي مع الغريب. وقد عُدتُ إلى الاستنجاد بـ «جانو»، فلم أعثر عليه ببصري هذه المرَّة، فتكلَّمْتُ على نحوٍ بارد، دون احتكامٍ إلى ألفاظٍ بعينها: «منذ ثماني سنين أطلقتُ طلقتين على غريب في قبو بيتي. . . أأنت الشيطان؟».

لم تتبدَّل ملامحه، لكن عينيه تلوَّنتا بإشفاقٍ واضح: «لكَ سنة هنا»، وكرَّر الكلمةَ «سنة». واقترب بوجهه مني فلم يفُتْني الجلالُ الرقيق في شَعره الرمادي، ثم همس: «أطلقتَ طلقةً واحدةً»، ورفع سبّابته بين عينيَّ وعينيه: «طلقةٌ واحدةٌ كانت كافية».

ظَنَنْتُ الظهيرةَ تلتهمُني، لا اكثر. كنتُ جافّاً وخفيفاً في مستطاع الهواء أن ينثرني على أوراق شجرات الزيتون. لكن كلماتي، وحدها، كانت تترنَّح في الفراغ العابث، متهاويةً إلى معانيها التي لم تندمل جروحُها: «أأنت تخترعُ لي ما لم تخترعْهُ ذاكرتي؟»، قلتُ للرجل، فردَّ وهو يحثُّني على المضيِّ صوب المبنى الدائري، بلمسةٍ على ذراعي: «لا. لا أخترعُ شيئاً. دويُّ الطلقة يغطّي ذاكرتَك، وأنا أبدِّد عن ذاكرتِك الدُّخانَ»، ثم سبقني خطوتين فتهاديتُ من خلفِه مُبَعْثَراً، قبل آخر نظرةٍ يائسةٍ ألقيتُ بها ورائي، إلى حيث كان يقف «جانو» الذي اختفى. وقد أبْصَرتُ، في لَمْحٍ خاطفٍ، أولئك الأربعة، ذوي الحناجر المثقوبة، والعُصاباتِ الجلديّةِ على أعينهم، يدخلون مقهى «أبوستولي» بعناقيدَ من الطيور القتيلةِ تتدلّى من أحزمتهم، وفي أيديهم بنادقُ صيدٍ وفخاخُ حديدٌ.

أين يتصيَّد هؤلاء طرائدَهم؟. سألتُ نَفْسي، من قبلُ، على نحوٍ عابرٍ، لأنني لم أشأ الحصولَ على خبرٍ واضحٍ في ذلك، فتجنَّبتُ التقدُّم بذلك السؤال إليهم، أو إلى «أبوستولي». إنهم سيطلبون وجبةً من السَّمكِ المقليّ دون أن يتذوَّقوه. سيرفعون تلك العُصابات الجلدية عن عيونهم اليمنى، السليمة تماماً، محدِّقينَ في الآلةِ الكبيرة للغيب.

لا أعرف لماذا لم ترسُمْهم «جين». والأرجحُ أنها لو حاولتْ لَضَلَّلوا ألوانَ أقلامها، أو أَغفتْ هي قبل الانتهاء من تخطيط مشهدهم المُبَعْثَرِ في تفاصيل لا تنتهي، كمثل ما فعلتْ بـ «جانو» ذات مرَّةٍ يتيمةٍ سَرَدَ لي حكايتها باقتضابٍ شديدٍ: «استلقيتُ عارياً تحت فمها. نزلتْ بشفتيها من ذقني إلى رقبتي، ومن رقبتي إلى صدري، ومن صدري إلى بطني، ومن بطني إلى عانتي، ثم هدأتْ تماماً. فانتظرتُ، نشوانَ، ما

ستقوم به من حركةٍ تاليةٍ تُثير لُعابَ كليتيَّ، فلم تتحرَّك للحظاتٍ. رفعتُ رأسي، الذي كان ضائعاً في فراغٍ ذهبيٍّ، فوجدتُها ألصقتْ خدَّها بعانتي وأَغْفَتْ. . ياااا رَجُل!». وقد فهمتُ دهشَهُ واستنكاره الممتزجيْن بسخريةٍ مُرَّةٍ، ثمَّ لم يذكرُ لي قطّ، بعد ذلك، أنَّه دعاها إلى وليمةٍ من القُبَلِ، أو الغُزْي.

كان عمّالُ البناء الدائريِّ، الذين اقتربتُ منهم في خجلٍ خفيفٍ، مشدودينَ إليَّ بعيونهم. وجوههم فتيَّةٌ، متشابهة قليلاً. ثيابهم رماديَّةٌ سميكة، برغم حرارة الصيف. وقد تفتَّحتْ حَلَقتهُم لي على شَكْل ممرٍّ في اتجاه المبنى، فحيَّيتُهم بإيماءات كثيرة من رأسي، وأنا حيران كلَّما اقتربتُ أكثر من المبنى الذي لا أبواب فيه. وإذ توسَّطتهم، تقريباً، لم أجد بدّاً من نَقْلِ حيرتي، بعلاماتٍ صريحةٍ في وجهي، إلى المشرف على البناء، كأنني أسألُهُ: «ثُمَّ ماذا؟»، فتدارَك الرَّجلُ البشوشُ حيرتي قائلاً بصوتٍ واثقٍ: «تقدَّمْ»، فتقدَّمتُ حتى صرتُ على بعد خطواتٍ قليلة من الجدار الكرويِّ الأبيض، ثم توقَفتُ، فحثَّني الرَّجلُ: «تقدَّمْ»، فالتفتُّ إليه مندهشاً: «إلى أين؟»، فردَّ بصوتٍ لا مُزاحَ فيه: «إلى حيث تشاء».

«أأدخلُ الجدارَ؟»، قلتُ ساخراً، فردَّ:

ـ لا. ادخلْ من الباب.

«أيّ بابٍ هنا؟»، ساءلتُه مُسْتخِفّاً، فأجاب:

ـ ليس عليك إلاّ أن تقترحَ باباً، في أية جهة تشاء من هذا المبنى، وتدخلَ منه.

«أتعني. . .»، فقاطعني في كلامي الذي لم أعرف تحديداً كيف ارتِّبُه كسؤالٍ، قائلاً:

ـ أنت صمَّمْتَ المبنى، وفي وسعكَ تخيُّلَ الجهة التي يكون فيها الباب.

لم يكن في ملامح الرجل البشوش ما يدلُّ على عبثٍ، أو مزاح، برغم كلماته التي تحيَّرتُ على أيِّ مَحْمَلٍ آخذها. وقد حدَّقت في الجدار الكرويّ الذي أمامي علَّه ينطوي على بابٍ مُحْكَم التمويه، ودرتُ، قوسياً، حول نصف كرته الضخمة، فما وجدتُ شقّاً، أو ثقباً.

«لا تتردَّدْ، يا رجل. اخترْ فقط»، قال الرجل ذو الشعر الرمادي، فواجهتُه مِلْءَ عينيَّ: «إذا كنتَ تعرف الكثير عني، أيها السيد، فلماذا تتجاهل اسمي؟ تناديني مثل جانو»، قلتُ، فابتسم وهو يحوِّل عينيه عني إلى الجدار الأصمّ: «إنها لحظاتٌ ثرية هذه التي تسبق دخولك المبنى»، وعاد فتطلَّع إليَّ: «تستطيعُ اجتذابَ ما تريد من الأسماءِ الآن»، فقاطعته:

ـ هو اسم صديقي

هزَّ الرجلُ رأسه كأنما يطردُ كلماتي، قائلاً: «ادخل المبنى، يا رجل»، ووضع يده على رقبته، تحت أذنه اليمنى، ثم أبدى شيئاً من الألم الصامت، فقلتُ أجامله: «ما بكَ؟».

«لا شيء»، ردَّ. وحثَّني من جديد: «فلندخلْ».

وضعتُ راحتي على الجدار. إنه بارد وصلب. دفعته كأنَّما سينجلي اللُّغزُ وينفتحُ لي المَسْتُورُ، فبدتْ لي حركة خرقاء. تطلَّعتُ إلى جمهرةِ العمال فوجدتهم على حالهم مشدودِيْن إليَّ، فرأيت أن أحوِّل حركتي الخرقاء إلى مَرَحٍ، ولَو فاترٍ.

أشرت على أحدهم، بتهذيب، أن يتقدَّم إلى حيث أقف، فأتاني مبهوراً. قلتُ، وأنا أحدِّد بيدي مستطيلاً في فراغ الجدار: «افتحْ ثغرةً هنا»، والتفتُّ ضاحكاً إلى الرجل ذي الشَّعر الرمادي، فأومأ الأخير إلى العامل موافقاً: «افتحْ ثغرةً هنا». وفي غمرةِ الدَّهشِ الذي أصابني أخرجَ العاملُ سكيناً من جيبه، ثم شقَّ الحائطَ على امتداد المستطيل الوهميِّ الذي رسمتُه بيدي، كأنما يشقُّ ورَقاً مُقوًّى، وجَذَبَ حَدَّهُ فانفتحَ بابٌ.

درجتان من الحجر الخشن أُضيئَتا لمَّا نفذَ النُّور الصيفيُّ إلى عمق أمتارِ داخل البناء، فأضيئَتْ دهشتي أيضاً، ثم صُعِقْتُ حين اجتاحني

دويٌّ مُزَلزِلٌ من جوف المكان كأنما انفجرَتْ رئةٌ هائلة احتُبستْ فيها أنفاسُ الأرض، وأنفاسُ ضمائرها، ألف عام. أدرتُ وجهي أتفادى المجرى القويَّ للصوت وأنا أغطي أذنيَّ براحتي يديَّ، فاتحاً فمي، فتلقَّفني الرجلُ ذو الشّعر الرمادي بيديه يعينني على الثباتِ برهتيْنِ هدأ كلُّ شيءٍ بعدهما. رفعت وجهي المدفون في كتفي اليسرى إلى وجهه مذهولاً، فألفيتُه على بشاشته الغريبة: «هذا دويُّ طلقتِكَ فجرَ اليوم»، قال بنبرةٍ فيها تذكيرٌ.

ابتعدتُ عنه خطوةً أتفرّسُ في ملامحه التي بدأت تتَّضح لذاكرتي، كأنما كنتُ أعرفه في وقت ما، ونسيتُه. لم أكن مندهشاً، هذه المرّة، من ألفاظه اللامحتملة بألغازها، وقد سألته في هدوء لا يقدر عليه موقفٌ كذاك: «فجرَ اليوم؟؟»، فهزَّ رأسه إيجاباً على نحوٍ واثقٍ، وتمتم لا يريدُ توضيحاً: «إنك في البرهة التي ينجذبُ إليكَ فيها ما تريد أن ينجذبَ إليك من الأسماء والوقائع»، ومدَّ يده إلى رقبته التي لا يُخفى أن ألماً يتناوبُ عليها، في صمتٍ، مضيفاً: «تستطيع، في هذه البرهة، أن تختلقَ الزَّمن بأيِّ افتراضٍ تشاء»، وتمعَّنَ فيَّ كأنَّما يهيىءُ لوحَ قلبي لتخطيطِ قويٍّ من الرسوم: «تستطيع، أيضاً، أن تختلقَ نَفْسَك في مراتبَ كثيرةٍ».

لم يُبارح الدَّويُّ المنقوش ـ كصحنٍ نُحاسٍ ـ بألفاظِهِ النافذةِ أُذنيَّ، وعظامي. ولو قُدِّرَ لي أن أتخيَّل دويّاً مثله لاستعرتُ المخيِّلةَ المنهوبةَ لـ «وَطْفَا» أخت «عمر حاجو»، وهي تصف دخولَ خروفها الأسود إلى منزلها، مندلقَ الأحشاء من خاصرته، مذهولاً من القذيفة التي اجتازت الحدود العراقية ـ التركية، محمولةً على كفِّ المصادفةِ المحسوبةِ بعلامات السِّحْر العسكريِّ، لتسقط في ساحة دارها، وسط فردوس الدجاجات وجِنّان مُخَيَّلاتها الأزلية. ثم تبعتها قذيفةٌ أخرى أجرى الغيبُ تفصيلاً دقيقاً للمكان كي يناسبَ أهواءَها، وبراعاتِ حديدها.

قُتِلَ خروف أسود من فوره، فيما تقدَّم الآخر (وهما اثنان كما تروي وَطْفَا، وقد يصيران ثلاثة إذا سَهَتْ قليلاً، أو يتعدَّدان فلا يُذْركُهما

حَضْرٌ) ممزَّقُ الخاصرةِ من الدار، وتسلَّل إلى رِحابها يشكو إلى المرأةِ أمراً استعصى على فهمها، فاختزَلَتِ الشَّرحَ المكتومَ: «كان يبكي».

ثمَّت ما شدَّني، بعد سماعيَ الدَّويَّ في أحشاء المبنى، إلى ذاكرة خروف «وَطْفَا» الأسود نَفْسِه. وهو أمر ليس بالمتعذِّر على شخص مثلي من مواليد «الحمَّى القَمَريَّة»، وهي ساعةٌ من الساعاتِ التي يُنَقِّلُ النُّورُ فيها الخواصَّ الكبرى للمولودات على رقعةٍ واحدةٍ من شطرنجهِ، في سرمديةٍ من تمازُجِ الحُجُب وانفتاحِ بعضها على بعضٍ، وانعتاقِ المصادفاتِ من أن تكون في عِلَلِ العقلَ التي يؤكِّدُ بها حصانَةَ السِّرِّ.

مَلَكَةٌ واحدةٌ تتقاسَمُ الإنسانيَّ والحيوانيَّ في جِزْمِها إذا كانت ولادة الكائن في الحمَّى القمرية، أي في الساعة التي تتعرّقُ فيها ظلالُ الأنواع من مسام الجسد الواحد للمشيئة. فإذا أُنجِزَتِ النشآتُ المخلوقةُ باستتبابِ أعمارها على نضوجٍ، ظلَّتْ على انجذابٍ، بخاصِّيَّةِ هذه الحمّى الطَّاهرة، نوعاً إلى نوعٍ، وجِنسَاً إلى جنس، وطبائعَ إلى طبائعَ، كأنَّ المغاليقَ المستحدثَةَ بين الكائنات المتنافرةِ هي سُفُنٌ ذاهبةٌ آيبةٌ، في اتجاهاتِ الجَذْبِ الحُرَّةِ للحقيقة.

ما أستطيع استرجاعَه من ذاكرةِ خروف «وَطْفَا»، هو هِبَةٌ من الخروف القتيل نَفْسِه، ليُشْهِدَني على أن سلالةً ثانيةً من ألغاز النُّوْر تتوالد، في دخول الظلام مَرْقاهُ الثاني، كي نتحصَّن بها ـ ككائنات مُنْتَخَبةٍ للألم ـ من نَهْب المَعنى. ولا نريد أن نكون مكشوفيْن كثيراً ـ أنا وخروف وَطْفَا ـ لهذا الحَشْد من تدابير آلاتِ السُّخر العسكرية، في الصَّقْعِ المترامي لمثلث الرعب الكرديِّ. لذلك سنتخفَّى على مراصد المعنى، باقيَيْنِ في طهارةِ النُّقصان التي لا تُدْرَكُ بالعلوم القويَّة.

أنا وخروف «وطْفا» لسنا إلاّ خفاءَ الظاهر. وقد شممتُ، بذاكرتي، بعضاً من صوفه القصير المُحترق، ورأيت في الوميض الخاطف، بعينيه هو، فردوسَ الشكلِ الأول للهيولى وهي تمزِّق أقمارَها الثلاثة ثلاثين مرَّة، وتمزجهم في خَلْطها الشمسيِّ، ثم تسكبهم، بعد أن

يذوبوا، في الإنبيق ذاته الذي تمسك به أناملُ الفراغ المرتعشةُ من فَرْطِ كهولَتها.

لم يرَ خروفٌ، من سلالة ذلك الخروف الأسود العريقة، وميضاً كذاك. أَغْشَاهم النُّوْرُ أحياناً ـ نعم ـ من صواعقَ مُتَهتِّكةٍ، أو مرورِ أجرامٍ تحت ثياب الملائكة، أو من مشاجراتِ الجِنِّ إذا تقاذفوا باليواقيتَ المضيئة. لكنَّ وميضَ القذيفة، التي اجتازت الحدودَ بين العراق وتركيا إلى مزودِ روحه، مَكَّنتْهُ، وخدَهُ، لبرهةٍ، أن يعبرَ قطيعاً من الأسلاف، هادئيْنَ كغمامةٍ، تموجُ أصوافهُم النقيَّةُ السوداءُ في الهبوب الرَّحيم لشهوةِ الكونِ الكُلِّيَّة.

أسلافٌ بقوائم لا تُحصى، أعلنوا القطيعة الأولى مع الخلود، ليعفوا أنفُسَهم من مجازات الإنسان الغارق في البحث عن حضوره الثاني، الدفين في يأسِ أعماقه؛ أسلافٌ ينعمون بالفناءِ اليقظان الذي هم فيه بلا مديحٍ، أو تبجيلٍ، أو يأسٍ؛ باقِيْنَ على أشكالهم ذاتها التي وُهِبَت لهم من الأزل ليكونوا البرهان على أنَّ ما ورثوه من كينونةٍ ثابتةٍ في تجلّيها الحيوانيِّ هو نعمةٌ لا تحظى بها الصنوف الأخرى من كائنات الفِكْر المُرْتَجَلَةِ، ذات الرَّجاء الأخرق في أن تتحوَّلَ من كثيفٍ إلى شفيفٍ، ومن طين إلى نُور، ومن قاصريْن، أبداً، في أعمارِ الأرض العمياء إلى قاصريْنَ، أبداً، في أعمار الفراديس العمياء.

لم يكن على خروف «وَطْفا» أن يعرف أن هؤلاء الذين يعبرُهم، في مسيرته الثانية صوب جَسَدهِ الثابتِ الأبديِّ، هم أسلافُه بتحديدٍ قاطع، لأنه ليس في حاجة إلى التعرُّف إليهم: هُمْ موجودون ـ منذُ استَولَدَ الخَلْقُ هيئاتِه الكثيرةَ فَزَعاً من الوحدة ـ في صورتِهِ هو، المُكتمِلةِ، المُكتفيةِ بظاهرها الطّاهر، الصقيلةِ التي يتعدَّد فيها النوعُ إلى مُطْلَقِهِ المُطْلَق. وهو لا يفكِّر كي يعرفَ، على أية حال، لأنَّهُ الفِطْرَةُ المشمولةُ بالكفاية التي لا مَزِيْدَ لها.

غير أن خروف «وَطْفَا»، المندلق الأحشاء، لم يهمَّه أنَّ اندفاعاتِ الشرِّ الكبرى، في ذلك الصَّقْعِ من أرض الكرديِّ المُمَزَّق، إنما هي

حسابٌ تسدِّده الأنظمة إلى الموت، باختيارِ مهيبِ، كأنما تجاهدُ أن يكون الشَّرُّ نَفْسُه مَطْهراً لها وانعتاقاً.

لقد تقدَّم الخروف خطواتٍ إلى داخل بيت «وَطْفا». تأمَّل أَلَمَهُ في عينيها، ثم تَسَلَّم من الكمالِ ذي المفاتيح الكثيرةِ وجبةً من برسيم رَطْبٍ شمَّتْهُ المرأةُ عابقاً بنداوته في الحجرة الواسعة، قبل أن يختفي الخروف الأسود، مُخَلِّفاً جُزَّتَهُ الصوفَ، وهيكلهُ ذا القوائم الأربع المرتعشةِ، فوق حافة سجادة الصلاة المفروشة أرضاً.

كنتُ أنظر نظرةً لا معنى لها إلى الرجل ذي الشَّعر الرمادي، في هبوبِ ذاكرةِ خروف «وطفا» عليَّ من جوف المبنى الذي انفتح أمامي. ثم خطوتُ خطوة أولى في اتجاه الدَّرجة الأولى، دون فضول، نازلاً إلى عمق سردابه العريض المغطى من واجهتيه برسوم حجبَها عني سطوعُ ضياءِ الخارج، لكنني تمكنتُ من تبيُّنها أوضحَ حين صرتُ إلى القاطع الظليل بعد خطواتٍ: هي ليست رسوماً باللون، بل تصاويرُ باذخةٌ في شِباكٍ من الخرز الصغيرة كالرَّمل، جرى الاشتغالُ على نمنماتها الرَّهيفة في جنونٍ، وحذاقة، وانفلاتٍ من الزَّمن ايضاً.

سردابٌ بطول أربعين متراً: هكذا قدّرْتُه. والتصاويرُ المتناظرةُ على جدارَيْهِ شِبَاكٌ من البحيرات الزرقاء وقد نبتَ على ضفافها قصبٌ طويل ذو ورقٍ متهدِّلٍ مليءٍ بصور عيون آدمية. وإذ تمعَّنتُ في القصبِ وجدته هياكلَ بشرية، في هالةٍ من سموقٍ نحيلٍ، مائلاً قليلاً يعتذرُ - ربَّما - إلى الريح، أو تعتذر الريحُ إليه.

كيف أمكنَ إنجازُ ذلك الفيض اللامحتمل من التصاوير بالخرز؟ أيُّ يائسٍ نسيَ يديه لتشتغلا هذا الشُّغْلَ الأبكمَ من ذهولِ اللون؟.. «يلماز ملّي»!!. آه. أستطيع أن أضرب جبيني براحة يدي، في قسوةٍ، حتى تنزف مخيّلتي، قطرةً قطرةً، وأنا أواجه نفسي بهذا التفسير. التفتُّ إلى الرجل ذي الشعر الرمادي مستفسراً في الأمر، فوجدتُه يمسح عن رقبته خيطاً من الدَّم. وإذ أحسَّ بنظرتي بادرني بصوتٍ فيه رقرقةٌ: «نعم. إنّه يلماز ملّي» قال كلماته وهو ينتشِل أعماقي من حُجُبِها.

تفرّست فيه دون فضول: «أتعني سجينَ الألفي عام؟ أظنُّ جانو اخترعَ حكايتَهُ»، فهزَّ رأسه مبتسماً: «ولِمَ لا؟ جانو يخترعُ ميلانَ. ميلان يخترع جانو. يخترعانِكَ وتخترعهما. هذه أصولٌ مرعيةٌ في الشرود الذي ينتابُك الآن، أعني البرهةَ المضمونةَ لك، كحقٍّ، قبل دخول هذا المبنى»، وتأمَّلَني في حنانٍ «بُرْهَتَكَ الكُلِّيَّة».

لمرةٍ واحدةٍ نظرتُ خلفي، محاولاً، في سذاجةٍ، تناسي ما سمعتُه توّاً، فإذا خيطٌ من الدَّم يشقُّ بسكِّينِهِ الخفيِّ أرضَ السرداب الصقيلة، وقد انطبعتْ فيه آثار خطى شخص واحد، ينتعلُ خُفّاً صيفياً في نعله حُزوزٌ متماوجةٌ، قدَّرْتُ - قَطْعاً - أنَّها آثارُ حذائي. وكي أتأكّد أكثر تمعَّنتُ في حذاء الرجل البشوش فوجدتُه حافياً.

تسلّقتْ عيناي دَرَجَ عينيه، فتوقَّف: «أما ضجرتَ من أن تتأمّلني؟». رمى كلماتِهِ كَوَدَعٍ فوق زجاج روحي، فاستحييتُ منه، لأوّل مرَّةٍ، حتى أنني وجدتُ نَفْسي حُرَّةً من أية حيرةٍ، أو تساؤل، كأنما أفقتُ من غرابةِ ما يحدثُ على أمرِ أليفٍ ينبغي تأمُّلُه كي يستوفي حضورَهُ اللائقَ به:

«لم أقصد ذلك» قلتُ معتذراً للرجل، ثم ابتسمتُ، بدوري، وقد آنستُ العلاماتِ الكبيرة في شأن هذا اللقاء المُتْرَف: «تلفَّظتَ بأسماء أعرفُها مثل تلفُّظي بها»، فرفع حاجبيه: «حَقّاً؟؟»، وأشاح بوجهه عني ينظر إلى تصاوير الخرز: «كيف تلفَّظتُ بها؟». فأجبته: «تنطقُ بها خفيفةً، مهموسةً، سهلةَ الحروف، لها ظلالٌ يمكن الإختباءُ فيها».

نظر إليَّ نظرتَهُ الحنونةَ: «أنتَ تختبىءُ في ظلالها». وتقدَّم خطواتٍ، واضعاً راحة يده على رقبته، التي لم أشكَّ في أنها تنزف. وإذْ هَمَمْتُ أن أسأله عن حاله، بادرني هو: «أأنت على ما يرام؟»، دون التفاتٍ إليَّ.

لم أُفاجأ بسؤاله المُرْبك. ثمت استسلامٌ دافىء في أعماقي للمشهد كلّه، الذي أُحسُّ إحساساً لا يوصف أنني أصوغه مُلْتَبساً كي أفاجىءَ

نفسي التي لم تَعُد تُفاجأ. وقد عبرتُ، بعد خطوات أخرى في كمين السرداب الواسع، حزاماً من الصوف الملوَّن، ذا جيوب كثيرة متجاورة في صف طويل، فلم تَعْرُني حيرةٌ، أو ذهول قط. ألقيت نظرةً عابرةً عليه، بينما كان حريًّاً بي أن أُصْعَقَ، ويشقَّ قلبي أفعوانُ الدَّهشِ المُجَنَّح: «إلهي، هذا حزام ميلان الذي يحفظ فيه عاناتِ نسائه». غير أننا، حين بلغنا نهايةَ السرداب المفتوحة على حديقة صغيرة، دائرية، تحت قبة المكان المُغْلق بزجاج فيروزيٍّ، خرج شبحٌ، بغتةً، من ظلِّ باب جانبيٍّ، واحتواني قبل أنْ أتمكَّن من حَصْرِ أيِّ مَلْمَحٍ فيه، لكنني عرفتُ صوتَهُ ذا الرَّنين المُوْحِش: «لا نبضَ»، قالها وهو يَضع آلةَ جَسِّ النَّبْض على صدري، ثم تراجع إلى الخلف بوجهٍ منشرحٍ، ملقياً عليَّ عِظَةَ العرَّاف الساخر: «القلبُ تدوينٌ مضطربٌ يصحِّحُهُ السِّرُّ». واستدار عائداً، على عَجَلٍ كبير، من حيث دخل. وإذْ غاب في العتمة التي لا تُرى فيما وراء الباب، علا الصَّدى المعدنيُّ لصوتِهِ، كأنما في خلاءٍ شاسعٍ ضُرِبَتْ عليه قبَّةٌ هائلة من النحاس: «إخْرَسي»، وفَرْقَعَ سوطٌ في المجرَّةِ اللامرئية.

سألتُ الرجلَ البشوشَ: «مَنْ يخاطبُ هذا المشرفُ على مساكن المهندسين؟»، فردَّ بنبرةِ العارف: «التماثيلَ. إنَّها تتململ».

هواءٌ أنيسٌ عَبَر الحديقةَ الصغيرة، قادماً من جهة السّرداب، ممتزجاً بقليلٍ من صخب درَّاجاتٍ نارية أظنُّها توقَّفتْ عند مقهى «أبوستولي». وأستطيع الجَزْمَ أنها إحدى عشرة، سوداء عالية، من نوع «ياماها» الياباني. لقد رأيتها مرَّةً واحدةً من قبلُ تتوقَّف أمام المقهى، غير أنني لن أنسى التماعاتِ طلائها النقيِّ، ووجْهَ أحد الدَّرَّاجيْنَ، الذين بقوا معتمرين خوذاتهم الضخمة وهم يشربون «البيبسي» من عُلَب صفيح، ويتبادلون النكات، على الأرجح، بلغة لم أفهم لفظاً منها. وأنا قدَّرتُ أنها نكاتٌ بسبب إنصاتهم الفجائيِّ إذا تحدَّثَ شخصٌ منهم، وانفجار ضحكاتهم بعد ذلك.

استرعاني واحد منهم وهو يتلمَّس عتبةَ باب المقهى بخَطْمِ حذائه،

ثم استند على كتف رفيق له بيده حين توجَّه إلى البرَّاد الكبير.

كان وجهه إلى الأعلى في الآن الذي كانت أنامله تتقرَّى علبَ الشراب الصفيحية ليختار واحدةً له، فأدركتُ أن حركاته هي حركات أعمى. وتأكدتُ إذْ رأيتُ عينيه تتفتَّح أجفانهُما عن غشاءين حليبيين يغطّيانهما تماماً، يتوهّج عليهما بريقٌ منسيٌّ من قَدَرٍ مُطْفَأٍ.

شربَ من العلبة، مثله مثل الآخرين. وخرج، كما دخل، متلمّساً طريقَه باستنادهِ إلى كتف رفيقٍ له. ثم بلغ درَّاجتَهُ فامتطاها دون استعانةٍ بأحد. وأدار محرِّكها كما أدار الآخرون محرِّكات درَّاجاتهم، ثمَّ انطلقَ كخُطَّافٍ أسود حين انطلقوا.

كان للمشهد حرَّاسٌ من طلاسمَ رقيقةٍ، لم أرَهم، لكنهم كانوا هناك كالبخار الذي تصاعدَ من قطعة الجليد حين نزلتْ إلى قاع كأسي، في ذلك القيظِ المحمولِ على جفافٍ ذي نشيدٍ مُحْرِق. وأنا، إذْ سمعتُ شهقةَ الدَّرَّاجاتِ النارية، محمولةً إلى أعماق المبنى الدائريِّ، كانت عينا السائق الأعمى، وحدهما، تحوُمان فوق زهرات الحديقة الصغيرة فراشتين بيضاوين، عابثتين، ترتطمان بين لحظة وأخرى بجدران القبَّة المغلقة، ذات الزجاجِ الفيروزي، ثم ترتدَّان في اتجاه السرداب إلى حيث يقف، على مَخْرجه، نهارٌ أعمى يتَّخِذُهما عينين في متاهاتِ ضيائه.

ظننتُ، لبرهةٍ، أن فُسحةَ الحديقة هي آخر مطافٍ في أحشاء المبنى، برغم وجود الباب الذي غاب «الطبيب»، المشرفُ على مساكن المهندسين، في العتمة التي تليه. وقد بحثت، بعينيَّ، عن مقعد أجلس عليه حتى يجلوَ الرجلُ البشوشُ لي ما خفيَ من سِحْر هذه الدَّعوة، فما وجدتُ مُرادي، فنظرت إلى صاحبي مبتسماً: «مكان جميل»، قلتُ، فردَّ مبتسماً، ويده على رقبته: «لقد تعبتَ»، وصحَّح جُملتَه من تلقاء نَفْسه: «أعني تعبتَ قليلاً»، فأحسستُ، على نحوٍ مباغتٍ، بوهنٍ ما اهتديتُ إلى تحديد مكانه في جسدي، لكنّه - يقيناً - كان موجوداً من قبل، ولم يكن مداهماً في تلك اللحظة التي ذكَّرني الرجلُ بتعبي. وفي

استسلامٍ رقيقٍ منّي إلى معرفته هو أومأتُ مجيباً: «نعم. عظامي ثقيلة».

تقدَّم الرجل خطواتٍ أربعاً، في قوسٍ من حول سويقات زهرٍ أصفر طويل، ودعاني بحركةٍ من رأسه فَسُقْتُ نَفْسي إليه، لأرى أن تلك السويقات، ذوات الورق الصغير الكثيف، تحجب دَرَجاً في اتجاه الأسفل. وقد نزلتُ من خلفه، في تباطُؤٍ كمثل نزوله، فيما أبصرتُ الدَّمَ، أوّل مرّة، ينبجس من بين أصابع راحته الملتصقة برقبته. وبالطبع، كان في مستطاعي تصوُّرُ آثار قدميَّ في الخيط الأحمر الذي ينزل الدَّرج مثلنا، ساخناً، في استقامةٍ متَّزنةٍ برغم تعرُّجاتِ نزولنا.

كنتُ أتمايل. ولم يَخْفَ عليَّ أن تمايلي كان على صورة نزول الرَّجل البشوش ذاته فوق الدَّرج. وهُوَ كلَّما تباطأ تباطأتُ، كأن قواي تجاري قواه في تدبيرها الضعيف، وتقْرِنُنا، معاً، سلسلةٌ لها قيدانِ من النعاس الذي لم يحجب عنّي، كُليّاً، أن الدَّرَج تحت أقدامنا كان شبيهاً بالدَّرج النازل إلى قبو مسكني، الذي دوَّتْ فيه، قبل سنين، طلقتان تجاهلهما المهندسون جميعاً، حتى «جانو». وقد شكَكْتُ، في تلك البرهة من تعرُّفي إلى الشَّبه بين الدَّرَجيْن، في أن أكون أطلقتُ إلاّ طلقة واحدة من البندقية، بسبب الحيرة الخفيفة التي استولدتْها كلماتُ الرجل البشوش فيَّ عند مُفْتَتَح لقائنا: «طلقةٌ واحدة كانتْ كافية».

طلقتان. طلقة واحدة. لا يهمّ. خيط الدَّم يسبق خطواتنا البطيئة، مَرِحاً وأميناً على شهواته التي تترقرقُ في عِرْفانها المُقْتَصد. نعم. الدَّمُ لا أنْ يُخبَسَ، بل أن يفيضَ، ويجريَ حُرّاً؛ ذلك الدَّمُ الذي تحدَّر، كدليلٍ عارفٍ، فوق الدَّرج الصامت، تحت بصري الذي توقَّف عن تزويد قلبي بأيِّ شيءٍ يُرِيبُ، أو يفاجىءُ، أو يُذهِش، حتى لأخالُ نفسي ترقى إلى مشهدٍ مكرورٍ، وجدتُ وصفاً له، في كلامٍ لن أتحقَّق من مصدره، عن «تهذيبِ المجهول».

كيفَ يُهَذَّبُ ما ليسَ بحاصلٍ بعدُ؟. الأمرُ هيِّنٌ ـ يقولُ البرهانُ الذي وجدتُهُ في كلام غيرُ مُحَقَّقٍ: «يُرَوَّضُ المجهولُ إذا بالغْتَ في الإعوال عليه». يلينُ لَك، ويأنسُ قبل أن يكون، لأنّه تدبيرٌ محضٌ من

مصيرك المُغلَن. «كُنْ له. لا يُشغِلْكَ إلاّ هو حتى لا ينشغلَ إلاّ بك. أنتَ رَقْمُه. إستوْحِهِ. أجّلْ حاضركَ به. أجّلِ المعلومَ بانصرافِكَ عن المعلوم». تلك بعض الكلماتِ في البرهانِ المُوحى بحدْسٍ أرضيّ. وأنا، في زَعمي، أنَّ من يوافقُ نَفْسَه بامتلاكه معرفةً ما، أطْمَعَ المجهولَ في نفسه فأقْلَقَها. لذا أراني عميمَ الجهل، في برهتي هذه؛ خاوياً كخواء المعنى، فيغدو كلُّ أمرٍ ممكنِ الحدوثِ استنساخاً متوالياً على صورةِ الفراغِ وجهالته الأزلية.

لم أُفاجأ بالضوءِ الفيروزيّ حين بلغنا بهواً مستطيلاً أسفل الدَّرج، غطتْ جدرانَهُ رسومٌ نافرةٌ كأنَّما من الجصِّ الصَّلب، لحيواناتٍ شتّى. وكانت تتنفَّس جميعاً، فترتفع وتنخفض خواصرُها من الشهيق والزَّفير الهادئيْنِ، كأنما أُلصِقتْ تلك الحيوانات بالجدران إلصاقاً غارتْ فيه أنصافُ جسومها، ثم طُلِيَتْ بالكلس الأبيض ليتوحَّد اللونُ في ذلك البهو المُشرقِ بضيائه الفيروزيّ.

«سنتصيَّدُها، الآن»، تمتم الرَّجل البشوش. وحدَّقَ فيَّ: «إنها حبيسةُ حُرِّيَّتِكَ، يا رجل»، فمددتُ يدي إلى كتفه، وجعلته يستدير بكلِّه إليّ، متفرِّساً في ملامحه التي رأيتُها تزداد شَبَهاً بملامحي كلَّما أوغلنا أكثر في أعماق المبنى، متمتماً بدوري: «الصَّيدُ ميزانٌ».

ابتسمْنا، معاً، ابتسامةَ اعترافٍ سِرِّيّ. ومعاً، على نحوٍ متناظرٍ في الحركات، جلسنا على أرض البهو، حيثُ امتدتْ أمامنا رقعةٌ ملأى بالخناجر النحاسية، والمُدى، والأباريق الصغيرة والنصال ذات التخاريم والنقوش، صامتيْنِ بامتنانٍ هائلٍ للنِّظامِ الكُلّيّ الخاطف في عبوره. ولستُ أدري كم لبثنا على تلك الحال، قبل أن يرفع الرَّجلُ إليَّ، من تحت فخذه، غلافَ طلقةٍ من عيار ١٢ ملم، ما تزال ساخنةً، تتصاعد منها رائحةُ البارود: «هذه هي»، قال لي، فتناولتُها منه، أُقلِّبُها بين أناملي: «نعم. هذه هي»، قلتُ، ووضعتها أمامي، على الأرض، مرتكزةً على عقبها النحاسيّ، الذي يحيط بجزء من الورق المقوّى، الحافظ للكُراتِ الحديدية الدقيقة التي تتشظّى في انطلاقها.

بعد برهةٍ في الكثافةِ الفيروزية للضياء، مدَّ إليَّ الرجلُ شيئاً آخر: «يلزمُك هذا»، فانعطفتُ بوجهي إلى يده اليمنى، التي رفعتْ إليَّ لِفافةً مستطيلة، سميكةً، ما كدتُ أتناولها منه حتى عرفتُ محتواها من مَلْمَس الحافظة الجلدية، المُطوَّقة من وسطها بسيور من القُنَّب زيادةً في الحرص: إنه كتاب «التأسيس الكبير»، الذي شممتُ ورَقه الدَّفينَ في جلد الجاموس، وسمعتُ سطورَه الدائريَّة تتبادل بروجَ أكوانها المُخْتَزلةَ، لاهيةً كأنها أوقَعَتْ بالمعاني في متاهاتِ الحبر وأهواله.

«أكان هذا الكتاب هنا، أيضاً؟»، سألتُه، فلم ينبس في جلسته، فعكفتُ، في هدوء، أفكُّ السيورَ القُنَّبيَّة عن الحافِظةِ، ثم استخرجتُ المُصَنَّفَ الشاحبَ منها، وقلَّبتُهُ بين يديّ: «القوسُ مِحنةُ الهندسةِ». أعرفُ موقعَ السَّطر الذي يحمل هذه الجملةَ التي تحملني. وقد ملْتُ بكتفي اليمنى على الرجل البشوش، الجالس لصقي، أقرِّبُ من وجهه صفحة الكتاب: «اقرأ هذا..»، مشيراً بإصبعي إلى العبارة الأثيرة عن مِحنة الهندسة، فاستَشْعرتُ وَهَناً ترتجف منه يداي. نظرتُ إلى وجهه كي أستعين به في فَهْم الضَّعْف الهادىء كَخَدَرٍ يدبُّ رقيقاً في لحمي وعظامي، فإذا الرجلُ قد مال رأسُهُ حتى لَيَكادُ يلمس كتفَهُ اليمنى، مغمضَ العينين، في قسماته امتنانٌ لا يُوصف.

أغلقْتُ دفَّتي الكتاب، ووضعتُه على الأرض أمامي، قرب غلاف الطَّلقة، مُثْقلاً بنعاسٍ يتماوجُ كسماءٍ من صوف. وقبل أن تستسلم أجفاني لذلك الثِّقلَ الحنون، الصاعد من أعماقي في إغواءٍ حنونٍ، لمحتُ وسط جسوم الحيوانات الحيَّةِ، النافرةِ من جدران البهو، طائراً كَسَر القشرةَ الكلسيةَ ليحطَّ بين المعادن المنقوشةِ أمامي. ثم خَطَا خطواتٍ، في جَلالٍ رقيقٍ كعظامه الرقيقة، مُستعرِضاً ـ بعنقه الطويل ـ سهولَ قلبي، وجهاتِهِ المنذورةِ، بتعدُّدها الذي لا يُحصى، لشمالٍ واحدٍ يُلقي بنرْدِهِ، في استخفافٍ، على الصفيح الرقيق للفراغ.

تراخى عنقي، في هدوءٍ، صوب كتفي اليمنى، حين غطَّتِ الغيبوبةُ قِدْرَها النحاسيَّ بغطاءٍ من الريح، وارتفع طائر البشروش النحيل

إلى القبَّةِ الأبعد خلف حجاب المكان، حيث الظَّاهرُ، وحدَه، يُعْتِقُ الأبديةَ من كمالها.

خارج المبنى الدائريّ كان رُسُل الطَّلْع يتشاجرون في تجوالهم بين شجراتِ الزيتون شرقاً، وشجرةِ الخرّوب الضخمة غرباً، وهم يرتِّبون، بآلاتِ ندائهم النَّباتيَّةِ، مقاليدَ النَّشْأةِ المُحْتَمَلَةِ لثمرِ ما سيلتصقُ به، ذا صيفٍ ماجنٍ، غبارٌ أثارَهُ خيالٌ عابرٌ.

نيقوسيا

من ٢٣/ ١٠/ ١٩٩٢

إلى ٢/ ١/ ١٩٩٤

صدر للمؤلف

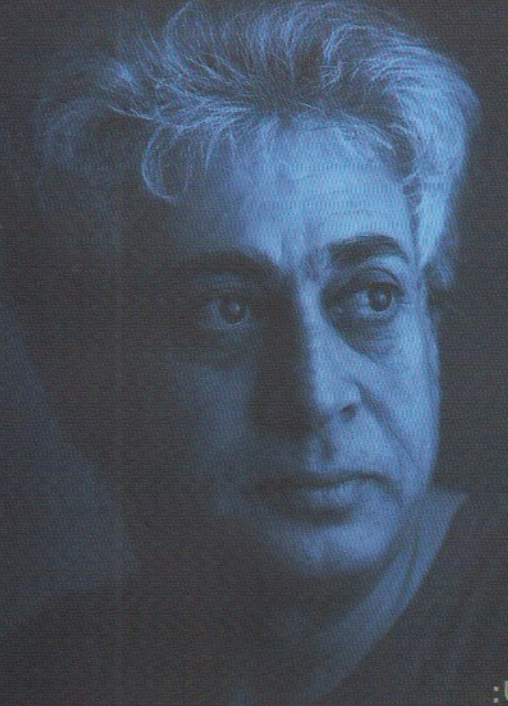
- كل داخل سيهتف لأجلي، وكل خارج أيضاً (شعر).
- هكذا أُبعثر موسيسانا (شعر).
- للغبار، لشمدين، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك (شعر).
- الجمرات (في شؤون الدم المهرّج، والأعمدة، وهبوب الصلصال) (شعر).
- الجندب الحديدي (سيرة الطفولة).
- الكراكي (شعر).
- هاتِهِ عالياً، هاتِ النَّفيرَ على آخره (سيرة الصِّبا).
- فقهاء الظلام (رواية).
- بالشِّبَّاكِ ذاتها، بالثعالب التي تقود الريح (شعر).
- أرواح هندسيّة (رواية).
- الريش (رواية).
- البازيار (شعر).
- الديوان (مجموعات شعرية في مجلَّد واحد).
- معسكرات الأبد (رواية).



الفهرست

THE CROSSING OF ALBATROS





الفلكيّون في ثلاثاء الموت:
عبور البشروش

لم يكن يظلّلهما شيء ، بالرغم من أنّ مترين ، على الأرجح ، شمالاً ، كانا كافيين ليصيرا إلى ظلّ القبّة ؛ وكانا ، كلّما جئت قبيل الظهر ، وجدتهما هناك على حالهما: الطائر الغريب الكبير كالديك الروميّ ، ذو الوجه المستدير مثل البوم ، وهو يلقي نظرات باردة من عينيه الآدميّتين على العامل ؛ والعامل يلقي إليّ ، بين وقت وآخر ، نظرات جانبيّة من عينيه الغائرتين في قناع وجهه الشبيه بكرة من الشمع ، ثمّ يعود فينهمك في صقل اللوح بحجر زجاجيّ له صرير يعبر إسفلت الشارع ...


ISBN 9953-36-937-2

9 789953 369372



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي : موكيالي ،
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨